

فبراير 2017

417

آكلو اللوتس

الجزء الأول

رواية

تأليف: تاتيانا سولي
ترجمة: زهرة حسن
مراجعة: د. أحمد البكري

آكلو اللوتس

الجزء الأول



آكلو اللوتس

الجزء الأول

روايـة

تــألــيــف: تاتيانا سولي

تـــرجـــمـــة: زهرة حسن

مـــراجـــعـــة: د. أحمد البكري



تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

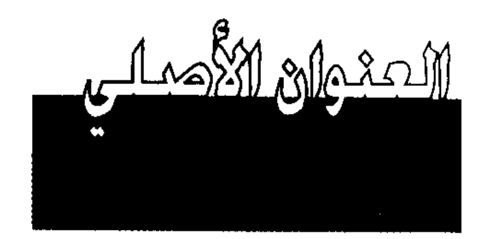
www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978 - 99906 - 0 - 546 - 6

آكلو اللوتس
رواية



Lotus-eaters

الطبعة الأولى - الكويت
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2016م
إبداعات عالمية - العدد 417

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني
(1990 - 1923)

المقدمة

مفهوم الوطنيّة مفهوم خاصّ وعامّ في الوقت نفسه، إذْ يختلف الأمر من شعب إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر، فالشعوب الكبيرة تفهم هذا الأمر كفخر بعظمة إنجازاتها، والشعوب الصغيرة التي ترى وطنها تحت خطر محتمل دائم تفهم هذا الأمر كإحساس بالمسؤوليّة تجاه وطنها، وبهذا يكون الجميع قادرا على الإحساس بالأمر؛ إذْ إنّ جميع الأوطان تعرّضت لخطر ما اختبر وطنيّة أبنائها بشكل أو بآخر، وهذا ما نجده في رواية «آكلي اللوتس»؛ حيث لا نستطيع إلاّ أن نتّخذ موقفا إنسانيّا مع كلا الطرفين أمام الحالات التي تقدّمها الكاتبة في إطار الحرب، فهي إذا فكرة صالحة لكلّ الأزمان من حيث الفكرة واللغة الجميلة. وهذا كان سبب اختياري لترجمتها.

يأتي سبب تسمية رواية «آكلي اللوتس» من الأسطورة اليونانيّة «الأوديسا» حيث يصل جنود أوديسيوس التائهين عن وطنهم إلى أرض اللوتس التي يعيش أهلها على ثمار اللوتس ،فيتذوّقونها فيفقدون كلّ رغبة بالعودة ويتعلّقون بالمكان الجديد من شدّة لذّة ثمار اللوتس، كما أنّهم بكوا بمرارة حين أجبرهم قائدهم على العودة، وهذا يتوافق تماما مع مضمون الرواية؛ حيث تتعلّق هيلين بأرضها الجديدة وتنسى كاليفورنيا مسقط رأسها، كما يتوافق أيضا مع متعة قراءتها؛ حيث يتعلّق القارئ بشخصيّات هذه الرواية وحالاتها الإنسانيّة المتنوّعة والكثيفة والغنيّة التي تلامس أعماق عقله ومخيّلته وإحساسه.

في هذه الرواية الساحرة نجد هيلين وحبيبها الفيتنامي لين؛ الواقع في نزاع بين حبّه لها ووفائه لوطنه، يحاولان

الهــروب من تلك المدينة التي أدمنت عليها هيلين وعشــقتها. وتعــود الروايــة بتقنيّة الارتجــاع الى اســتذكار بدايات الحرب حتّــى لحظــة مــا قبل ســقوط ســايجون حيــث كان ســام دارو الــذي رأت فيــه هيلين مثلا أعلى، والطــرف الثالث في مثلّث الحــبّ الــذي تجد نفســها عالقة فيه. ســيتعلّق القــراء بهذه الروايــة التــي تعرض الشــغف والواجب والطمــوح في ظروف غايــة فــي الصعوبــة تمثّلها فوضى الحــرب. في هــذه الرواية المتخيّلــة بصورة بالغة القوّة ترســم تاتيانا ســولي ثلاثَ صور مميّــزة تجتمــع تحــت مظلّــة الحــرب المســتحيلة. فــي الأيّام الأخيرة لســقوط ســايجون تجد هيلين آدامــز - الهاوية التي تمّ الاســتخفاف بها - نفسها تتحوّل إلى نجمة باهرة بفضل صورهــا العاصفــة ويتعبها نــزاع طموحها مــع رغباتها بينما تتشــابك مشــاعرها تجــاه رجلَــين مختلفين تمامــا، أحدهما لين الغامض وهو صحفيّ مصوّر من فيتنام بولاءات مشكوك بها، و الآخر هو ســام دارو وهو مراســل صحفيّ أمريكيّ مدمن علــى تخدير العنف وعلى حبّــه الخطير تجاه هيلين. يتحوّل الثلاثــة بســبب الفوضــى ويخاطرون بكل شــيء لتســجيلها. تكشــف رواية «آكلــي اللوتس» عن لوحة مشــغولة بثلاث أرواح واقعين في فخّ شــغفهم الشديد وأهوائهم وهواجسهم الغادرة المخادعــة. ســيذهل القرّاء بهــذه الرواية الأولــى الرائعة التي تعكس متضادّات الرعب الموجعة للعراك مع قوّة الحبّ المنقذة المخلصة.

تاتيانــا ســولي: كاتبــة الروايــة تعيــش فــي مقاطعــة «أورانج كاونتــي» فــي كاليفورنيــا. نشــرت قصصهــا القصيــرة بشــكل واســع وتمّ التنويــه عنهــا مرّتــين بــين أكثــر مائــة قصّــة مميّزة،

بـين أفضـل القصـص الأمريكيّــــة، ورُشّــحــت لنيـل جائـزة بوشـكـارت. «آكلـي اللوتـس» هـي ظهورهـا الأوّل كروائيّـة، حيث حـازت هـذه الروايـة علـى جائـزة «جيمـس تايـت بـلاك» (James Tait Black Memorial Prize) وجائـزة «دانـا» كمـا رُشّـحت لنيل جائزة لـوس أنجلوس للكتاب. نشـرت روايتها الثانية «شـجرة النسـيان» فـي العام 2012 و«الفـردوس الأخير». ظهـرت فـي العـام 2015. كان كتابها الأوّل «آكلـي اللوتس» أحد الكتب المرموقة حسـب صحيفة نيويـورك تايمز لعام 2010 كما أحرزت افضل مبيعات أيضا. كما ظهرت أعمالها في أهمّ المجلاّت الأدبيّـة أمثال (Zyzzyva) زيزيفا وبوليفـارد (Boulevard).

وفيما يلي ماراء بعض الكتّاب والصحفيّين بالرواية:

أكثـر روايـة أولـى مبشّـرة للعـام وواحدة مـن أكثـر الأصوات الجديـدة اسـتفزازا وجدلا في فنّ الخيال. روايـة «آكلي اللوتس» ستغريكم وتسحركم وتنقلكم إلى عالم آخر.

وقالـت عنها جانيت ماسـلن من صحيفـة «نيويورك تايمز»: «روايـة آسـرة ستسـكنك وتسـحرك». وجـاء فـي تقريـر الكتـاب لصحيفـة «نيويـورك تايمز» أيضا: «رائعة ومشـبعة بالإحسـاس والتشـابك الرومنسي، وكتابة رائعة أيضا تضاف إلى متعة قراءة آكلي اللوتس».

وقالـت عنهـا مجلّة الناس (people) «بعد خمسـة وثلاثين عاما على سـقوط سـايجون. تقرّبنا رواية تاتيانا سـولي الأولى لتجعلنا نشعر أنّنا جزء من المشهد».

وقال عنها ريتشـارد روسـو مؤلّف رواية «السحر القديم لذاك الخليـج»: «جميلـة ومروّعـة، عليكم قـراءة رواية «آكلـي اللوتس» فشخصيّاتها لا تُنسى».

كما قال الكاتب تيم أوبرين مؤلّف مجموعة قصصيّة بعنوان: «الأشياء التي حملوها»: «عالم آسر من الحرب، الخيانة، الشجاعة، الهواجس والحب».

والكاتبة جانيس لي مؤلّفة رواية «معلّم البيانو» قالت: «الحرارة ذاتها من أدغال فيتنام تبدو كأنّها تخرج من صفحات الرواية الأولى الهائلة القوّة لتاتيانا سولي، كتاب جميل».

زهرة حسن

الجزء الأول

(1)
التّداعي
28 أبريل من عام 1975

مشت هيلين في الشّارع المهجور، حيث تأرجحت المدينة في حالة حلم بينما كان الزمن يمضي، لاحظت انعكاس الشّمس على موسىً حلاقة طويل يهتزّ داخل مشحذه فوق الأرض، ولم تستطع أن تقاوم إحساسها فانحنت لالتقاطه خوفاً من أن يشقّ قدم أحد المارّة، وحين صرف انتباهها ضجيج كلاب تقلّب حاويات القمامة انتزعت الموسى دون أن تنظر، أدارت يدها لترى بقعة دم تنتفخ على يدها بمساحة جرح إبرة، فلعنت غباءها ورمت المُوسى والمشحذ إلى طرف الطّريق ومضت مسرعةً.

سمح الصّمت المطبق للشّارع لهيلين بأن تسمع عويل فتاة صغيرة. كان صراخها لاهثاً وعالياً، كان صراخاً بائساً وحيداً مهجوراً يرتفع ويشقّ الهواء ناشراً احتجاجه وشكواه بين الأبنية. عبرت هيلين الزّقاق حول زاوية الشّارع لترى طفلةً صغيرةً يتراوح عمرها بين ثلاث سنوات وأربع، يصعب التّمييز لسوء التّغذية الشّديد الّذي تَعاني مَنه تلك الصّغيرة. كانت واقفةً هناك، أمام باب إحدى الحانات، ووجهها وشعرها غارقان في جهد البكاء، كانت ترتدي قميصاً قطنيّاً أصفر

واسعاً جداً، عاريةً من الأسفل ومن دون حذاء، كان الوحل يملأ ما بين أصابع قدميها.

فرض عليها المشهد المثير للشّفقةِ التقاط صورة، لكنّ هيلين تردّدت متمنيّةً أن يأتي بالغٌ من ذاك الباب لينقذ الطّفلة، لم تكن تنوي البقاء إلا لساعات أو أيّام في هذا البلد.

تهادت الصّغيرة عدّة خطواتٍ باتّجاه الرّصيف، كانت لاهثةً، وعيناها غارقتان بالدّموع عندماً كاد رجلٌ يدهسها بدرّاجته وهو يعبر زاوية الرّصيف بسرعة جنونيّة، ترنّحت هيلين دون تفكير وأمسكت ذراع الطّفلة وسحبتها وتكلّمت بسرعةٍ بلغةٍ فيتناميّةً سلسة قائلةً: «أين والدتك يا صغيرتي؟».

بجسدها الصّغير المنهك من عبرات البكاء، بالكاد نظرت الطفلة إلى هيلين. وتقلّص حلق هيلين بغصّة تردّد. من الخطأ التوقّف إذ إنّها وعدت نفسها بعدم التورّط، استدار بهما الشّارع فارغاً من جميع الاتّجاهات، ولم تقترب أيّة امرأة منهما.

نزلت هيلين إلى مستوى عينَي الطّفلة، فاندفعت الطّفلة نحوها بتهوّرٍ ولفّت يديها حول عنقها، وهدأ بكاؤها إلى هديلٍ خافت.

«ما اسمك يا حبيبتي؟».

لا جواب..

«هل آخذك إلى البيت؟ ها؟! البيت؟ إلى أمّك؟ أين تسكنين يا صغيرتي؟».

بدأت الفتاة تذرفُ دموعاً جديدةً بعد أن ارتاحت، لا يذهب فعل خير بلا حساب.

كانتْ حقيبة الكاميرا ثقيلةً وضخمةً تضرب ردف هيلين، فأنزلت رباط الكتف، ووضعتها على الأرض، وكانت تمشي في

الشّارع جيئةً وذهاباً للفت الانتباه، وتكلّم نفسها لاهثةً: ماذا تفعلين؟ ماذا تفعلين؟ ماذا تفعلين؟

مع أنّ هيلين تمكّنت من استشعار أضلاعها وعظام الكتف الحادّة كأجنحة، إلا أنّ الطّفلة كانت ثقيلةً بشكل مفاجئ، وكانت قدماها الملفوفتّان حول خصر هيلين لزجتين، وملأت مَنخريها رائحة بول قويّة.

وبعد طعنة من نفاد الصّبر قالت لها هيلين: «عليّ أن أذهب يا حلوتي، أين أمّك؟».

هزّت الطّفلةَ لتهدّئها، وأخذت تمشي جيئةً وذهاباً، لم يكن ذهنها صافياً..

لماذا كانت تضيّع ساعاتها الثّمينة وتورّط نفسها الآن؟ لماذا وقد مرّت قبلاً بمئات الأطفال البائسين؟ ولكنّها سمعت بكاء هذه الطّفلة بوضوح كبير، أهي إشارةٌ؟ كان سيقول ذلك لين: يبدو أنّها إشارةٌ إلى أنّها كانت تفقد عقلها.

عبرت شارعاً وكان المأتم يفيض بالبشر، هل عليها أن تأخذ الفتاة معها إلى البيت؟ ستصبح مسؤوليّتها بعد مغادرة هذه الزّاوية.

هل تستطيع أن تأخذها خارج البلاد مع لين؟ ماذا خطر ببالها لكي تتوقّف؟ هل كان فخّاً؟ ممّن؟ هل كان اختباراً؟ مَن.. ماذا؟

ربّتت هيلين على شعر الطّفلة بارتباك وغضب، كان لها وجهٌ بشكل قلب وأذنان كصدفتين صغيرتين كاملتين، إنّ حمّاماً وثوباً جميلاً كفيلان بأن يجعلاها رائعةً.

بعد مرور ما بين عشر وخمسَ عشرةَ دقيقةً بدت فكرة أنّ ما حدث كان إشارةً، فكرة أكثر غباءً، دقيقةً بعد أخرى لم يأتِ أحدٌ.

لا شـيء إلا فرقعة الأسـلحة بعيداً، خطر في بال هيلين ترك الطّفلـة والمضيّ في طريقها، فلا بـدّ أنّ عائلتها قريبةٌ من المكان وتبحـث عنها، لكن لن يضيرها أن تبقى بصحبتها لبضع دقائقَ، لم يكن ذلك مسـؤوليّتها بعد كلّ شـيء، وعندما بدأت بالانحناء لإعـادة الطّفلة إلى مكانهـا على الأرضِ، شـدّت الطّفلة ذراعيها حول عنق هيلين إلى حدّ الاختناق، فاستسـلمت هيلين وشـدّتها إلى الأعلى.

كان كلّ شيء خاطئاً، وكان الخطأ فادحاً، ودليلاً على فشلها. لا بدّ أنّ لين قلقٌ الآن، ويحتمل أنّه خرج محاولاً البحث عنها.

انحنت هيلين لالتقاط شـريط حقيبة الكاميرا، واضعةً إيّاه على الكتف الآخر لموازنة الثقل، ربّما كانت إشارةً مجنونة؟

ولكن ماذا عساها أن تفعل إلا أن تأخذ الطّفلة معها!؟

عندمـا وصلـت هيلين والطّفلة إلى منتصـف الطّريق، صرخ صـوتُ امـرأةٍ مـن خلفهما، فاسـتدارت هيلـين لترى وجـه امرأة واضحاً كالقمَر، بشفتيها المتشقّقتين، واتّجهت المرأة نحوهما.

«هـل أنت والدتها؟» سـألت هيلين، وقالت بإحسـاس بالذّنب: «لم أكن أحاول أخذها».

سـحبت المـرأةُ الفتاةَ من بـين ذراعي هيلين بعينـين حادّتين، وتذمّرت الصّغيرة حين وبّختها الأمّ وضربتها على رجليها.

قالت هيلين: «لم تستطع أن تخبرني أين تعيش؟».

اسـتدارت الأمّ ومضـت دون أن تلتفـت التفاتـةً أخرى، نظرت إليها الطّفلة من فوق كتف والدتها بعينين داكنتين خاليتين من أيّ تعبير، واختفتا بعد عدّة خطوات حول الزّاوية.

شـعرَت هيلـين للحظة قصيرة أنّها علـى خطأ، فقد افتقدت وزن الفتاة ورجليها اللّزجتَين، ثمّ اختفى الإحساس في لحظته.

كيف كان للأمّ أن تكون بهذا الإهمال، امتعضت هيلين قليلاً من أنّ الأمّ لم تشكرها وحتى إنها لم تعترف لها بجميلها، لكن بعد إسقاط ذلك الحمل وغياب الفتاة في الماضي عادت إليها حماستها، عليها أن تستجمع قواها، فحملت حقيبتها وتفقّدت ساعتها ومضت.

في يوم عاديّ تملأ الحركة والنّشاط في الشّارع عينَي هيلين لدرجة أنّها لا تعرف أين تتّجه مشتّتة الانتباه فيما يدور حولها في الشّارع، من اللّوحات الحيّة للحلاقين الّذين يحلقون شعر الزّبائن على جانب الطّريق في الهواء الطّلق، إلى بائعي الشّاي الّذين يتصبّبون عرقاً فوق مواقدهم، والأباريق الّتي اسودّت من جرّاء اللّهب، أو حتّى الصّبية ذوي الشّعر المصبوغ الّذين يبيعون كلّ شيء من المعكرونة إلى الدّجاج والسّجائر، أو كبار السّنّ بلحاهم الشّائكة هادئين مثل بوذا، يلعبون الشّطرنج الصّينيّ دون توقّف.

كانت تجد هناك بقايا الحرب غير المتناهية وحطامها؛ متسوّلين وأشخاصاً مقطّعي الأوصال محتشدين في الشّارع حيث كان من الممكن أن يعطيهم الأجانب بعض المال.

لكنّ الشّارع كان خاوياً اليوم، فالنّوافذ مكسورةٌ والأبواب محطّمةٌ كملامح مشوّهة لوجه كان يوماً ما مألوفاً، النّاس رحلوا أو اختبؤوا، كان الشّارع مشوّهاً بغيابهم.

كانت مدينة سايغون بالنّسبة لهيلين سوقاً للبيع، مكاناً لبيع الدّجاج، وبيع المعلومات أو حتّى بيع الشّابّات الجميلات، لكنّ كلّ ذلك لم يكن مهمّاً.

كانت هذه المدينة تدعى سابقاً لؤلؤة الشّرق، لكن لمَن لم يزرها منذ وقت طويل، لم تكن يوماً باريس، لكنّها أصبحت اليوم

حامية عسكريّة، لم تكن من الرّوعة في شيء، كانت مدينة أكواخ وملاجئ نتنة، ممتلئة بالغاضبين، المخدوعين والمسلوبين، لكنّ هيلين جعلتها مدينتها، ولم تستطع أن تتحمّل فكرة أنّها على وشك المغادرة.

كانت هناك حركةٌ بقرب مركز المدينة، حيث انتشرت عصابات النّشالين كنسائم الرّيح، سواء كانوا من المواطنين أو الجنود المغلوبين على أمرهم وقد أودى بهم الحال إلى أن يصبحوا خارجين عن القانون، يقتحمون المخازن أثناء مرورهم، المخازن ذات البضائع التي يرغبون في الاستيلاء عليها.

أسرعت هيلين في مشيتها وهي تمتص الدّم من طرف إصبعها، لكنّها لم تستطع أن تحبس حماسها، فتوقّفت لتنظر حولها متصوّرةً الأمر في مخيّلتها، كان هناك صبيةٌ مراهقون، بعضهم يرتدي الجينز وبعضهم الآخر يرتدي ملابس قديمة، يكسرون زجاج نافذة أحد المحلات، والبضائع الوفيرة في الدّاخل تنتظرهم، لكي يسرقوا الأطعمة، يلتهمون أقفاص الجوّافا والجاك فروت، وهناك فتاةٌ صغيرةٌ يسيل على وجهها عصيرٌ يبلّل سترتها البيضاء. أدهشها دوماً ما يحدث عندما تتداعى الأشياء. ما الوحدات الأساسية للحياة؟

بعد عدّة ساعات مشت هيلين بسرعة أكبر وهي تتلمّس الرّسائل في أعلى حقيبتها، تلك الّتي أمضت الصّباح كلّه تستجديها، لقد ألغى ذلك حماقتها السّابقة برغبتها في البقاء حتّى اكتمال التّسليم، تمنّت أنّ لين لم ينسَ في غيابها أن يأخذ المضادّ الحيويّ أو المورفين الخاصّ به، لكنّها خمّنت أنّه لم يفعل، بعد ثورته الصّغيرة عليها كان قد سامحها وسامحها مراراً، لكنّه الآن وضع حدّاً لذلك الأمر.

رفعت الكاميرا إلى مستوى عينها في السّوق المركزيّ لعدم قدرتها على التوقف عن السير، وقامت بالتقاط صور سريعة لمجموعة من الرّجال الّذين يتجادلون ثمّ يمضون حاملين أكياساً من الأرزّ المصقول، حزماً من الأقمشة، مراوح كهربائيّة، راديوهات صغيرة، تلفزيونات، مشغّلات فيديو، ساعات يد، صناديق من الكونياك الفرنسيّ والسّجائر الأمريكيّة، كانت مفلسةً لدرجة أنها تمنّت أن تبيع بعضاً من هذه السّاعات في الولايات المتّحدة.

هبّت رياحٌ شرقيّةٌ، نسيمٌ فاسدٌ متعبٌ ملأ المدينة برائحة الجيف والقمامة العفنة، ربّما كانت الخشخشة الآتية من الشّمال مقدّمةً لعاصفة مطريّة، لكنّ أهل سايغون عرفوا أنّ الصّوت ما هو إلا هدير المدفعيّة، وأصوات لصّواريخ وقذائف الهاون الصّادرة عن جيوش الشّيوعيّين المقتربة، ارتفع دويّ وحرارة ذهنها وشغلها سؤالٌ واحدٌ، ماذا سيحدث بعد ذلك؟

لم يأبه النّشّالون بما يفعلون لأنّهم خمّنوا أنّهم سيموتون خلال ساعات، فتقاتلوا على البضائع في المحلات، وبعد عدّة دقائق تركوها في الشّارع خارجاً وقرّروا الذّهاب إلى مكان آخر للعثور على أشياء أفضل، حتّى إنّ الفقير إلى حدّ العوز كان يدرك أنه ما نفع ساعة ذهبيّة على جثّة هامدة؟!

مشت هيلين في الشّوارع المهلهلة دون أن يلحق بها ضرر، كأنّها لم تكن أجنبيّةً، بل امرأةً، وعوضاً عن ذلك تحرّكت في المدينة بثقة المنتمية إليها.

كان قد أطلق عليها الصّحافيّون الرّجال قبل عشر سنوات لقب «هيلين من سايغون»، ضحكت فقد كانت الأمريكيّة الوحيدة الّتي رأوها منذ زمن، لكنّها لم تكن تنتمي الآن إلى مدينة مدمّرة، بجسدها الّذي أضحى نحيلاً وكتفيها المحدّبين من التّعب،

عظمة الفكّ الحادّة الّتي فقدت جمال امتلائها الطّفوليّ، وعيناها الزّرقاوان تحدّقان في الظلام العميق.

بدت الحرب منذ عشر سنوات وكأنّها لن تنتهي، وكلّ ما استطاعت التّفكير به الآن كان فكرة: «وقتٌ أكثر، أعطنا وقتاً أكثر»، كانت ستستمر حتّى النّهاية رغم أنّها أضاعت ثقتها بقوّة الصّور لأنّ الصور أصبحت في حدّ ذاتها هدفاً لا يؤدي إلى أية نتائج.

توقّفت هيلين عند شارع «تو دو» أحد الشّوارع الشّهيرة في سايغون وقد هزّتها الفجوة الكبيرة بينه وبين باقي المحلات، وهو محلّ للقبّعات النّسائيّة الفرنسيّة، ذاك هو المكان الوحيد الّذي بدا حصيناً، كان كقلعة تقف ضدّ المصائب الّتي يمكن أن تصيب المدينة، كان الباب مهجوراً وزجاج الواجهة محطّماً، ورغم وجود صناديق محطّمة وأدراج مرميّة في الدّاخل لم تصدّق هيلين الدّمار أمامها حتّى رأت كرسيّين فارغين ومقلوبين.

عندما أصبحت الحياة في سايغون صعبةً نوعاً ما كانت هيلين تذهب إلى ذاك المحلّ لتستمتع بصحبة «آنوك» المالكة الباريسيّة ذات الشّعر الأشقر الغامق المصفّف بعناية، والحاجبين المرسومين بقلم رصاص، وخدّيها الغارقين بمساحيق التّجميل، وأربطة الجوارب الحريريّة الّتي أصرّت على ارتدائها رغم الحرارة، كانت الأنثى الوحيدة الصّديقة لهيلين طوال هذه السّنوات.

لم تفهم هيلين في البداية مواهب المرأة الفرنسيّة، والتّجربة الاستعماريّة الّتي جعلتها تولد بعيداً، حيث عاشت منذ زمن طويل في الهند الصّينيّة، وقد ازدهرت تجارتها لمدّة عقدين بعدَ أن أتتَ إلى سايغون عروساً شابّةً، وبعد وفاة زوجها أخبرت أهلها أنّها ستبقى هناك وحيدةً.

كانـت الصّديقتـان ترتـادان مقهـىً عنـد الزّاويـة لاحتسـاء الإسبريسـو، حيث كانت هيلين تجلس وتتحمل توبيخ صديقتها على إهمال شـعرها وبشرتها، وكيف لهيلين أن تهتم بهما بعد أن كانـت تأتي إليها وقد أمضت سـاعات في الميـدان تعمل تحت حر النّار، ابتسـمت هيلين للمرأة الفرنسـيّة الّتي قدّمت لها عبوتين صغيرتـين من المسـتحضرات المعطّرة العلاجيّـة، كانتا جميلتين لدرجة أنهما جعلتا هيلين تحبّ صديقتها أكثر..

تُرى هل أضحى خوف آنوك عظيماً ليجعلها تترك كلّ شيءٍ وراءها وتخلي المكان وترحل؟!

كان الكيمونو الأحمر المطرّز لا يزال في نافذة المحلّ المحطّمة لـم يلمسـه أحـد، ذاك الّـذي سـاومت هيلـين على ثمنـه، مع أنّ الحقائـب والأحذيـة الفرنسـيّة الأرخص ثمناً كانت مسـروقةً إذ إنّ الفيتناميّـين كانوا يفضّلون البضائع الأجنبيّة على البضائع الآسيويّة.

لـم تعمـل هيلـين بمشـروع له مـردودٌ مـادي منذ فتـرة وكان حسـابها فـي البنـك خاويـاً والدّفعـة الأخيـرة من الصّـور الّتي صوّرتها أعيدت إليها منذ شهر مع الاعتذار: «إنها قصّةٌ حزينةٌ.. لكنّها القصّة القديمة ذاتها، وربما سيتبدلّ الحال قريباً».

انزلـق الحريـر ثقيـلاً وناعمـاً مـن بـين أصابعهـا، كانت قد أجهـدت آنوك ولكـنّ الكيمونو كان لا يزال غالياً، كانت تلك لعبةً يلعبها المساومون على سعر قطعةٍ من الملابس لمدّة أشهر، وأخيراً استسلمت هيلين واشترتها.

رفضت آنوك أن تبيع القطعة إلى أيّ شخص آخر، وقد أحسّت هيلـين أنّها لصّـةٌ عندما قامت بخلعها عن تمثال عرض الملابس وأخبـرت البائعة أنّها سـتكمل ما تبقّى من ثمـن القطعة عندما

تراها مرّةً ثانيةً، في باريس؟ في نيويورك؟ لم تستطع أن تتخيّل لأنّ آنوك لم تعد تنتمي إلى مكان آخر إلا سايغون.

كانت المدينة بأكملها تحت الحراسة، حتّى الأولاد الّذين كانوا عادةً يصخبون مطالبين بالهدايا والمعونات كانوا هادئين، يقفون وقد استندوا بظهورهم على جدران الأبنية، حتّى بدوا وكأنّهم فهموا أنّ الأمريكان خسروا الحرب بأسوأ طريقة ممكنة، الأصغر سناً بينهم كانوا يمصّون أصابعهم وعيونهم تتبَع هيلينَ إلى آخر الطّريق، وحالما أدارت ظهرها سمعت طقطقةً ناعمةً لحجارة رميت إلى مسافة قصيرة خلفها، أسرعت هيلين في طريقها مستخدمةً شوارعَ وأزقة أقَلّ ازدحاماً متجنّبةً بذلك الطّرق الأكبر مثل «نجيون هيو»، حيث كان احتمال تعرّضها للمشكلات أكبر.

عندما أتت هيلين إلى سايغون لأوّل مرّة ملمّةً بتاريخ المدينة من الكتب، صدمتها قلّة اهتمام ومعرفة الأمريكان بذاك البلد، وكيف تنقّلوا في الشّوارع ذاتها يوماً بعد يوم (نجيون هيو) و(هاي باترونغ) و(لي لوي)، دون أدنى فكرة أنّ هذه الشّوارع ما هي إلا أسماءٌ لأبطال حرب فيتناميّين ثاروا على الغزاة الأجانب.

كانت تلك تجربة فيتنام، كلّ شيءٍ واضح المعالم ومعناه واضحٌ لمن يريد أن يفهم.

كانت المدينة كبيرةً جدّاً، مغمورةً بأحياء اللاجئين الفقيرة، والمقاطعات التّاريخيّة الصّغيرة الّتي تتمتّع بواجهات استعماريّة خلابة، تخفي خلفها مساحات كبيرةً من سقائف الصّفيح وأكواخ الورق المقوّى، وتهديدات بتفشّي الكوليرا والطّاعون، حيث كانت بعض الفنادق تمسح الأرصفة أمامها وتنظّفها بالأمونيا أو البَخور المحروق، وكان كلاهما علاجين غير فعّالين بنفس الدرجة.

كان جمع القمامة متقطّعاً حيث تمّ ذلك آخر مرّة منذ عدّة أسابيع، وكان على هيلين أن تخوض في الطّين إلى أخمص قدميها في بعض الأزقّة مستخدمةً عصا لتخيف الجرذان وتبعدها عنها.

غطّت شعرها بشال غامق كي لا تجذب الانتباه، كما أنها قامت بارتداء جلباب قطنيٍّ أسود فوق قميصها لتخفي آلة التّصوير، حيث كانَ الجنود قد قاموا بضرب عدّة مخبرين سابقاً ممّا جعلها قلقةً جدّاً؛ لأنّ الكاميرا كانت مغناطيس الغضب فيما بينهم، والجنود الفيتناميّون الجنوبيّون بوجه خاصّ كانوا أكثر قسوةً على الصّحافيّين، ويلومون المقالاتَ المتكرّرة الّتي تخصّ الفساد، تلك الّتي أوقفت القطار الكبير للأموال الأمريكيّة.

كان أولئك الجنود لا يحبّون الظّهور، رفضوا تسجيل أية أدلّة على نهبهم للبضائع، كانت وجوههم مبثوثةً في صحف العالمَ، مما يقضي على فرصهم بالارتقاء في بلدهم أو بالهجرة إلى الخارج، أشفقت هيلين عليهم رغم أنّها كانت تخافهم بالدّرجة نفسها، فلم يكونوا بالكاد إلا رجالاً مساكين، مخدوعين ككلّ الّذين تركتهم هناك في سايغون، فكلّ الأغنياء أو ذوي السّلطة غادروا البلاد ولم يبقَ فيها إلا من أهملهم التّاريخ.

عندما وصلت إلى الزّقاق الّذي يقود إلى مبناها، طوت هيلين الكيمونو في حضنها ونزلت إلى الكشك كما اعتادت أن تفعل في معظم الأيّام، رفعت الكاميرا وأخذت لقطةً سريعةً للذّكرى.

«مرحباً أيّتها الجدّة سيونغ، كيف حالك؟».. تابعت الجدّة تحريك إبريقها، وبالكاد نظرت إلى هيلين وصبّت لها كوباً صغيراً من الشّاي وقدّمته إليها.

شعرت الجدّة بأنّها مخدوعةٌ؛ لأنّها أحبّت تلك الغريبة، تلك المجنونة الّتي تناقل النّاس أخبارها بصفتها شبحاً، لهذا لم تكن قادرةً على العودة إلى وطنها.

قالت هيلين لنفسها: «لماذا أضيّع فيلماً على هذه العجوز القبيحة؟.. أنا أصوّر نجوم السّينما فقط».

ابتسمت الجدّة ورشفت هيلين شايها قائلةً: «اقرئي لي الأوراق»، هزّت الجدّة رأسها ونظرت إلى الكوب ثمّ قامت برمي محتوياته وأجابتها: «لا يهمّ، أنت لا تؤمنين، إنّها معتقداتٌ فيتناميّةٌ قديمةٌ».. فردّت هيلين: «لكن ماذا لو كنت أؤمن؟ ماذا تقول الأوراق؟».

نظرت إليها الجدّة متسائلةً إذا كانت الحقيقة ستغيّر شعور هيلين نحوها:

«كلّ شيءٍ أسود، ليس هناك مزيدٌ من الحظّ».

هزّت هيلين رأسها وقالت: «من الجيّد أنّني لا أؤمن إذاً. أليس كذلك؟»، هزّت العجوز رأسها واكفهرّ وجهها.

تناقلت الأخبار أنّهم رأوا المرأة الغريبة هائمةً على وجهها في الشّوارع وحدها، والرّيح تطيّر شعرها، فاقدةً البصر، وكانت تكلّم نفسها وتدخّن الغليون.

«ما الخطب يا جدّة؟».

كانتا صديقتين منذ أن كانت هيلين مريضةً وعاجزةً عن النّزول لإحضار الطّعام، حيث كانت العجوز خلال ذلك تغلق كشكها وتعتني بهيلين وتصعد الدّرج لتحضر لها قدراً من الحساء.

كان النّاس يأتون من الأحياء القريبة، فقط للجلوس على هذه المقاعد الأربعة المنخفضة، ويتناولون حساء المعكرونة

الفيتنامـيّ، لأنّ سـمعة الجـدّة سـيونغ فـي إعداد الطّعـام كانت الأفضل في (تشولون).

هنـاك كلمةٌ يتمّ تناقلها في الشّـارع «أنّ الجنـود آتـون غـداً لا محالة، وسيقتلون كلّ أهل البيت الّذي لا يعلّق علَم الشّيوعيّة أو علَم بوذا».

«لا أعرف، سمعت بهذه الإشاعات».

نظرت الجدّة إليها نظرةً قاسيةً وقالت: «ليس لديّ علمٌ».

رشـفت هيلـين الشّـاي بصمت وهـي تراقب أوراق الشّـاي السّـابحة في السّائل متخيّلةً إيّاها ترسم حتفها المحتوم مرّةً بعـد مرّة بعد مرّة في أسـفل الفنجان المقعّـر، أتعبها التّفكير بالمستقبَل.

تسـير الأمـور بطريقـة معيّنة حسـبمـا عـلمت فـي (هيـو) و(نهـا ترانـغ) حيث تأتي نَسـاء الكشّـافة قبل الجنود، يمشّـطن الشّـوارع ويوزّعـن الأعـلام، ثـمّ يقوم النّـاس بتعليقهـا مرحبّين بالمنتصرين الّذين يبيعون لهم الحساء.

هـزّت العجـوز رأسـها واسـترخت الأخاديـد في وجههـا، كأنّ مكواةً مرّت على قطعة ملابس مجعّدة:

«يقومون بتتبيل الأطعمة بطريقة مختلفة عنّا في هانوي».

لفّت يدها على يد هيلين برقّة وقالت: «اسـمعي كلامي، إنّهم يقتلـون الأمريكان، حتّـى المدنيّينَ منهم الّذين بلا عتاد أو لباس حربيٍّ، جنودهم وجنودنا، جميع الأمريكان غادروا إلا أنتَ بقيتَ».

هزّت هيلين رأسـها بسـرعة كأنّهـا أرادت أن تطـرد منَها فكَرةً مزعجةً «لا بد أن لين جائع».

«لقـد أخذت له الحسـاءِ منذ سـاعات فقد تأخّـرت كثيراً، إنّ الحرب مرض الرّجال».

أنهت هيلين شرب الشّاي ووضعت الكوب على القفص الّذي كان يستخدم كطاولة.

وحين وقفَت هيلَين ملأت العجوز قدراً كبيراً من الحساء وأعطته لها: «كُلي لتبقي قويّةً».

«هل قرأت أوراق الشّاي للين؟».

ابتسم وجه العجوز: «بالطّبع، ادّعى أنّه لا يؤمن بذلك، وأنّ كونه غريباً لا يسمح له ذلك بالإيمان بهذه الأفكار، كان كلّ ما يؤمن به هو النّور والحياة الطّويلة، لا يهتمّ القدر به إن آمَنَ أو لم يؤمن».

أضافت هيلين اللّيمون والفلفل إلى الحساء.

«شكراً سأعيد لك قدر الحساء في الصّباح».

«اكسريه، لن أعود للعمل هنا بعد اليوم».

«لماذا يا أمّي؟».

«سأذهب إلى القسم الآخر من البلدة فربّما ينسون مَن أنا، فليس الأمريكيّون وحدهم في خطر بل الّذين عملوا لصالحهم أيضاً، لا أحد آمنٌ، لا أحد حتّى الّذينَ باعوا الأمريكيّين الحساء».

وقفت هيلين عند الدّرج حيث أثقلت صدرَها نوبة برد جعلت تنفّسَها صعباً. كانت خائفةً. لم تكن خائفةً من الموت فقد تَجاوزت هذا الخوف منذ سنوات خلت، لكنّ خوفها كان من الرّحيل، من الفشل.

حان وقت العودة إلى الوطن، فقد فرغت من الأشياء التي كانت تستعصي عليها، أفزعتها كلمات الجدّة عن الهلاك المحتوم.

«وقتاً أكثر، فقط أعطنا وقتاً أكثر».

كانت سمعتها قد ذابت وتضاءلت خلال فترة الحرب، فلم يكن هناك على الإطلاق بيتٌ واحدٌ متوافقٌ مع فيتنام مثل

(بروك وايت وهيغنز) في حروبهم، أو حتّى الأسلوب الّذي اتّبعه (دارو) في عمر الثّانية والثّلاثين، بمنتصف عمره كان يحترف مهنة شاب صغير. ولم يكن هناك شيءٌ تستعدّ له هيلين إلا الحرب. كأنّ طموحَها في العالم الكبير قد خبا ولم يبقَ لها إلا كاميرتها والحرب. لقد كانت ملمّة بأحوال تلك الحرب أكثر من أيّ شخص آخر، فقد كانت على اتّصال دائم ومعيشة مستمرّة في ذاك البلدَ، كانت تجوب الميدان تحت الَخطرَ، أرادت أنَ تبقى حَتّى النّهاية، لتغطّي أكبر قصّة في حياتها المهنيّة خاصّة أنّ القوّات الجديدة والسّفارة أصرّوا على أنه يجب على جميع الأمريكيّين أن يرحلوا.

كان ذلك هو الكأس المقدّس الوحيد الّذي سيعيد سمعتها المستنزفة ويملأ حسابها البنكيّ، ولكن ماذا لو وقع حمّام الدّم الموعود، كان لين هناك ولم تكن لتعرّضه للخطر.

لم تجد أثراً يدل على (تشونغ) الولد الّذي عاش تحت الدّرج. كانت هيلين تعطيه طعاماً وحلويّات مقابل حراسة الشّقة وإنجاز بعض المهامّ المنزليّة، وكانت تدفع له أيضاً حتّى لا يقوم صاحب البناء بطرده ويسمح له بالنّوم تحت الدّرج، فتكون هيلين متأكّدة بذلك أنّه حصل على طعامه.

شبكة المعارف الصّغيرة الّتي ظلت هيلين على اتّصال بها كانت تتداعى، وكان غياب (تشونغ) غير اعتياديّ. صعدت هيلين الدّرج وحاولت تجاهل إحساسها بالرّعب حيث تكرّرت في ذهنها كلمات الجدّة: «لا أحد آمن، لا أحد حتّى الّذين باعوا الحساء للأمريكان».

كانت حسابات العجوز عادةً ما تكون دقيقةً عندما يتعلّق الأمر بالمزاج الجنونيّ للمدينة. ماذا لو انقلبت المدينة ضدّها؟

دوّامة الشّائعات سرت في الشّوارع كالرّماد المحروق، مشعلةً كلّ ما وقعت عليه. لم يغب إحساسها بقبضة عظام العجوز على جلدها حتّى الآن.

وضعت هيلين قدر الحساء على الأرض في داخل شقّتها وخلعت حذاءها عند الباب ووضعته بجانب حذاء لين، خلعت جلبابها وأزالت رباط الكاميرا من فوق رقبتها، ثم وضعت معدّاتها على الكرسيّ، كانت الكاميرا مغطّاةً بالغبار. وكان عليها أن تُمضي الجزء الأكبر من أمسيتها وهي تنظّف العدسات والعين الفاحصة. كان القفل يغطّي الواجهة فكان عليها أن تفصلها، لذلك سوف تمضي مساءً طويلاً مجهداً، وها هي يقتلها التّعب أصلاً.

نزعت قميصها وسروالها اللذين تيبّسا من العرق والوسخ. كانت المرأة الّتي تقوم بغسيل ملابسها قد انقطعت عنها منذ أسبوع، فكان عليها أن تستخدم علبةً غاليةً من مسحوق (الووليَت) لتغسل ملابسها الدّاخليّة بنفسها في الحوض الصّغير داخل حمامها. سحبت عن رأسها الوشاح الأسود ونفضت شعرها ووقفت عاريةً في الغرفة ذات الضّوء الخافت مستمتعةً بإحساس البرودة والهواء الّذي يلمس جلدها. في الخارج كان عليها أن تحمي نفسها من أن تكون ظاهرةً للعيان، فكان عليها أن تخفي شعرها ورقبتها وصدرها أو حتّى لمحةً بسيطةً منه، كان عليها أن تخفي ردفيها ومؤخّرتها وسيقانها. فعندما خرجت إلى الميدان كصحافيّة متمرّسة سعيدة بخروجها، كانوا ينصحونها باستخدام رباطٍ مطّاطيّ فوق حمّالة صدرها لتبدو خطوط صدرها مسطّحةً. حتّى في المدن كانوا ينصحونها بارتداء سروالٍ بحزام قويّ لأنّه يصعب اغتصاب امرأة بالسّروال.

خلصت من ذلك كله إلى نتيجة واحدة وهي خسارة الحرب والعودة إلى الوطن، نبضَ قلبُها بسرعةٍ وبقوّةٍ معبراً عن الاحتجاج على مجرّد الفكرة.

«هل ستعود حقاً للوطن وقد فقدت كلّ ما أتت لأجله؟».

أخذت هيلين الكيمونو ولبسته بسرعة، حاولت أن ترى أثر الرّداء في المرآة المظلمة دون أن تواجه انعكاس وجهها. لقد حوّلتها الحرب إلى امرأة عجوز وقبيحة، وكان قد فات الأوان على أيٍّ من مستحضراتِ آنوكَ العلاجيّة كي تظهر أي اختلاف، مشّطت شعرها وهمت بنزع قرطها الدّائري لكنّها تردّدت.

ناداها لين: «هل هذه أنت؟».

أحست بنبرة الغضب في صوته كما أحست بالجهد الذي يبذله لإخفائها على حدٍّ سواء.

«أنا آتيةٌ».

ربطتْ حزام الكيمونو وذهبت لتحضر ملعقةً من الخزانة وحملت طبق الحساء.

وقفت هناك بباب الغرفة بابتسامة عريضة شعرتْ بزيفها، لم يلتفت إليها وبقي مستلقياً على الفراش مواجهاً النّافذة حيث لطّخ الغروب الأرجوانيّ الشّجرةَ المتوهّجةَ الّتي وصلت لتوّها إلى أوج ازدهارها. من المستحيل التقاط فيلم في ساعة الغسق، وذلك بفعل تأثير الظّلّ على الظل في تلك اللّحظة الخاطفة الّتي تسبق حلول الظّلام الدّامس.

«جلبت لك الحساءَ مع أنّ الجدة أخبرتني أنّها كانت قد أطعمتكَ مسبقاً».

«شعرت بالقلق».

استطاعت رغم معالم وجهه الّتي حاول إخفاءَها أن تتأكد من أنّ كلامه كان صحيحاً، ولكن ما لم تعرفه أنّه منذ أن أصبح حبيس المنزل كان يمضي الساعات في بعدها متخيّلاً مكان وجودها، متصوّراً سيناريوهات رهيبةً. كان يصلّي صلاةَ شكر وامتنان كلّما عبرت الباب، كأنّ تعذيب نفسه بتلك الطّريقة كانَ سينقذها، ورغم أنّ نهايته كانت قد اقتربت ولم يعد يتحمل مثل هذه المخاطرات، لكنّه كان عاجزاً عن إيقاف هيلين.

«كنت أحاول العودة إلى البيت لكن ما فتئت أشياءُ تلفت انتباهي في طريقي إلى هنا».

تقدّمتْ إلى الغرفة خافتة الضوء وجلست على طرف السّرير لتأكل، انحنت وقبّلته بحنان. رغم السّنين الطّويلة الّتي جمعتهما سويّاً لكنّ إحساساً بالعلاقة الرّسمية كان يغلب عليهما في بداية كلّ لقاء حتّى لو كان الفراق لساعات فقط. كان سبب ذلك هو اهتمام لينَ بها، وأنّ فكرة عدم عودتها في كل مرة كان من المسلّمات في حياته. اختفى هذا الشّعور مع تلك الابتسامة السّريعة والطّريقة الّتي مدّ يده بها ليلمسها، كان يرتدي بيجاما قديمة في أسفل جسمه ويغطّي صدره بضماد له وهجٌ بدا خافتاً في الغرفة.

كان غيرَ سعيد، وكانت هي سبب عدم سعادته، لكنّها مع ذلك امتلكت القدرة على متابعة الحوار، كأن الأحاسيس الموجودة بداخلهما لم يكن لها وجودٌ.

لماذا يعشقك شخصٌ ما لأنّك على صورة معيّنة ثمّ تظهر رغبته بعد ذلك في تغييرك إلى صورة أخرى؟

«كان لديّ العديد من المهام لأقوم بها اليوم، يا حبّي».

«قرأت العجوز الشّمطاء لي حظّي، دائماً الكلام نفسه. الحظّ الوفير والعائلة الكبيرة»، كانت كلماتها لاذعة.

عندما نظر إليها لين لاحظت حدّة وجنتيه وذبول عينيه من الألم. داعبت النّدبَ الهلاليّ على وجنته بأصابعها، وكلّما سألته كيف أُصيب به غيّر الموضوع.

«لم تأخذ جرعاتك؟».

«نسيتُ».

كان بمرضه غير آمن حتّى لو بقي في البلاد دون أن يحرّك ساكناً. عندما مدّ لين يدهَ رأت الحزام حول معصمه.

«ماذا حدث؟».

أمسكت يده ولمست جرحه وأحست بثقل اللّحم تحته، والنّدبة الّتي تركها هذا الجرح.

فركت النّدبة بحدّة مبعدةً الخيبة عن ملامح وجهها. وقالت: «لقد شعرت بالملل فلهوتُ قليلاً، تناولْ حساءك».

نظرتُ إليه، لكنّ وقت المواجهة لم يحن بعد. أبعدت الفكرة عن ذهنها وتابعت: «سأغيّر أغطية السّرير وأعطيك جرعةً، ثمّ أقدّم لك بعضاً من مشروب الجنّ من أوكلاهوما».

كان لين طويلاً ونحيفاً، كانت ملامحه مشكّلةً بعناية كهيئة فيتناميّة أسطوريّة لأمير محارب، كان واضح الملامح حتّى تلمَحَ العين النّاظرة إليه النّدبة الهلاليّة على خدّه والشّريط على معصمه الّذي لم يستطع أن ينساه، كان الألم شديداً، كان مليئاً بالنّدوب.

«اجلسي معي لدقيقة، تغرينني بالأوراق؟».

لمس أكمام الكيمونو بأصابعه.

«لن تستطيع المقاومة أليس كذلك؟».

كان فَزِعاً وعاشقاً بالدّرجة نفسها من أنّها فكّرت بارتداء كيمونو بَينما كان عالمهما على وشك الانهيار. دفنت وجهها

عنـد عنقـه للحظة، وكانت راحتها الوحيدة الآن أن تغلق عينيها وتتوقّف الصّور أمامها، أحسّـت بجلده دافئـاً ورطباً على خدّها.

إنه مرض الحمى.

«لقد ذهبت آنوك».

وقف كلاهما للحظة دون حراك.

«بعد يوم أو يومين كحدٍّ أقصى سوف أحقق هدفي وسـأكون آخر صحافيّة أمريكيّة في فيتنام».

«علينا أن نغادر الآن بينما لا يزال هناك وقت».

قالت له: «ما زال مارتن يعد بأنّ المدينة لن تسـقط، ربّما لدينا المزيد من الوقت». كان السّفير الأمريكيّ قد فقد ابناً في الحرب وقد أجبرتـه الغاية التي يرمي إليها على مواجهة أشـياء لم يكن يرغب في مواجهتها. أيّ شـيء أفضل من ذلك؟ «أنت تشوشّـني». قالت له هيلين وهي تعبرُ الغرفة إلى حقيبة الفيلم الخاصّ بها. تلمّست ما بداخلها وأخرجت مغلّفاً سميكاً ورفعته: «احزر ما هذا؟».

«فنحن جاهزون إذاً. لنذهب».

هـزّ لـين رجليـه علـى الأرض وجلـس منثنياً ممسـكاً بإطار السّرير.

«نعـم إنّهـا بطاقـة خروجـك المجّانيّـة مـن فيتنـام»، لديـك رسالتان واحدةٌ من (غاري) وأخرى من السّفارة، لكن كان عليّ أن أجلس لساعتين على الغداء لأستمع إلى ما يقال: «إنّ الصّحافة أداة هانوي». لا عجب أنّنا خسرنا. وقفت عند طرف السّرير تقفز للأعلى والأسـفل على مقدّمة ساقيها وهي تهزّ ذراعيها محاولةً إفراغ طاقة التّوتر.

قلـت لك: «لا يمكن للمصوّريـن أن يكذبوا»، فقد أكّدوا لي أنّ (نجيـون بران لين) سـيصل بأمانٍ إلى أمريكا، وكمكافأة سـأغادر

أنـا أيضاً، سـيختفي هذا البلد، سـيختفي خلف جـدار، وبعدها سـتبدأ الأشـياء الحقيقيّـة بالظهـور. كلّ ما أرادوه هـوَ بطاقات إثبـات الهويّـة، وكثير مـن الأوراق الثبوتيّة. كيـف يمكن أن يكون لك خمسة أسماء مختلفة في سجلاتهم».

كررّ لين: «علينَا أن نغادرَ الآن».

لم تمض لحظةٌ حتّى أعلن المذياعُ الأخرق بداية الإخلاء، وأنّ درجـة الحـَرارة ارتفعت إلى مئة وخمس عشـرة درجة وأنها آخذة في الارتفاع، وأذاعوا أغنية (وايت كرسماس). مررّتْ أصابعها على جبهته محاولةً تخفيف اشتداد الحمّى على أسارير وجهه.

ابتسم لين وقال: «ألا يبدو لك هذا إشارةً واضحةً؟ لقد توقف ذلـك كلّه فـلا بدَّ أنّ جيـش الشـعب الوطنيّ منكبٌّ علـى المذياع يسـمعه منتظـراً هذه الإشـارة، لا بـدّ أنّهم أطلقـوا صيحةَ نصر كبيرة الآن».

«بِهذه السرعة؟».

لـمس يدها وسـألها: «ابقـي إذا أردت البقاء، أنـت متعبةٌ؟ أنت ترتعدين».

عرف أنّ ذلك غير حقيقيّ، كانت تدور حول نفسها من الخوف وإذا أقدم على حركة خاطئة فسيفقدها.

«استلقي وارتاحيَ».

جهّزت الإبرة وحقنته وقالت: «هذا هو الأهمّ الآن».

استلقت إلى جانبه بتردّدٍ، ورغم أنّ أمامها ساعات من العمل علـى إصـلاح الكاميرا، كان جسـدها يرتجف مقابل جَسـده رغم الحرارة.

وبعـد أن أجـرى المخـدّر مفعوله على لين نهضـت من جانبه وقامـت تحسـب كبسـولات المضـاد الحيـويّ والمورفـين المتبقّيـة.

كان ما تبقى كافياً ليوم آخر، لقد كان ثمنه في السّوق السّوداء يعادل ثلاثةَ أضعاف ثمَنه الحقيقيّ، ولكن لم يكن هنالك مجالٌ للمساومة، وفي كلّ الأحوال مع حلول الأسبوع القادم لن تبقى هناك سوقٌ سوداء للدّواء بأيّ ثمن كان».

قام أطبّاء المشفى الفرنسيّ مُنذ يومين بتنظيف جرح لين وهو جالسٌ على مقعد خشبيّ جاف في الرّدهة، وكانت الغرفة مليئةً حتّى آخرها، ولَم يتبقَّ هناك أيّ دواء. أخبر الطبيب هيلين أنّ عليها إحضار البنسلين بنفسها، وأعطاها أسماء بعض الصيادلة المناوبين.

كانت الرّصاصة قد دخلت من زاوية مزّقت الأنسجة في طريقها. أمر الطبيبُ المُمرّضة الشّابة أن تخيط الجرح بالإبرة الّتي أعطاها إياها. لم تكن لديها الخبرة الكافية فخاطت قُطَباً عريضةً وغيرَ مُنتظمة.

قالت لها المُمرضَة: «خذيه إلى المنزل إذا أردته أن يتعافى، ليس لدينا أيّ دواء أو طعام، إنّهم يتركون المرضى دَون عناية».

هزّت هيلين رأسَها واستأجرت كرسيّاً بعجَلات من الشّارع، بينما ساعدها اثنان من الخفر يرتديان ملابسَ قديمة على إخراج لين من الباب وإنزاله عبر الدّرج، كانت ذراعاه ممدودتين على كتفي الرّجلين كالمصلوب.

كانت هيلين تمسح جرح لين بانتظام وأراحها أنّه توقّف أخيراً عن النزف. كان الجلد أحمرَ ومنتفخاً حول مكان دخول الرّصاصة وحول الجروح الخارجيّة، وكانت قد جابت المدينة طوال اليوم لتحصل على مضّاد حيويّ أصلي بعبوات مغلقة، تعرّفت منذ أن كانت في الميدانَ على الإشارات الّتيَ تعني أنّ حالته بدأت تسوء، كشحوب الجلد، والعرق اللّزج الّذي لا يجفّ،

كان لـين بخير حتّى الآن، مع أنّ الحمى أقلقتها، كانت إصابته ذنبها منذ البداية.

قادا السّيّارة إلى ضواحي المدينة ليصوّرا ما كان الرئيس (ثيو) ينكره رسميّاً، من أنّ ثلاثة ملايين من النّاس نزلوا إلى الشّارع، وأنّ سايغون أصبحت فائضةً باللاجئين، وأنّ جيش فيتنام الجنوبيّ كان يغلق المعبر إلى المدينة محاولاً فرض السيطرة عليها كسفينة في البحر. كان يلوم الجميع على قراره بترك منطقة (الهايلاندز)، وكانت مشاهد الفوضى على السّاحل تتجاوز مطارات (دانانغ)، حيث كان النّاس يتمسّكون بالطّائرات الراحلة إلى الخارج لعدم السّماح لها بالإقلاع. النّساء والأطفال الذين وطئتهم الأقدام جعلوا الجميع قلقين من الكارثة التي تحدث في سايغون.

بداية من (مارتن) إلى كل من تعرفهم في السفارة الأمريكية، كان الجميع مذهولين من خسارة الأمريكان الوشيكة، ونسوا أمر الفيتناميّين. كان التّفاوض ما يزال متاحاً مع أنّ الفيتناميّين الشّماليّين أبدوا عدم رغبتهم بذلك، حاولت هيلين بيع الصّور الّتي التقطتها للمصيبة التي حلت بمعلمة الفنون التّصويريّة الفاسدة، لكنّ غاري أخبرها بصراحة أنّ اقتتال الفيتناميّين فيما بينهم لن يتصدّر الصّفحة الأولى بعد انسحاب الجنود الأمريكان. كان العالم قد ملّ طول تلك الحرب الوحشيّة الغبيّة. وكانت الصّحافة قليلةً في البلد حتّى منذ عدّة شهور خلت، لكنّ البلد كانت غارقةً بالصحافيّين، الآن ينتظرون التّسليم ليستطيعوا كتابة النّهاية ويطيروا عائدين إلى بلادهم.

كان لين غاضباً طوال الأشهر الماضية، غاضباً من سخافة الحكومة، مع أنّ هيلين شكّت أنّه غاضبٌ من غدر أمريكا

الوشيك. كان أمراً واقعاً أنّ فيتنام الشّماليّة كسبت الحرب، وكان دور الحكومة يقتصر على تسهيل تسليم آمن لتجنّب حالة ذعر يمكن أن تؤذي عدداً أكبر من النّاس, تشدّقت الحكومة بالحفاظ على السّلام والنّظام، حتّى بعد أن انتشرت السّلطات كالجرذان تحث الجميع على مغادرة المدينة. أصرّ لين بعد أن فقد مزاجه الهادئ الاعتياديّ على إثبات كذب (ثيو) بأنّ أسلحة الجنود انقلبت على شعبهم.

أنزلت سيارة التّاكسي لين وهيلين بعد مسافة عدّة أبنية بعيداً عن متاريس الجنود، فعبروا الزّقاق ببطء حتّى أصبحوا خلف جنود مدرسة الفنون التّصويريّة تماماً، أولئك الجنود الّذين كانوا آخر مظهر من مظاهر وجود السلطة الحكومية، كانوا مسلّحين ويواجهون بحراً من اللاجئين سواء كانوا رجالاً أم نساءً أم أطفالاً يموتون من قلّة الطّعام والماء، والعديد منهم لم يكن لديهم شيءٌ يخسرونه، حاولوا عبور حصار الأسلاك الشّائكة والرّصاص.

تمّ تحذيرهم ألا أحد سيساعدهم إذا أوقعوا أنفسهم في المشكلات. أظهر لين غضباً شديداً وجرّ هيلين معه في غضب أيضاً. كانت تلتقط صوراً للحشد حيث كان هناك تيّارٌ من النّاس على يسارهم. ارتعب جنديٌّ صغير السّن لا يبدو عمره أكثر من خمسة عشر عاماً وأفرغ في الحشد مشطاً من مسدّسه الأوتوماتيكيّ، هزّته ردّة الفعل كما لو هزّه عملاقٌ يمسكه من كتفيه، فاستدار إلى جانبيه محاولاً إحكام قبضته على المسدّس. ارتدّت رصاصةٌ من جدار إحدى الأبنية.

استمرّ لين في مشيه، تعثّر وتابع المشي. هذه هي الطريقة للبقاء حياً. ينغلق العقل في مثل هذه الحالات. تابع مشيه على

الرّغم من كتل الدّم الّتي كانت تزيد وتلطّخ قميصه. مشى كأنّه سيموت ماشياً.

نادته هيلين «لين». رأت الدّم فسحبته ليجلسَ على جانب الطّريق ورفعت قميصه. كان الجرح على طرف بطنه. ضغطت إصبعها على فتحة الجرح وشعرت بالمعدن كلّما تلوّى هو، فأراحها أنّ الرّصاصة لم تنفذ عميقاً. استخدمت هيلين قميصه لتضميد الجرح. مسحت يديها الملطّختين بالدّماء ببنطالها. إنّه لمن السّخرية أنّهم أفلتوا من مواقف أكثر خطورةً، لكنّ هيلين أصبحت الآن مؤمنةً بالخرافة أكثر من الفيتناميّين وعرفت أنّ لكلّ امرئ نصيباً معيناً من الحظّ، وانّها ولين تجاوزا مرحلةَ الحظّ في حياتهما.

استيقظت هيلين على أرضيّة شقّتها، وهي تفرك رجلها بيدها، وقد أرعبها كابوسٌ آخر. وقفت على رجليها المتيبّستين ومشت باتّجاه الخريطة المعلّقة على الجدار. مازالت فكرة فيتنام بعيدة عنها بعد هذا الوقت كلّه، كما كانت تماماً في صغرها عندما كان والدها يدرس خريطة الهند الصّينيّة الفرنسيّة. كانت بالكاد تذكر وجهه، وتتمنى ألا تكون صورته في ذاكرتها هي صورته الصحيحة، لكنّها تذكّرته أكثر حين مشت بإصبعها على تلك الخريطة لترى مواقع البلدان، وشعرت بشعور الغازي المتملك بفعل تلك الحركة وحدها. والآن بعد أن قضت عشر سنوات في ذاك البلد جنوب فيتنام، ذاك البلد الّذي لم يكن موجوداً في الخرائط، لكنّها مع ذلك لم تتملك شيئاً منه، وخلال فترة قصيرة ربّما أيّام، أسابيع، أو أشهر سيختفي مرّةً أخرى.

لم تتخيّل نفسها أنّها ستعيش تلك الحرب. كان ذلك البلد فكرتها عن ذاتها وسيمزّق جزءاً من نفسها إن غادرته. كان (دارو)

قد استقرأ ذلك، فقد قال لها إنّه لن يستطيع المقاومة بالطّريقة الّتي قاومت بها، وقد غيّرت طريقة مقاومتها، الأمر الذي أسعدها. فبالأمس كانت تلك الفتاة الّتي يمكن أن تضيع في جبال (أناميتي) البرّيّة، تلك السلسلة الواقعة خلف (الهايلاندز) وتنطوي ممتدّةً إلى (لاوس).

عندما أيقظها لين قبل الفجر كانوا على وشك تصوير مهمّة حملة قوّات استطلاعيّة، كان الخفر لا يزالون في الخارج يشاهدون شروقَ الشّمس وهي تلوّن الجبال الغربيّة بالأخضر بدلاً من الأرجوانيّ الأسود الباهت. مع الكثير من الظّلال الخضراء، قال دارو: إنّ الأسطورة الفيتناميّة تقول بأن كلّ ظلال اللّون في العالم قد أتت من هذه السّلسلة الجبليّة. حتّى زمرّدة التنّين الخضراء الّتي أتى منها الشّعب الفيتنامي كانت عمياء حتّى رأت تلك الجبال، لكن بعد أن رأتها غاصت تحت سطح الحرب ووُجدت البلدة.

تنهّد لَين في نومه فوضعت هيلين يدها على عضلة ساعده القويّة النّحيلة، محاولةً إبعاد الأحلام المزعجة عنه. وتّرتها الطريقةُ الّتي تتبعها بها عيناه الدّاكنتان، كأنّه لم يكن واثقاً بقلبها. منذ زمن طويل تجاوز طموحها الأشياء المحسوسة وأغرمت بالصّور بدلاً من الأشياء الحيّة، ما عدا لين.

تأوّه لين فحاولت إمساك نفسها بأن ضغطت بأصابعها على كفّها حتّى تركت آثار جراح هلاليّة. لقد جلبها موتُ أخيها إلى الحرب ولكن لماذا بقيت هنا؟ هل لأنّها أرادت تجربةً لم يكن من المفروض أن تكون تجربتها؟ هي فقط أرادت الانضمام إلى إخوة أبعدها عنهم أبوها وأخوها. ماذا عنت لها كلّ تلك الصّور من السّنوات الماضية. الشّيء الوحيد الّذي تستطيع فعله الآن هو

إنقاذ لين. لقد أغضبها رفضه أن يغادر من دونها، وعدّته ابتزازاً عاطفيّاً، لكنّها افترضت أنّه حان وقت التقاط الصّورة الأخيرة حتّى لو لم تكن هي من ستلتقطها.

رأت انعكاس وجهها في العدسات الغبراء وبدت ملامحها محدّبةً. هل كان يمكنه الوثوق بها؟ كانت مستعدةً أن تُقتَل لأجله. وكانت على استعداد أن تبقى حيّة لأجله.

انهت تنظيف وتجهيزَ معدّاتها قبل الفجر بساعة. وكان داخلُها مختلجاً بمزيج من قلّة النّوم والأعصاب المتوتّرة، فَغلبها النّوم وغفت على الأرضَ بجانب السّرير.

استفاقوا على أصوات قذائف الهاون المجلجلة على طرف المدينة. نهضت بحركة سريعة إثر تأثير وخز من الأدرينالين اعتادت أن تشعر به عندَ قرب حَدوث عمليّة حربَية.

ابتلعت حفنةً من المنشّطات وهي تسخّن الماء من أجل الشّاي. وقامت بحزم حقيبة ظهر صغيرة ووضعت بجانب الباب حقيبتين لونهما أسود، وكانتا مَختلطتَين ومملوءتين بأفلام كانت قد صوّرتها خلال الأسبوع الفائت. خلال السّنوات الثلاثَ الماضية لم يكن أحد مهتمّاً بصور فيتنام المدمّرة؛ لذلك كان علَيهما هي ولين عمل قصص تخصّ المعونات الإنسانيّة والأزمة الوشيكة في كمبوديا للحصول على المال. لقد أصبحت كمبوديا الآن خارج القائمة بعد غزو (الخمير الحمر)، لكن عندما سقطت فيتنام الجنوبيّة بشكل فعليّ أصبح تسجيل مقالِ موثّق بالصّور عن الحدث مطلوباً جَداً.

كانت قد صوّرت أكوام الجثث الّتي تحوّلت إلى اللّون الأسود في مدينة (خوان لوك)، ودارت في أنحاء المدينة ملتقطةً صوراً للاعبين الأساسيّين على المسرح السّياسيّ في حكومة سايغون،

(ثيو) والنّائب (كيي)، اللّذين أقسما على الصّمود والقتال، بينما كان الحمّالون في أماكن سكنهم الخاصّة يكدّسون الأنتيكا والتّحف القيّمة وتماثيل بوذا المطليّة، وتماثيل خيول خضراءَ ومرجانٍ شفّاف منحوت على شكل أسماك وسلاحفَ، كلّ ذلك مكدّسٌ في حدائق بيوتهم للشّحن خارج البلاد. وكان لديها الكثير من صور النّاس المحكوم عليهم بلا تمييز وبلا مخرج لهم، وبمجرّد النّظر إليهم أحسّت بهاجسٍ يشبه ألماً بسيطاً في الأسنان.

ربّما ثبتّها ذلك الحال لتبقى شاهدةً على الحرب، وربّما كان لذلك الحال الفضل في أنّها أدّت دورها في الحرب على أكمل وجه.

وقفت تحتسي الشّاي بجانب النّافذة وهي تنظر إلى السّماء الملبّدة بالغيوم الّتي يتدرّج لونها من القصديريّ الفاتح إلى البنّيّ بلون الطّين ويتحوّل إلى البنيّ الرّماديّ بلون الأرض المحروقة. صار النّسيم حاذاً ورائحةُ المطر تَعد بحلول رياح موسميّة قويّة. كانت سايغون محبوبةً لأنّه بالتّحديد لا أحَد يحبها سواء لقذارتها أو لفسادها السّياسيّ أو لنحسها الإنجيليّ، أو لحتفها الوشيكَ الّذي يحوم حولها.

نظرت ورأت لين مستيقظاً إثر صوت صرير السّرير بفعل نهوضها عنه.

سألها: «بماذا تفكّرين؟».

«حان وقت الذّهاب إلى المطار، حقائبنا هنا وأوراقك هناك في الأعلى».

«اتفقنا أن تذهبي إلى حوض السّفن وتصوّري إخلاء القوارب ثمّ نتوجّه إلى المطار».

«وهل لصورة إضافية تلك الأهميّة؟» قالتها بصوتٍ خافتٍ لدرجة أنّه بالكاد سمعها.

«إمّا ألا يكون لأيّة صورة أهمّيةٌ وإما تكون جميعها مهمّة».

هزّت رأسها ولكن بغير اقتناع: «أحس بشعور سيّئ».

«لدينا متّسعٌ من الوقت».

كان يسحبها للخلف بلطف من أيّ مكان يمكن أن تندفع بالذهاب إليه. تحرّكت بعصبية نحو السّرير وكشفت غطاء لين. كان جلده منتفخاً وملتهباً وحارّ الملمس، كان قد تجعّد بالقرب من القُطَب الّتي قامت بعملها الممرّضة، كان أشبه بالعجين المختمر. عضّت هيلين شفتها عندما أعادت تغطيته. ورأت تجويفاً جديداً حول عينيه.

قالت: «أتريد جرعةً أخرى من المضّاد الحيويّ؟ مع أنّ الوقت لم يحن بعد».

وأضافت: «سأعود بعد الظّهر. أدر المذياع واستمع».

بدا لين شارداً لكنّه هزّ رأسه، لقد خافت هيلين من أن تكون حالته قد ساءت، ساعدته في الوصول إلى الحمّام ثمّ أعادته إلى السّرير. عليها أن تستأجر دراجة أو سيّارة أجرة لنقله. وضعت إبريقاً وكوباً من الشّاي على كرسيٍّ بالقرب من سريره.

«سأعبر (نيوبورت) وأعود وسوف نبدأ حالاً».

قال لها لين: «اذهبي»، وبدأ بالغناء: «أحلم بالكريسماس في ثوبه الأبيض...».

ابتسمت لكنّها حسبت حساب كلّ مشكلة يمكن أن تعترض طريقها. افترضت أنّه يمكنها التّخلص في أيّ وقت، لكن أقلقها أنّ لين بات أضعف من قبل. وستكون الرّحلة صعبةً عليه إلى حين وصوله إلى أحد المرافق الطّبية.

قال لها: «أسرعي واقضي مهمتك الأخيرة في سايغون دون أيّ شعور بالنّدم».

فتحت الثّلاجة الوحيدة في المبنى، وملأت جيوب ثوبها بلفافات أفلام جيّدة. سحبت رباط الكاميرا عند الباب ولبسته من رقبتها وأغلقت أزرار ثوبها.

فتحت الباب وظلّت واقفةً، ما زالت متردّدةً.

«إذا تأخّرت فاجعل تشونغ يساعدك في تحميل كلّ شيءٍ على عربة نقّالة وسألقاك عند المطار. هل تسمعني؟».

كان صامتاً يحدّق في السّقف.

«لين؟».

قال لها: «إذا لم تعودي فسأبقى».

«سأعود بالطّبع، فقط كن جاهزاً».

فشلت الحيلة الفاترة، لم يكن ليدعها تذهب بهذه السّهولة.

«هل فهمت يا ملكة الحفل؟».

تظاهرت بأنّها لم تسمعه وأغلقت الباب بقوّة ونزلت على الأدراج الخشبيّة المتشقّقة الّتي تفوح منها رائحة الأرز والكبريت ونيران الطبخ. كانت قد وصلت الشّارع قبل أن تسجّل الغياب المستمرّ لتشونغ تحت الدّرج، كان هذا ما تخشاه، الاختفاء المستمرّ لشخص تعتمد عليه.

توقّفت دراجة سيكلو عند إحدى الزّوايا المزدحمة وقفزت أمامها هيلين قبل أن تعطي فرصةً للسّائق بالاعتراض. وبعد جدال قبل السائق صعودها معهُ على مضض على أن يوصلها إلى نهر سايغون مقابل أن تدفع له ثلاثةَ أضعاف الأجرة الاعتياديّة. قرّر النّاس الخروج من مخابئهم على الرّغم من حظر التّجول الّذي استمرّ أربعاً وعشرين ساعةً، وعلى الرّغم

من فرقعة الأسلحة الصّغيرة المتكرّرة حولهم. توقّف سائق السيكلو على بعد ميل من ضفّة النّهر ونزل من مقعده رافضاً الاستمرار. وبعد أن تذمّرت هيلين وجّه إصبعاً ملتوياً إلى جدار البشر الصلب. نزلت وقالت له إنّها ستدفع له ضعف أجرته مرّة أخرى إذا انتظرها لساعة. لكنّه استدار وعاد إلى البلدة دون أن يقول كلمةً واحدةً. كان الوقت أغلى من المال هذه المرّة.

انتشرت شائعةٌ أنّ رجلين سقطا في الماء ولقيا حتفهما بين قوارب الإخلاء.

كان لذاك الهواء النتن رائحة خوف ورائحة بعض الجيف. وبينما كانت هيلين تقرّر ما إذا كان عليها المخاطرة بالدّخول إلى الحشد والبقاء هناك لساعات، لمحت (مات تانر) خلف أحد المتاريس الصّلبة مع مصوّر آخر. وأسعدتها رؤيته وإن كانت العلاقة بينهما تنم عن صداقة زائفة، فكلاهما عرضة للخطر، لوّح بيديه إليها.

«مشفى للمجانين، أليس كذلك؟».

كان (مات) طويلاً ومنحدر الكتفين بوجه ذئبيّ ضيّق، وعندما يضحك - وكان ذلك أمراً نادراً - كان يُظهر فماً مليئاً بالأسنان الحادّة.

«هذا دمٌ جديدٌ اسمه (مات كلارك). كلانا اسمنا (مات)».

قالت: «لا يبدو الوضع جيّداً».

«هل أنت باقيةٌ أيضاً؟» سألها (مات) الجديد. كان صغير السنّ بشعر أشقر مبيضّ طويل على شكل ذيل الفرس، ويرتدي كنزةً سوداء تملؤها إشارات ورموز التّنجيم. لم تكن تحبّ النّسور الّتي حوّمت فوق رأسها الآن ولم يكن ذلك خفيّاً على أحد.

«هل أنت خارجٌ بعد الظّهر؟» قالت وهي تشاهد الحشد

ورأسها يلامس الصّلب المتداعي للمتراس الخشن، كان ذلك نتاج صفقـات رخيصة وعقود حكوميّة خاصّـة بفيتنام الجنوبيّة، كان قـد بُنيَ ضعيفاً مَن أجل الرّبح، وكان يتفكّك أصلاً ويتحلّل إلى رمال بسـبب الرّطوبة المسـتمرّة، فكان يجب أن يكون من الفولاذ المقَاوم للصّـدأ لكثـرة مـا دفعـت لأجلـه المسـاعدات الأمـريكيّة. نظرت إلى الأسفل ورأت مسحةً من اللّون الأحمر، كانت الحوافّ الصّلبة للمتراس قد أعادت فتح الجرح في إصبعها.

سـحب تانـر منديلاً ولفّـه حول إصبعهـا: «لا داعي أن تنزفي دماً، إنّها حتّى ليست بلدك».

«نسيت».

«المطـار أسـوأ مـن ذلـك، إنّ جيـش فيتنـام يطلق النّـار على الحشود، خاصّة الّذين يملكون تذاكر خروج، كان يغضبهم هروب البشر. أليس كذلك؟».

«لم أسـمع بهذا». كان هناك خطأً وشـيك الحدوث. أخبرتها السّفارة أنّه بقي أسبوع قبل بداية الأزمة الحقيقيّة.

«أردت أن أنجو بنفسي بعد أن سمعت ما قالته السّفارة، اذهب بسـرعة، بسرعة، بسرعة. أعتقد أنّ حدثاً سـيحصـل اليوم وهـم لا يعلنون عن وجوب تفادي الرعب، كان من الصّعب الانسحاب».

هزّت هيلين رأسـها، لم تعجبهـا الطّريقة الّتي نظر بها إليها والغرور الّذي بدا في ابتسـامته. كان سـلك الصّحافيّين يعرفون أسـرار بعضهـم كعائلـة ممتـدّة ومختلّة. اسـتخدم (تانـر) ظفر خنصره ليحكّ داخل أذنه.

«لقـد أردت الاتّصـال بـك، أمـا زال ذاك الفيتنامـيّ يعمـل لديك؟».

«اسمه لين».

«بقي اثنان انتظاراً للتّحول المرتقب. كانوا يقيمون حفلات الكوكتيل على سطح فندق كارافيل ليشربوا نخب المنتصرين، إنها أحداث ذكوريّة بحتةً. وكنّا بحاجة لأحد ما من أجل التّرجمة».

«إنّه ذاهبٌ معي». نظرت هيلينَ إلى عينَي تانر نظرة تحدٍّ.

حدّق هو إليها بعينين نصف مغمضتين وسألها: «هل أنتما متزوجان؟».

الجميع شكّ بذلك ولكن لم يمتلك أحد اليقين. هزت هيلين كتفيها.

«إذاً يا عزيزتي كنت قادرةً على الوصول أمس بسرعةٍ».

«لماذا تبقى في هذا المكان؟».

«أذهب وأفوّت على نفسي أكبر سبق صحافيّ؟ أنت محقّة. هذا جنون». نظر إلى الحشد وتراجع قليلاً.

«بصراحة عمري خمسةٌ وثلاثون عاماً ولم أربح جائزة (بوليتزر) حتّى الآن. إذا لم أخرج بها من هذا المكان فسيكون من الصّعب عليّ العودة إلى (دي موين). سأقامر بحياتي».

كانت رغبتها هي أن تبقى، وأن تمشي إلى حافة الماء بينما يتمّ إخراج الجثث، أرادت تصوير الوجوه اليائسة من الرغبة في الرّحيل. وجدت استنتاج (تانر) كريهاً لدرجة أنّه جعلها تأخذ قراراً واضحاً جداً. عضّت خدّها من الداخل وثبتت غطاء العدسة، فالوقت الّذي حسبته كافياً لإيصال لين إلى المطار كان قد مضى.

قال مات الجديد: «أنا آسف لأنك لن تحضري الحفلة».

«وأنا أيضاً».

نظر تانر إليها بقوّة وقال: «اعتني بنفسك، فقد دفعت مستحقّاتك مسبقاً هنا، أليس كذلك؟».

استدارت هيلين عائدةً إلى البلدة وهي تشقّ طريقها بين الّذين تمّ إجلاؤهم. كان هناك نهرٌ من النّاس كلّ منهم منكبٌ على متابعة قـدره الخـاصّ، لا يرون الّذين من حولهم. مع أنّ هيلين بدت أطول مـن معظم الفيتناميّـين لكنها واجهت صعوبةً فـي تفادي التّدافع باتّجـاه ضفّـة النّهـر. كان الرّجـال والصّبيـة يتدافعـون بأذرعهـم وأكتافهـم، وقامـت امرأةٌ متوسّـطة العمـر بدفع هيلين بقسـوة في كتفهـا بعربة ممتلئـة بأغراضهـا ومقتنياتها. هل ظنّـوا حقاً أنّهم قادرون على الهروب والنّجاة بحياتهم وترك مجموعات التّلفزيونات والخزائن المليئة بالتّحف وراءهم؟ لكنّها فهمت الغريزة الكامنة في داخلهم، فمن العسير التّخلي عمّا تمّ اكتسابه بتلك السهولة.

هي نفسـها، ماذا أخذت؟ ما الّذي امتلكته بعد عشـر سنوات من التّفاني؟ كيمونو، كاميرا، وبضع صورٍ قديمة عن حياة مضتَ وانتهت؟

قلّ الازدحام بعيداً عن حوض السّـفن. كانوا يحومون حولها كأنهـا صخـرةٌ فـي جـدول. آلمها جسـدها مـن الإرهـاق والتّعب، حاولت أن توقف (سـيكلو)، ولكن جميع وسـائل النّقل اسـتولت عليهـا العائـلات لتنقل مقتنيـات منازلها بعيداً، لـذا عادت إلى بيتها سيراً على الأقدام.

كانت السّـاعة مازالت العاشرة صباحاً في الوقت الّذي عبرت فيـه بـاب المبنى الّذي تسـكنه، شـعرت أنّها لم تخلـد للنوم لأيّام عدة وليس لساعات. وعلى الدّرجَة الأولى من السلّم كان الصّبيّ تشـونغ واقفاً مذهولاً لرؤيتها. كانَ واحداً من أولاد الشّارع القلّة الممتلئـين، يقتـرب من حدّ السـمنة، وشـعرت هيلـين بالكدر لأنّ نقودهـا هـي الّتي أوصلتـه إلى الانغماس الشّـديد فـي الطّعام، كانت كنزته الحمراء مشدودةً ضيّقةً على بطنه.

ومـا إن فتحـت فمها لتهمّ بالكلام سـمعا صوت جلجلة قويّة كأنّه صوت سقوط شيءٍ ثقيل، نظروا إلى السّقف لكن لم يَصدر صوت آخر.

سألته هيلين: «أين اختفيت؟ لم أرك منذ أيام».

«الكثير من الأشـياء المهمّة حصلت، فقد أتى عدّة جنود هذا الصّباح يبحثون عن أشياءَ أمريكيّة جيّدة ليسرقوها، فقلتُ لهم كلّ شـيءٍ قـد سُـرق وليس هناك فـي الأعلى إلا عجـوز فيتناميّ يحتضر، فرحلوا».

«جيّد»، قالت هيلين وهي تبتلع خوفها بارتجاف سـريع، فمن المحتمـل أن يكون تشـونغ قـد قادهم إلـى المبنى ليَسـتولوا على أشـيائها. لـم تعد هيلين تثق بذلـك الولد، وهـي الآن تحاول أن تعرف فقط مدى خطورته: «أبليت حسناً».

ظـلّ الولـد واقفاً علـى الدّرجـة الأولى من السـلّم كصاحب مُلك نزق.

«حسَـناً سـأدفع لك الآن». سـحبت رزمةً سـميكةً من النقود مجعـدةً وناعمـةً كمنديل. وبينمـا كانوا تفقد قيمتهـا يوماً بعد يـوم كانـت هناك حاجـةٌ للكثير والكثيـر مـن الأوراق لإنجاز أيّ شيءٍ. «خذ، هذه الكميّة كفيلةٌ أن تشتري لك أشياء بقيمة راتبك القديم».

نظـر الولد إلى النّقود في يدها الممدودة ولم تعجبه، فلحس سـبّابته وسـوّى حاجبيه. «هؤلاء الجنود في غاية السّوء يقتلون كلّ من يكذب عليهم».

أخرجت هيلين نقوداً أكثر من حقيبتها ودفعت له مع أنّه كان غائباً منذ أيّام، ولتحفظ ماء وجهها كان يجب أن تلحّ عليه لكنّها فقدت رغبتها، وفي هذه المرّة لم يظهر الامتنان الّذي أظهره منذ

سنوات عندما بدأت بمساعدته، وكلّ ما تلقّته منه كان بسمة متكلّفة، وقبل أن تتمكّن من أن تطلب منه إحضار سيكلو قفزَ تشونغ على الدّرج ومضى عابراً الباب. كان الهواء داخل شقّتها أزرق وغنيّاً برائحة البخور.

كان لين جالساً بثبات على كرسيّ مواجه للنّافذة. لم يلتفت إليها عندما دخلت وكان ذلك يسبّب لها شعوراً دائماً بالخيبة.

سألته: «كيف أصبحت؟».

«هل حصلت على صورك؟».

«بالتّأكيد حصلت عليها». قالتها، ووضعت ذراعيها حول عنقه وكانت رائحة الصّابون تفوحُ منه بدلاً من رائحة العرق والمرهم.

«هل كنتَ مستيقظاً؟».

«نعم أخذتُ حمّاماً وحزمت بعض الحقائب».

جلستْ إلى جانب كرسيّه محدّقةً في رفرفة الأزهار الحمراء إثر الرّيح القويّة الرّطبة.

«كانت الأغصان الرّماديّة الملتوية تنحني تحت الأزهار السّمينة الملتهبة، كانت كثيفة جدّاً، ولم يكن هناك أيّ أثر مرئيّ لأيّة ورقة خضراء».

قال لين: «أتى المطر مبكراً هذه السّنة فالشّجرة تزهرُ باكراً».

«هذا نفسه هو ما حدث السّنة الماضية والسّنة الّتي قبلها».

قال لين: «يبدو مبكراً».

قالت هيلين: «أتمنّى أن نبقى في هذه الغرفة ولا نتركها أبداً».

كان هناك مسدّسٌ على الأرض بجانب الجدار، وهو مصدر الصّوت الّذي سمعته عند الدرج، لكنّها لم تسأل. كما أن لين لم يصرّ على سؤاله إن كانت قد حصلت على صور إخلاء القوارب أم لا.

تلـك الرّقصة الرّقيقة المعتـادة الّتي رقصاها حول الحديقة. حقيقتهـا هـي أنّها أرادت الاختباء في تلك الغرفة وأن تغدو غير مرئيّة، كما لو أنّ ورق الجدران المهلهل والباب الرّقيق سيحميها. هنـاك خارجـاً في الشّـارع شـعرت بالضعـف مـن دون كاميرتها، لـم يعلم أحدٌ بنوبـات الرّعب الّتي تنتابهـا والثمن الّذي دفعته. فضّلـث أن يتـمّ إطلاق النّار عليها من الباب أو من وراء السّـتارة، وأن يكـون سـبب موتهـا غيـر معـروف، كانـت تريـد أن تموت في خصوصيّة تلك الغرفة.

ذهبـت هيلين إلى الطّاولة وبدأت بوضع أسـماء على الأفلام الّتي التقطتها في اليوم الماضي، لا شيء غير اعتياديّ أو أنّ غير الاعتيـادي بـات عاديّـاً. أعاد لين حـزم حقائب الأفـلام بطريقة أفضل من هيلين، ووضع قميصاً مطويّاً في أعلى الحقيبة، طواه بطريقـة كأنّـه معـروضٌ فـي أحد المحـال، رأت هيلـين بارقة أمل فـي الطّيّات المرتّبة للملابس المجعّـدة، قميصٌ جديدٌ لبدء حياة جديـدة، كان عليهـا الذّهـاب، ثمّ هيمـن عليها إحسـاسٌ كفولاذ دخل جسَـدها. خرج كلّ شـيءٍ منْ حبّ أو خوفٍ من جسدها وكلّ ما تبقّى هو التّصميم.

قـالت: «أخبرني تشونغ عن الجنود».

«أيّ جنود؟».

«كانوا في الأسفل وهو قام بإبعادهم».

«لم يأت أيّ جنود، كنت أتطلع من النّافذة منذ أن غادرت».

هزّت هيلين رأسـها متفاجئةً من سـذاجتها وسـألته مشـيرةً بذقنها إلى السّلاح: «هل كنت ستحرس الشّقة؟».

نظر لين إلى المسـدّس كأنّه يراه لأوّل مرّة وقال: «كنت سـأقتل نفسي إذا أتوا».

ابتلعت هيلين أنفاسها. رغم أنّها تقيم منذ أمد طويل في فيتنام لكنّها كانت لا تزال تأخذ الأمور بخفّة مواطنة أمريكيّة. إن قبول لين السّريع بالسيناريو الأسوأ ذكّرها بأنّه لم يكن صعباً أن يكون المرء شجاعاً عندما يتيقن من وجود طائرات الهيلوكوبتر لتأخذه إلى الوطن حيث الأمان.

«سنذهب الآن».

أعطت لين الجرعتين الأخيرتين من المورفين آملةً أن تكفيه حتّى وصولهما للسّفارة وتمكّن الأطبّاء الأمريكيّين من إعطائه جرعات أكثر، لبست ثوبها ولفّت شالاً على رأسها.

وبينما رفعت حقيبتَي الأفلام فتحت زاوية إحداهما وتسرّب منها شرائط أفلام كانت قد صوّرتها، كانت الحقيبتان مهترئتين وباليتين، وقد أصبحت أطرافهما الكرتونيّة أكثر طراوة. كانت هيلين قد رقّعتهما بشريط كهربائيّ لأنّه كان الوحيد الّذي لا يفسد من الرّطوبة.

«لحظة واحدة». وذهبت لإحضار شرائط أكثر لربط الزّوايا.

سألها لين بعد أن نفد صبره: «لماذا لا تشترين حقيبة جديدة؟». كانت الحقيبة فقط مثالاً آخر على تعاملها الصّعب مع الأمور والّذي وضع كليهما في حلقة الخطر. كان يعرف مع ذلك أنّه إن ضغط عليها فإنّها ستقف فجأة كفرس قويّ. قالت هيلين مستخدمةً سكيناً لقطع ما تبقّى من ذيل الشّريط الكهربائيّ: «أعلم، سأفعل».

ككلّ شيء آخر كان الأمر بسيطاً، أرادت فقط أن تنهي وقتها هناك، ولكن ككلّ شيء آخر أصبح الشيء الوقتي وضعاً مستديماً.

حمل لين حقائبهما على كتفه السّليم، وقامت هي بإغلاق باب الشّقة الخشبيّ تاركةً الضوء الأحمر يضيء، وأسرعت نازلةً

على السلّم، لقد تغيّر مسار الرّحلة أمامهما كما في حكاية خرافيّة، حتى أصبح صعباً بما يفوق الخيال.

في الخارج اندمجا في حشد من النّاس وتنقّلا معهم، كان الضّجيج الشبق يصمّ الآذان، فالعائلات تتجادل حول أيّ الاتجاهات تسلك، والأطفال يبكون، والكلاب تنبح، وفوق هذا كلّه كان هناك دويّ زمامير الآلات المتحرّكة التي تحاول شقّ طريقها في الشّارع، وبعيداً في خلفيّة المشهد كنبض قلب منتظم كانت هنالك أصوات القنابل التي تنفجر. كانت صورة جيش متعطّش للدّماء تقتربُ أكثر وأكثر، وجعلت الجميع يهرول بدلَ أن يمشيَ، ويدفع مَنْ أمامه بدل أن ينتظر. تشوّقت هيلين وآلمها المنظر كمن كان واقعاً في ورطة فقد أرادت فقط أن تلتقط كاميرتها وتبدأ بتصوير المشهد. فما نفعُ العيش في التّاريخ إن لم نسجّله؟

مشى لين بثبات، ولكنّ عرجته كانت واضحةً أكثر بسبب ضعفه، كان وجهه شاحباً وجلده رطباً بعرق لم يجفّ. أخذت هيلين نفساً عميقاً لكي لا تظهر رعبها وتحافظ على هدوء عقلها. فقد كان أهم جزء في عملها كصحافيّة هي أن تحسب الوقت بين التقاط الصّورة وما يكفيها من الوقت لتنجو ولا تُقتل، وهي مهارةٌ كانت تحمي نفسها بها وتشحذها بغريزتها. ومع ذلك كانت تتجاهلُ غريزتها وتسمع كلام رجال السّفارة بأنّ كلّ شيء سيتكشف ببطء. كانت قد قطعت ذاك الخطّ الزّمني بنصفه ومع ذلك كانت لا تزال متساهلةً في حساباتها. البارحة عندما أخبروها أنّ المدينة لن تسقط وأنّ الأمريكيّين وتوابعهم سيخرجون مع مرور الوقت، كان عليها الذّهاب إلى المطار في ذلك الوقت.

في طريق (تان دا) المليء عادةً بالمطاعم كان هناك قضبانٌ معدنيّة على جميع النّوافذ والأبواب.

وكان من الصّعب المشي بجانب المبنى بسبب تراكم تلال القمامة، وكان من الصّعب أيضاً المشي في الشّارع دون التّعرض للدّهس. تحرّكت هيلين أمام لين لتقوده إلى الطّريق الأسهل بين الحطام المتناثر في الشّارع. كان الزّجاج يتحطّم تحت الأقدام وكان النّاس يتركون أشياءهم ومقتنياتهم ويذهبون. الملابس في كلّ مكان، والأكياس البلاستيكيّة ممتلئةٌ بالأغراض المنزليّة وقطع الأثاث ودرّاجات صدئة قديمة وآلات خياطة وأغطية أسرّة مهترئة.

قادته هيلين إلى جدار المبنى. انحنى لين ممسكاً بجنبه وملتقطاً أنفاسه وهو ينفخ الهواء من فمه المفتوح. كانت هيلين تكره نفسها أكثر وأكثر كلّما رأته يعاني.

سألته: «هل أنت بخير؟».

«أريد هواءً أكثر».

أحسّت بقميصه المبتلّ بالعرق وقالت: «أعطني الحقيبة».

«خذي كلّ الحقائب».

«سنتحرّك أسرع».

هزّ لين رأسه وأعطاها الحمولة. وقفت الحركة أمامهما بسبب نقطة تفتيش. ساعدته هيلين على الوصول إلى باب أحد المباني وتركت الحقائب معه.

وبعد خمس دقائق عادت ووجهها عابسٌ وهي تلتقط الحقائب، لاحظ لين يديها ترتجفان.

«تعال نعد أدراجنا، فبعض ضباط جيش فيتنام يبحثون عن الهاربين من الجنديّة لإعدامهم على الفور، ولا أريد أن تقع عيونهم على أوراقك».

عادوا مسافة بناية إلى شارع سوق (آن دونغ) وعلى أطراف الطّريق كان هناك الكثير من المسنين منتشرين على الأرض

واليـأس يملأ وجوههـم، وعلى زوايا الطّرقـات أطفال منفصلون عن عائلاتهم يرتجفون رغم اشتداد الحرّ وعيونهم ترفرف بسرعة ممسـكين بقوّة بما كان لديهم من ملابس أو ألعاب. كان كلّ شيءٍ يتجمّـع فـي تلك اللّحظة في الحرب عندمـا يقاتل الأقوياء من أجـل البقاء ويسـقط الضّعفاء. كانت الحضارةُ وسـيلةً راحةٍ في وقت السلم.

كانت سَـاعة الوقت الّذي يضيّعونه تدقّ في رأسـها، وأكتافها تؤلمهـا مـن الحمولة الّتي معها. عرف الجميع أنّ السّـفير مارتن كان متوهّماً باختبائه في السّـفارة خائفاً من أن يسـتولوا عليها كإبـراء للذمّـة. لكنّ هيلين حسـبت هذا الحسـاب عندما جاءت الوسـاطة الصّعبة بأنّ الجيش الأمريكـيّ لن يجرؤ على الرحيل حتّى خروج آخر أمريكيٍّ وكلّ من يتّصل بهم من فيتناميين. فهم لـن يسـتطيعوا تحمّل خسـارة إعلاميّة بهذه الصّورة، واسـتمرّت الرّحلات أيّاماً إن لم يكن أسـابيع. لم يكن الأمر كذلك بالنّسـبة للسّـفارة البريطانيّـة الّتي تركـت كادرها الفيتنامـي وراءها بكلّ برود. كان من المُحال توقّع سقوط المدينة خلال ساعات، وبما أنّه كان عليها أن تعبر طريقها سـيراً علـى الأقدام مع حقائبها ومع لـين الّذي كان يعتريه الضعـف أكثر فأكثر، لم يكن من المفترض أن تتداعـى الأمـور هكذا. وبعد مسـافة بنايتين من آن دونغ دلفا إلى شارع آخر موازٍ لنقطة التّفتيش وأخذا يسيران جيئةً وذهاباً بين الأزقّة لتجنّبِ الجنود، وهم يسـتهلكان طاقتهما في المشـي. ضلـت هيلـين الطريق عدّة مرّات واضطرّت إلـى ترك لين وراءها للتّحقق من أسماء الشوارع الرئيسيّة. وفي منتصف الطّريق في شـارع (تران هونغ داو) كان هناك حشـد مذعور من النّاس بينما تدوّي أصوات إطلاق النّار خلفهم والحشد يدوسُ مَن يقع أمامه،

وتمّ دفـع هيلـين علـى ظهرها بقوّة. وفي خضـمّ ذلك مدّت يدها إلـى لين واندفعا سـويّاً إلـى الرّصيف ملتصقـين خلف صندوق قمامـة ممتلـئ. جلس لـين علـى الأرض المبلّلـة وصـدره يرتفعُ وينخفض بقوّة.

تحرّكـت هيلـين إلى أمـام صنـدوق القمامة ونظـرت خلفها إلـى الجنوب فـي مقدّمة الشّـارع حيث كان هناك حوالي عشـرة رجـال مخمورين يبتلعـون زجاجات المشـروب مرتدين نصف زيّ عسـكريّ ونصـف مدنـيّ، ولـم يكـن واضحـاً إن كانـوا من جيش فيتنـام يحاولون الانخراط بالحشـد المدنيّ أم أنّهـم كانوا قطّاع طرق من رعاة البقر المحليين متنكّرين كجنود ليتمكّنوا من نهب ما يسـتطيعون بأقلّ تشـويش ممكن. أطلقوا النّار على الحشـد وضحكـوا عندمـا رأوا النّاس يطؤون بعضهم في محاولة يائسـة للهرب.

كان أحدهم يرتدي قميصاً من السّاتان فوق سروال مموّه مع حذاء عسـكريّ. وجّه مسدّسه إلى مجموعة من النّساء يرتجفنَ على طرف الطّريق المواجه لصندوق القمامة.

أحاط الرّجال بتلك النّسـوة وأخـذوا واحدة منهنّ، فصلوها عن البقيّة ودفعوها إلى ظلّ أحد البابين.

نظـرت هيلين إلى الشّـارع آملةً أن يكون هنـاك أيّ إلهاءٍ لهم لإنقـاذ المـرأة، ولم يكن هناك شـيءٌ بإمكانها فعله دون أن تعرّض لـين ونفسـها للقتل. اعتـادت أن تكون شـرطة المدينـة (الفئران البيضاء) موجودةً باستمرار على كلّ زاوية لكن الآن لا أثر لها.

وكانـت وسـيلتها الوحيـدة هـي إخـراج كاميرتهـا والبـدء بالتّصويـر. ركضـت إحدى العجائز مـن المجموعة، إمّـا أن تكون أم الفتـاة أو عمّتهـا إلـى البـاب صارخةً فأطلق النّـار عليها أحد

الجنود. وقامت هيلين بالتقاط المشهد. كانت لعنة الصّحافة التّصويريّة في الحرب أنّ الصّورة الجيّدة هي بالضّرورة صورة للأذى أو للقتل، طرفت عينا هيلين بمشاعرَ غامرة.

جمع الرّجال بقيّة النّسوة مع بعضهنّ، والأسلحة موجّهة إليهنّ بنيّة إعدام الشّهود كلّهم، وفي الصّورة في إطار ذلك كلّه ركضت الفتاة من الباب وانضمّت إلى باقي المجموعة بوجه مدمّى وسروال مُمزّق.

وفي صورة أخرى التقطت الوجه الحادّ الغاضب لأحد الرّجال، وفي صورة أخرى التقطته يدير رأسه وينظر حوله ليتأكّد أن لا أحد يرى ماذا سيفعل بعد ذلك، وبعدها ثبت عينيه على هيلين وهي تلتقط اللّقطة بعد الأخرى.

صرخ بها «توقّفي». فترك الرّجال مجموعة النّساء وركضوا بأسلحتهم الموجّهة إلى الطّرف الآخر من الشّارع، فهربت النّسوة بعد أن تمّ الالتهاء عنهنّ.

وقفت هيلين وقالت: «أنا من الصّحافة والصّحافة محميّة».

كلّ شيء أصبح أسود وعندما استعادت وعيها وجدت نفسها ملقاةً على الأرض ونتوءات الشّارع الحادّة تنغرس كالأظافر في جلدها، ووجهها مغطّى بسائل دافئ اتّضح لاحقاً أنّه دمها، الجندي الّذي ضربها على رأسها صرخ وأشار إلى الكاميرا بمسدّسه لكن كلّ شيء بدا بعيداً حتّى الجنديّ بدا بعيداً كلّ البعد وكانت هيلين منفصلةً عن نفسها بعيدةً مستمتعةً بسخف الموقف، وكيف أن الجندي أطلق النّار على الكاميرا. ألم يعلم أنّه هناك دائماً كاميرات أخرى؟ الفكرة الوحيدة الّتي دارت في بالها الآن أنّ هؤلاء ما كانوا إلا جنوداً لأنّهم لو كانوا قاطعي طريق عاديّين لما اهتمّوا بالصور. أتى جنديّ آخر وجهه مستدير كوجه

طفل مع انتشار البثور على خدّيه ووجّه مسدّسه قريباً جدّاً من صدغها لدرجة أنّها استطاعت أن تحسّ بحرارة فوّهة السّلاح الموجّه إليها وأن تخمّن بأنّه هو السلاح المستخدم ضدّ المرأة الّتي قُتلت في الشّارع.

أوضح مرور الزمن كلّ شيء، هل أغمي عليها مجدّداً؟ أخبراً وجدَتْه بعد كلّ تلك السّنوات، ذاك الإحساس بالأمان، لم تكن تشعر بالخوف لأي سبب كان، ألم يكن ذلك شيئاً مثيراً للإعجاب بالنّسبة لفتاة مسكينة خائفة من كاليفورنيا؟ ربّما لم يكن ذلك أسوأ من إغلاق كتاب. ولكن كلّ شيء الآن صبّ في اللّحظة الحاضرة. مرّة أخرى كانت في الشّارع تشعر بالغثيان حتّى معدتها، كان الإسفلت تحت رأسها وحولها القطران في الشّارع والقمامة ودخان الأسيد من الأسلحة المستعملة، مع أنّها لا تتذكّر أنّ أحدهم استخدم السّلاح. شعرت بخوف طفوليّ من أن تموت في الغربة.

اعتقد الفيتناميّون أنّ أسوأ طريقة للموت هي أن تموت بعيداً عن وطنك، فعندما تسافر روح الإنسان في الأرض تضيعُ إلى الأبد، لكنّ هذا المكان كان وطنها مثل كاليفورنيا تماماً، فقد عاشت أهمّ لحظات حياتها هنا، وإذا لم يكن هذا المكان مؤهلاً لأن يصبح وطناً فما الّذي يمكن أن يؤهّله؟ لقد عرفت رجال حرب متقاعدين عادوا إلى فيتنام وتزوّجوا من نساء فيتناميّات وأصبحوا آباء، ولم تكن لديهم أيّة نيّة للمغادرة مع أنّهم كانوا لا يزالون يعدّون (أوهايو) وطناً لهم، كان ذلك خطأً. كانت كاليفورنيا بعيدةً بشكل لا نهائيّ، كانت كاليفورنيا غائبةً. حتّى أحلامها شكّلتها هذه الأرض، حقول الأرز التي تمتدّ على مرمى البصر، الجبال والأدغال وحقول براعم الأرز الخضراء وحصاد

الأرز الذهبيّ كحقول القمح الممتدّة الّتي تنتج صفوفاً من الأرز الموسميّ الّتي شكّلت مخابئ جرداء ضيّقة لجاموس الماء. وأزقّة سايغون السّميكة والطّرق المدمّرة المرصوفة بالأشجار. وفيلات الباستيل المتهاوية بفعل القصف الناري. وحتّى شقّتهما الصّغيرة الملتوية المرسوم على بابها طواويس وتماثيل بوذا. النّاس المحبّون والخونة ومن يتعرّضون للقصف. ولين، لين الذي يحتل مركز قلبها. كلّ ذلك شكّل شرعيّة لا يمكن إنكارها لاحتمال نهايتها وملاقاة حتفها هنا.

رأت ضوءاً أبيض مُعمياً للأبصار صادراً عن انفجار، وعندما نظرت إلى الجنديّ الّذي يتحلى بوجه طفل كان قدَ رحل، أو أنّ أجزاءً منه قد ذهبت، فنصف رأسه ورقبتهَ جُرفتا بعيداً ثمّ سقط وارتدّ مسافة بوصة عن الرّصيف قبل أن يستقرّ جسده على الأرض. كان قطّاع الطّرق صامتين، أصبحوا فجأة هادئين كمجموعة من الكلاب الوحشيّة، ومثلما يتقلّب العنيف بطبعه، هرولوا بعيَداً واحداً تلو الآخر.

رفعت هيلين نفسها وأدارت رأسها حيث كان الألم يعرّش فيها ويلوي رقبتها، وهناك رأت لين جالساً مقابل الجدار ورجلاه مطويّتان مقابل صدره والمسدّس الّذي كان في شقتهما موضوعٌ بشكل متوازن على ركبتيه. ما الّذي طرأ عليه واستوجب منه إنقاذها مرّةً بعدَ أخرى؟ كان الأمر ضربة حظ. لقد علمت هيلين أنّه كان بإمكان الجنود أن يقرّروا إطلاق النّارَ عليهما بكلّ بساطة.

إن آخر رصيد مضيء لها من الحظّ قد استهلك الآن، ولَم يبق لها إلا صوت حَقيبتها الفارغة مع كلّ خطوة.

عادت النّسوة ليحطنَ بصديقتهنّ الّتي تعرّضت لإطلاق النّار، وما كان من هيلين إلا أن أخرجت الكاميرا المتبقّية من

إحدى حقائبها وقرفصت فوق المرآة وبدأت بتصويرها وهي تحدّق في عدسات الكاميرا بعينيها الدّاكنتين الفارغتين اللتين تخفيان سراً ما. وضعت إحدى النّسوة يديها أمام هيلين ومن دون تفكير أبعدتها هيلين عن طريقها فبعد مخاطرتها بحياتها وحياة لين استحقّت أن تأخذ تلك اللقطة، كان ذلك من مستحقّاتها. أحاطت النّسوة بصديقتهنّ وبعد لحظة سُمِع صوت ندب وعويل.

حاولَ لين النّهوض على قدميه بصعوبة بالغة ودون أيّ اعتراض. حملت هيلين الحقيبتين السوداوين وباقي حَمولتهما وأخذا يركضان.

وبعد أن عَبَرا بناية قلّلا من سرعتهما، ثم توقّفا بعد فترة لالتقاط أنفاسهما. تعثّرا وظهرت بقعة دمٍ صغيرةٍ على قميص لين.

لهث قائلاً: «أنا بحاجة إلى الماء».

بحثا بيأس متزايد في واجهات المحلات، وبذاك الذّعر وفي تلك المنطقة المنخفضة سمعت صوتَ أجنحة هيلوكوبتر كصوت مقطوعة موسيقيّة ورفعت رأسها لتراها فوق الأبنية، كان الصّوت لا يزال بَعيداً فحطّمت باباً زجاجيّاً لأحد المطاعم وذهبت إلى البار، وأحضرت كأساً من الكؤوس المصفوفة بأناقة والمقلوبة على رأسها وملأته بالماء من الصّهريج الطّيني الموضوع فوق البار.

تضاعف حجم بقعة الدّم فأخذت قميصاً قطنيّاً نظيفاً من حقيبتها وقالت: «ضع هذا على الجرح». وعندما أنهى كأس الماء استدار بسرعة للنّاحية الأخرى وتقيّأ، حملت حقائب الأفلام وتركت وراءها بَقيّة الحمولة لعدم احتمالها ثقل الوزن على كتفيها ورقبتها أكثر من ذلك.

تباطأ مشيهما الآن أكثر، كانا يمشيان ببطء لدرجة أنّ أيّاً من المسنين الماشين في الشّارع كان يستطيع اللّحاق بهما. انتفض رأسها من أثر عقب المسدّس ولمست قشور دم جافّ على أطراف شعرها. هل يجب عليها تجاهل الحقيبتين السوداوين والمضيّ قدماً؟ ولكن بدا الأمر لها وكأنّها تهجر كلّ شخص قامت بالتقاط صورة له. تذكّرت لقطةً معينة وهي بالتّحديد لطفل داسته أقدام حشود اللاجئين في ضواحي المدينة. وقد وضع الحرّاس حواجز بجانب الجثّة دون لمسها حيث استلقى على جانبه كحيوان ملتفٍّ بأوراق الغابة. قصصٌ لا تحصى من هذا النّوع. كان الإنسان قد ذهب مسبقاً ما عدا بقعةً سوداء على خلفيّة أفتح من نسخة الصور السلبيّة، إذا نُشرت تلك الصّورة فسيحقّق ذاك الطّفل نوعاً من الخلود حتى ولو كان مهلهلاً. كانت كلّ صورة من تلك الصّور تُضعف من يلتقطها.

حملت هيلين حمولتها على كتفيها وكانت رباطات الحقائب تفرك جلدها لكنّها تابعت المشي. وضع لين ذراعه على معدته وسند نفسه على عصا ملقيّة في الشّارع.

قالت له: «ضع يديك على كتفي».

مشيا إلى مركز الطّريق الرئيسيّ غير قادرَين على سلوك طرق دوّارة أكثر أو المرور من طرق صغيرة وأزقّة ضيّقة. لحسن الحظّ لم تمرّ أيّة حافلة من الطّريق بعد ذلك وإذا أتى أيّ جنود أو قطّاع طرق فلن يستطيعا هما الهرب، وكان الازدحام يقلّ كلّما اقتربا من القسم السّكنيّ حيث كان موقع السّفارة الأمريكيّة.

هنا بدت الشّوارع مهجورة، وشعرت هيلين بشيء من البهجة بأنّ الجزء الأكبر من المحنة قد انتهى تقريباً. انهار لين عند جذع شجرة تمر هندي. كان الحيّ قديماً هنا حيث كانت أغصان

الشّـجر الملتوية فوق الشّـارع تشـكّل مظلّة حاميةً من الشّـمس. العديد من الأشجار كانت قد قلّمت من أجل ترك مكان للدبّابات. مرّت طيّارتا هيلوكوبتر ورأتهما هيلين بوضوح قريب مَن الأرض، وسمعت صوت إحداهما تحوم فوق أرض السّفَارة منتَظرةً الأولى أن تهبط.

أمسكت يد لين بقوّة وقالت له: «إنّنا قريبان الآن».

استند هو على الشّجَرة ممسكاً بها وواقفاً إلى جانبها ووجهه مبللٌ كأنّه صبّ عليه الماء، وبقعة الدّم على قميصه تتّسـع وتكبر مثل يد ممدودة. أشار لها بإيماءة قوية.

فقَالت له: «لا نستطيع التّوقّف الآن سنتوقّف في الدّاخل».

كان ذلك أسـوأ جولة لها، كلّ خطوة تخطوها كانت من دافع إرادة قويّة ودافع غامر يحثّها أن تستلقيَ على الأرض.

وبعد عبور بناية قريبة من السّـفارة سـمعا صوتاً آخر انضمّ إلى صوت هدير الهيلوكوبتر والمدفعيّة البعيدة، كصوت خشخشةٍ ناعم مستمرّ، لكنه متبدل كهدير المحيط.

عَبـرت هيلـين مـع لين الزّاويـة الأخيـرة وتوقّفا عنـد طريقٍ مسدود.

كانَ هنـاك بحـرٌ مـن النّـاس أمامهما ولم تكـن هناك بوصة واحـدةٌ مـن الأرض فارغـةً، والنّـاس فـي كلّ مكان وهـم يدفعون بعضهم من جوانب المباني الممتدّة من أبواب السّفَارة إلى الطّرف الآخر من الشّارع، لم يكن حشداً كسولاً بليداً بل بحراً من النّاس يسـتدير حول الدرّاجات، وشـكّلت حقائب النّاس المتراكمة جزراً صغيـرة، وهم يتلاطمـون ويتدافعون حـول البوّابـات الحديديّة الثّابتة للسّـفارة. كانوا كأمواج تتحطّم على صخرة شـاطئ وعرٍ تتحطّم وتعود لتسقط على نَفسها.

وقفت هيلين مخدّرة من منظر الأمريكيّين الّذين يحبسون أنفسهم بعيداً ويهربون. نظرت إلى لين الّذي لاحظ بالكاد تلك الاضطرابات من حوله. وإذا فقد الوعي فسينتهي الأمر بالنّسبة إلى كليهما.

قالت له: «أعطني المسدّس».

كان ضعيفاً جداً لدرجة أنّه لم يستطع الجدال، وإذا استخدمه أحدهما فلا بدّ أن تكون هي. سحبت هيلين مفتاح الأمان ووضعت سبّابتها على الزّناد. طوال السّنوات الّتي قضتها في هذا البلد لم تحمل سلاحاً أبداً ورفضت أن تقرّر أن تدافع عن نفسها. ومع ذلك قام لين للتوّ بالقتل من أجل أن ينقذها.

كانت هيلين تشقّ طريقها في مؤخّرة الحشد وتتحرّك باتّجاه المدخل الجانبيّ، ويداها تمسكان معصم لين بقوّة، وفكّرت أنّهما حتّى إذا وصلا إلى الدّاخل فسيضطرّان للتّضحية بحقائب الأفلام، ولكن ليس بتلك السّهولة، وليس من دون عراك.

ما إن شعر أحدهم بأنهما يضغطان عليه حتّى استدار كل مَن في الحشد، ونظروا إليهما نظرات حادّة، لكنّهم ابتعدوا ما إن وقعت أعينهم عليها.

نظرت إلى الأسفل حيثُ ثوبها المغطّى بالدّماء، مدركةً أنّه لم يكن دمها، لكنّه دم الجنديّ ذي الوجه الطفوليّ فانقلبت معدتها وأرادت أن تخلع الثّوب، ولكن لم يكن هناك مكانٌ لترفع يديها حتّى، وإذا أرخت قبضتها الممسكة بيد لين، فمن الممكن أن يسقط تحت أقدام الحشد، لذا أرخت قبضتها عن السّلاح ووضعته في جيب الثّوب، ورفعت يديها لتخلع عن رأسها الشّال الأسود. مسحت الدّم الجافّ عن وجهها ومسحت الثّوب ورمت

الشّال ورأته يتدلّى بين أجسام النّاس قبل أن يختفي عن الأنظار كأنّه غرق في رمال متحرّكة.

حرّكت الرّياحَ الحارّة شَعرَها، فعرفت الوجوه حولها أنّها أمريكيّة أو على الأقل غربيّة، وكان إدراكهم أنّ البقاء بقربها بطاقة خروج ونجاةٌ أكبر من استيائهم منها. «أفسحوا الطّريق للأمريكيّ المُحتضر وأعطوه مكاناً». وبذلك كانت هيلين ولين مدفوعين ومحاطين بالحشد، وبعد ساعتين وصلا إلى القضبان الحديديّة للبوّابة الجانبيّة.

شعرت أنّها وصلت إلى برّ الأمان وأنّها ممتنّةٌ للقوّات البحريّة الذين كانوا قد حلقوا شعرهم حلاقةً عسكريّة، وهم يرتدون النظّارات ذوات الإطارات السّوداء، معجبة بمنظر زيّهم الموحّد ومطمئنّة لوجود شعار «الفرقة السادسة عشرة» على صدورهم، وشعرت أنّ محاولتها الشّخصيّة لأن تحمي نفسها كانت محاولة سخيفة، شعرت أنّها تكاد تهذي، وأن رأسها يخفق، وأن قدميها كالورق، وأدركت أنّها لا تزال على الطّرف الخاطئ من البوّابة وأنّ انتباه الحرّاس كان مُشتّتاً جداً ولم يشعر أحدٌ بوجودها.

كان هنالك أصواتٌ حولها ترتفع حادّةً تترجّى المساعدة، كلماتٌ فيتناميّة تقع على آذان صمّاء يستجدون الإنقاذ بلغة إنجليزيّة مبسّطة. النّاس يساومون ويحاولون رشوة الحرّاس في هذه السّاعة المتأخّرة؛ إن كان بالمجوهرات أو بالسّاعات الذّهبية أو بأوراق النقود القذرة الّتي يدفعونها عبر بوّابات السّفارة، كانت أشياء قيّمة جدّاً يتمُّ دفعها هناك في بلد قلّت فيه الثّروة.

كان هناك رجلٌ بالقرب من هيلين يحمل طفلاً ويقول: «خذوا الطّفل لا تأخذوني، أنقذوا ولدي». كان على استعداد أن يدفع مليوناً أو مليونين، ولكنّه قوبل بالصّمت أيضاً على الطّرَف الآخر

من البوّابة. ثمّ نادى «خمسة ملايين، خمسة ملايين». إمّا أنّه قضى عقوداً يجمع هذه الأموال وإمّا أنّه سرقها خلال دقائق. فتح كيساً ورمى حزماً من النّقود خلال البوّابة ليضمن حماية ابنه، غير واع لحقيقة أنّ هذه الأموال لم تكن ذات قيمة بالنّسبة لأولئك الأمريكيّين، حيث كانت أقلّ قيمةً من ثمن لعبة (المونوبولي)، وأنّ هؤلاء الجنود كانوا مرعوبين من هؤلاء الرّعاع سود الوجوه، وغير قادرين على منح الأمان حتّى لطفل واحد، وكلّ ما أرادوه فقط هو حماية مَن كان في الدّاخل والنجاة بأنفسهم من نكتة الحرب هذه.

ارتعشت يدا هيلين بينما انهار لين خلفها والتوت رجلاه وصرخت باللّغة الفيتناميّة ناسيةً تشويش اللّغات ثمّ متداركةً خطأها وصارخةً بهم بالإنجليزية: «أدخلنا، أنا صحافيّة أمريكيّة».

استدار وجه جنديّ المارينز باتّجاهها وقال: «يا إلهي ما الّذي حدث لكما؟».

وبينما فُتحَت البوّابة أتى عددٌ أكثر من جنود المارينز يدعمون زميلهم موجّهين أسلحتهم إلى الحشد.

«أدخلنا».

«افتح البوّابة». قال مشيراً إلى الحارس الّذي خلفه.

وضع الحارس يده على صدر لين قائلاً: «هو لا يمكنه الدّخول».

«هو يعمل لصالح شبكة التّقارير الأمريكيّة ولديه أوراقه».

قال: «تأخّر الوقت على تقديم الأوراق، فنصف النّاس هنا لديهم أوراق».

صرخت هيلين: «عليك اللّعنة، لقد جرح هذا الرّجل وهو ينقذ حياتي».

«لا أستطيع».

«إنّه زوجي».

«أفترض أنّ لديك عقد زواج، أليس كذلك؟».

«إذا بقي فسأبقى، وإذا قتلني جيش فيتنام فإنّ قصّة رفض السّفارة إدخالنا ستكون في كلّ صحيفة وسيكون اسمك متضمّناً في المقال».

غطّى العرق وجه الحارس الّذي كان صغير السّن ومتعباً وضيق الصدر جدّاً بالنّسبة لعمره.

«اللّعنة لم يعد الأمر مهمّاً لتلك الدّرجة، ادخلا هيّا».

تقدّم عدّة خطوات وأمسك بهيلين ولين ورماهما في الدّاخل كالألعاب. حاول الرّجل الّذي كان معه طفل أن يمسك بيد هيلين لكنّ جنديّ المارينز لكمه معيداً إيّاه إلى شبكة الحشد. وبينما هما يعبران البوّابات استغلّ خمسةُ أو ستّة فيتناميين الفوضى ليتمكّنوا من الدّخول. ودخلوا وانتشروا في الحشد غير مرئيّين كطيور الغابة قبل أن يتسنّى للحرّاس التقاطهم.

حصل إطلاق نار وتمنّت هيلين أن يكون في الهواء وألا تتّسخ يداها بمزيد من الدّماء لهذا اليوم. أُغلقت البوّابات مرّةً أخرى برنّة معدنيّة كبيرة. الفرصة الضّائعة جعلت الحشد في الخارج يهتاَج اكثر فَحاولوا تسلّق الجدران وقام جنود المارينز بإبعادهم بضربهم على رؤوسهم بأعقاب البنادق.

كان الداخل مزدحماً أيضاً لكن أكثر هدوءاً، حيث وقف الأمريكيّون بجانب تجمّع المباني بينما توزّع الفيتناميّون على كلّ جزء فارغ من العشب. حيث كان يتمّ تفتيشهم وإجلاسهم على الأرض. قالَ لها أحد الحرّاس: «عليك تسليم هذا يا سيدتي».

نظـرت هيلين إلـى الحارس بحَيرة إلـى أن أدركت أنّهم عثروا على السّـلاح المنسـيّ في ثوبها. وَليسَ فقط هذا بل اسـتطاعت أيضـاً الحفاظ على حقيبتي الأفلام. قادها الحارس إلى مسـبح المبنى حيث رمته هناك لينضمّ إلى خمسين أو ستّين قطعة سلاح مرميّة هناك في القعر مسبقاً.

قالَت هيلين: «أحتاج طبيباً».

هـزّ الحـارس رأسـه وانصـرف. أمسـكت هيلـين بكتـف لـين وساعدته على أن ينزل ويتمددّ على الأرض. كان قميصه منقوعاً بالدّمـاء من الأمام وبعد عدّة دقائق أتى أمريكيّ بقميص أبيض وحقيبة سوداء: «هل تعرّضت للأذىَ يا آنسة؟».

«لسَت أنا، إنّه لين قد جرَح منذ عدّة أيام وهو ينزف».

سـاعد الرّجـل علـى فـكّ قميـص لـينَ وفـكّ الضّمـاد عنه: «أستطيع تنظيف جراحه لكنّه بحاجةِ للعناية من الأطبّاء على السّفينة».

قالت هيلين: «وكم بقي من الوقت على ذهابنا؟».

«سيتّصلون بك».

هزّت هيلين رأسها.

«ما رأيك أن ألقي نظرةً على الضّربة الّتي على رأسك؟ يبدو أنّك بحاجة إلى بعض القطب. لا نريد لها أن تترك ندبةً».

مضت سَـاعاتٌ وهيلين ولين جالسـان على العشـب مسنودان علـى حقائب الأفلام. كان يتمّ حرق الأوراق داخل مجمّع الأبنية ومعها أسرار الحرب الّتي لا تنتهي وكان الدّخان والرّماد يتناثران فـي الهـواء ويسـتقرانّ علـى النّـاس وعلـى الأرض وعلى حوض السّـباحة كهطول ثلج رماديّ. أحسّت هيلين بالتّعب في عظامها بعد نفـاد الأدرينالـينَ، فقضمت بعض الطّعـام وأحضرت مياهاً

غازيّـةً دافئةً وسندويشــات عفنةً من خدمة الطّعـام المؤقّتة الّتي تعمل خارج مطعم السّفارَة المهجور.

«لقد نجونا. فعلناها، أنا سعيدةٌ. سعيدةٌ».

استند لين إلى جانبه ووجهه منهكٌ ونعس من الألم الشديد وأجابها:

«ما زلنا في ســايغون وما فعلناه فقط هو التّســلل إلى قفصٍ جديد».

اسَتلقت هيلين بالقرب منه: «لقد تماديت، لكنّ الأمور نجحت ولم يحدث أيّ ضررٍ».

«لا ضرر».

«عندمــا صــوّرت تلك المــرأة كنت غاضبةً أنّ الصّــورة يمكن أن تضيع، ثمّ فكرت ما الّذي دهاني؟».

«فقط كوني معي».

«أريد ذلك».

«لــم تبدئــي تلك الحرب ولم تنهيها أيضــاً وكلّ ما حصل بين البداية والنهاية ليس ذنبك أيضاً».

كان وجه هيلين خالياً من أيّ تعبير والدّموع تملؤه دون مشاعر.

«أنــت لا تصدقيننــي أليس كذلــك؟ لا أحد منّا لــه علاقة بتلك الحــرَب نحن عابرو تاريــخ ليس إلا». قالها وهــو يجففّ دموعها لكنّ انتباهها كان ينصرفَ عنه شيئاً فشيئاً.

أظلمــت السّــماء واســتدار رأس لــين إلــى اتّجاه واحــدٍ بينما استغرق في نوم خدر عميق.

كان النّــاسَ بجانــب هيلين قلقين من عــدم تمكّن المارينز من إبقاء حشد النّاس خارجاً. كان الفيتناميّون في الخارج مصنّفين علــى أنّهــم تابعون للأمريــكان، ومع أنّ الأمريكيّين في السّــنوات

العشر الأخيرة كانوا معتمدين عليهم للبقاء والنّجاة في هذا البلد القاسي لكنهم كانوا خونةً بشكل جمعيّ. كان عدد النّاس في كلّ رحلة ضئيلاً بالنّسبة لمن ينتظرون، كمَن يأخذ قطرة ماءٍ من دلو ممتَلئ في كلّ مرّة.

كان الهديرُ الصّادر عن الهيلوكوبتر يصمّ الآذان ولكن كان بإمكان هيلين أن تسمع من وقت إلى آخر صوت دمدمة بعيداً آتياً من جهة (غيا دن) و(تان سون نهوت). كأن نقراً مستمرّاً كالّذي في رأسها. كان الضّجيج أقرب ممّا كان عليه صباح اليوم. بدا أنّ حياةً كاملةً قد مرّت في تلك السّاعات الفاصلة. ارتجف لين في نومه.

مرّ بجانبهما موظّف السّفارة فأوقفت هيلين الرّجل وسألته: «كم من الوقت علينا أن ننتظر أكثر من ذلك؟ هذا الرّجل يحتاج إلى عناية طبيّة».

«من المُمكن أن ننتظر طوال اللّيل». أجابها ناظراً إليها بحدّة وهو ينقر بقلمه الرّصاصيّ على دفتر الملاحظات الّذي كان في حوزته. «يتمّ نقل الأمريكيّين الآن، اذهبي إلى الدّاخل وسوف تتمّ العناية بزميلك لاحقاً».

كان ذلك في لغة السّفارة المعقّدة يعني المتاعب. أيقظت لين وسحبته ليقف على قدميه مستخدمةً أربطة حقائب الأفلام الملتفة حول رقبتها، ثم انضمّوا إلى مؤخّرة خطٍّ طويل يصعد الدّرج إلى السّطح، لوّحت إلى أحد حرّاس المارينز وقالت له: «أحتاج أن أنقل هذا الرّجل إلى المروحيّة».

«كلٌّ يأخذ دوره».

فركت جبهتها وقالت: «لا. فقد تعرّض إلى إطلاق النّار وسوف يموت إن لم يتلقّ عنايةً طبيّةً».

«هناك العديد من النّاس متلهّفون للصّعود إلى متن الطّائرة يا سيّدتي وليس لديّ أيّة أوامر تخصّه».

جاء رجلٌ أشعث معه لوحةٌ، كان في العشرينيّات من عمره بوجه منهك، وقد بدا أنّه لم يذق طعم النوم منذ أسبوع.

«أنا هيلين آدامز من طاقم تصوير لايف وهذا نجيون بران لين الّذي يعمل مع صحيفتي لايف والتّايمز، وهو جريحٌ ويحتاج إلى التّرحيل فوراً». افترضت هيلين أنّه في الظّروف الرّاهنة لا أحد سيكتشف كذبها وأنّ جريدتها الّتي تعمل بها قد سحبت منها كلّ أوراقها الاعتماديّة. ألم يكونوا يحاولون إخراجها من هذا البلد في نهاية الأمر؟

خطّ شيئاً ما بتعجّل على لوحه وقال: «بالتّأكيد». حكّ رأسه واستدار إلى جنديّ المارينز. «ترحيلٌ طبيّ، أحضرْ أحداً ما ليرافقهما إلى مقدّمة الطّابور وأحضرْ أحداً آخر ليشرح للجميع سبب تقديمهما إلى الأمام، أخبرهم أنّه هاربٌ فارٌ أو أيّ شيء».

قالت هيلين: «أنت أوّل شخص اليوم فعل ما قاله فعلاً».

«أنا من أكبر المعجبين بك يا سيّدة آدامز».

«لم أعلم أنّ لديّ معجبين».

«لقد قمت بتغطية ما حدث لأخي الكبير الّذي كان أحد جنود المارينز في الفرقة ستّ وثمانين، (تيرنر) تم وضعه في الفيلق الأوّل».

«حقّاً».

«كان يدير كراجاً في رينو في أمريكا، لديه ثلاثة أولاد، أخذت له ولزملائه صورةً عند الجدار، لقد تحدّث عن لقائه بك، وأنا أتابع أخبارك وعملك منذ ذلك الوقت».

قالت هيلين: «أشكرك على هذا، حظّاً موفّقاً».

«سنحتاج ما هو أكبر من الحظّ بكثير».

حمل أحد جنود المارينز حقائب الأفلام والآخر سند لين وساعده على صعود الدّرج المزدحم. عبروا باباً معدنيّاً سميكاً وأدراجاً أكثر وانتظروا قليلاً ثمّ تسلّقوا درجاً معدنيّاً مهلهلاً حتّى وصلوا إلى السّطح حيث كانت رائحة الهواء تفوح بالبخار، وكانت الأشياء المحترقة مثل نار مخيّم مخيفة. رأت هيلين في الاتّجاه الشّماليّ الغربيّ وهجاً محمرّاً لمئات الشّعلات النّاريّة وعدّة آثار لنيران صديقة ضدّ سيل من نيران العدوّ الزّرقاء الصادرة نحوهم. ويبدو أنّ الفرصة كانت ضدّهم. أصبح الأنين في رأسها أزيزاً مستمرّاً لكنّها لم تُرد أن تتناول أي شيء، فقط أرادت أن يبقى ذهنها صافياً.

حطّت المروحيّة على السّطح كما لو أنّ خيطاً مرّ من ثقب إبرة وأصبح جسد هيلين متصلّباً. كان دوران وصوت المحرّكات عالياً جداً حيث كان جنود المارينز يملون تعليمات الصّعود غير المفهومة صراخاً لدرجة أنّه لم يكن لديها الوقت لتشرحها لرفيقها الّذي رفّت عيناه نصف المغمضتين، وقف بجانبهما شابٌّ صحافيٌّ مسافرٌ على متن الرّحلة نفسها.

أشار جنود المارينز لمجموعتها بالتّحرك فانحنوا وركضوا تحت هواء دوران المحرّك الحارّ، أمسكت هيلين بذراع الصّحافيّ عند باب المروحيّة.

«أوصل هذه الأغراض إلى أيّ أحد من جريدة لايف على متن السّفينة».

«بالتّأكيد ولكن لماذا؟».

«سأتبعكم على رحلة لاحقة». ولم يكن في بالها إمكانيّة فعل هذا الشيء حتّى انفلتتَ الكلمَات من فمها.

بدأ جنديّ المارينز بسحب حقائب الأفلام حيث أصبح رباط الحقائب واسعاً ومهلهلاً كما لو أنّه خيط تزيين حفلة. «أسرعوا يا جماعة. اصعدي يا سيّدتي».

تراجعت هيلين وشعرت بتقيّؤ في معدتها، فقد كانت تشعر بالغثيان إلى أقصى درجة.

صرخت بالغريب: «اعتنِ به. اسمه نجيون بران لين، يعمل لصالح صحيفة لايف، أحضر له طبيباً على الفور».

نظر لين إليها بحَيرة، فهو لم يفهم لماذا لم تودّ هيلين الصّعود على متن الطّائرة وَحاولَ الخروج هو أيضاً وقال: «لا يمكنك فعل ذلك».

صرخت هيلين وهي تتراجع: «أوقفوه». كان الدم ينبض في أذنيها وتشعر بالغثيان منْ قدرتها على الخيانة من جديد. أجبر الشّاب الصّحافيّ وجنديّ المارينز لين على العودة إلى متن الطّائرة، ووضع الأحزمة حوله. شاهدت ما جرى بعجز الأطفال وكيف تمّ تقييد لين وكيف ارتخى وجهه إلى أحد الجوانب، وأراحها أكثر أنّه غاب عن الوعي. ركضت عائدةً إلى الطّائرة وطلبت قلماً لتقوم بكتابة عدّة أسطر على ورقة ووضعت أوراقه مع الرّسالة في حقيبة بلاستيكيّة وعلّقتَها بخيطٍ حول عنقه بالطّريقة نفسها الّتي تعامَلت بها مع الحالات الشّخصية لعدد لا يحصى من الجَنود.

وأمام حشد الرّجالَ المنتظرين انحنت هيلين وقبّلت جبهة لين وأغمضت عينيه وقالت: «سامحني، أحبك». في الخارج وعلى لوح صعود الطّائرة هبّت الرّياح على شعر هيلين وأحدثت صريراً في جلدها. وأغلقت عينيها لكنّ الألم كان مريحاً.

وقف جنديّ المارينز إلى جانبها وقال: «استقلّي الطّائرة التّالية الجميع هنا لن يغادر».

قالت وكتفاها ترتجفان عندما رأت المرج الكبير الممتلئ: «وماذا عنهم؟».

«من الأفضل أن تكون كلباً حيّاً على أن تكون أسداً ميّتاً. وهم يأكلون الكلاب في فيتنام».

أغلق باب المروحيّة وانحنى جنديّ المارينز وقاد هيلين إلى الباب وأشار لها برأسه لتتابع طريقها نازلةً السلّم.

وقفت هيلين عند المرج وشاهدت للحظة الكتلة المظلمة للآلة الّتي تحلّق في الجو والشّيء الوحيد الدّال على وجودها هو الأضواء الحمراء على جانبيها وذلك بسبب الخوف من تعرّضها لإطلاق النّار. كان الطيّارون يقلعون في الظّلام ويستخدمون الأضواء الكاشفة على السّطح لمسافة الخمسة عشر قدماً الأخيرة فقط قبل الهبوط.

قالت لنفسها: إنّه خطأ ألا تكون على تلك الطائرة، خطأ، خطأ، خطأ. كان يسري ارتعاشٌ كهربائيٌّ في داخلها كما لو أنّ فقاعات تجري مع دمها.

بقَدر ما جهّزت نفسها لتلك اللّحظة كانت خاسرةً. ما الذي كانت تبحث عنه؟ وما الّذي ظنّت أنّ باستطاعتها تنفيذه إذا لم تكن قد وجدت ما أرادت تحقيقه مسبقاً، ما فرصة تحقيقها له وتغيير أمورها إذا بقيت عدّة أيام إضافيّة؟ افترضت دوماً أن حياتها ستنتهي في الحرب وأنّ الحرب ذاتها ستبقى حاضرها الدّائم كما كان الأمر بالنّسبة لدارو وبالنّسبة لأخيها. أرعبتها فكرة استمرار الوقت وخبوّ ذكرياتها وتحوّل صورها عن المعارك من حياة إلى مجرّد تاريخ.

لقد سُفكت دماء من كلا الطّرفين. ولكن ماذا يعني ذلك؟

مالت المروحيّة وانخفضت مقدّمتها وهدرت بصوت الزّجاج والمعدن المرتعد ثمّ طارت إلى قمم المباني القريبة.

كانت آمنةً صغيرةً وهشّةً كحشرة في سماء اللّيل، شعرت هيلين أنّها ثكلى لأنّها خدعت لين وكلّ ما استطاعت أن تتمنّاه هو أن يتدثّر بالهذيان قبل أن يدرك ما فعلته.

تذمّر الفيتناميّون على الأرض من طول مدّة الانتظار، واشتكوا أنّ الأمريكيّين لم يكونوا يعدونهم بأيّ شيء إلا الجملة الوحيدة: «سيكون كلّ شيء بخير، سنعتني بكم». وعندما أبدوا اعتراضهم وقالوا إنّ العطش أصابهم قادهم المارينز إلى حمّام السّباحة. أعاد وقوف هيلين على العشب الطّمأنينة إلى القريبين منها؛ لأنّه من الواضح أنّ الإخلاء لم ينته بعد حتّى ترحيل آخر أمريكيّ، وبخاصّة النساء.

ارتعبت هيلين من إعادة المشهد مع الحشد في الخارج وإمكانيّة أن يصبح الموقف عنيفاً، فمشت إلى أحد الجدران الإسمنتيّة للمبنى واستلقت تحت شجرة على العشب الميّت البارد. خفتت الجلبة أكثر فأكثر، اختلط الهدوء الخارجيّ مع حالتها الدّاخليّة حتّى اقتربت من استعادة إحساسها بنفسها. غطّت في نوم عميق في منتصف تلك الفوضى واستيقظت على غيوم رماديّة ودخان يعكّر صورة القمر والنّجوم الخافتة في سماء تلك اللّيلة.

التقطت كاميرتها وثبتت الفلاش وبدأت بالتقاط الصّور. أصاب الفيتناميّين السخط الواضح بعد أن رأوها، فتلك الصّحافيّة لم تكن أمريكيّة حقيقيّة والجميع يعرفون أنّها مجنونة.

لاحظت في ساعات الصّباح الأولى - عندما نعس العديد من اللاجئين أو استسلموا إلى نوم متقطّع - أنّ عدد المارينز الموجودين على الأرض قد قلّ.

وقبل بزوغ الفجر بساعة انسحب آخر جنديّ حدوديّ، وبينما تابعت هيلين التقاط الصور تمّ سحب المتراس وإغلاقه

بصوت مدو حيث تم حبسها هي والجميع. لقد كان النّاس خارج السّـفارة أوّل مـن لاحظ نقص عـدد الحرّاس لأنّهـم لم يخلدوا للنّوم مطلقاً وظلوا مسعورين ومهتاجين حتّى اندفعوا الآن إلى أبواب السّـفارة. وبعد أن سمع النّاس داخل المبنى الصّخب ذهبوا إلـى الدّاخل ليجدوا غازاً مسـيّلاً للدّموع وجـداراً فولاذيّاً يحول بينهم وبين المهرب.

أحلامهـم المعلّبة ووعود الأمريكان السّـاخرة لهم سـحقت تحت الأقـدام كقطع أوراق صغيـرة. انفتحت البوّابات الخارجيّة المكسـوّة بالصّلصال بقوّة منَ الدّاخل بَعد تحميل آخر مروحيّة على السّطح. كان هنـاك موجـة طوفان مـن النّـاس الغاضبين الّذيـن ملؤوا حرم السّـفارة. أخـذت هيلـين صـورةً للجنـديّ الفيتناميّ الّـذي يصوّب سـلاحه على المروحيّات المختفية في سماء اللّيل وهو يسحب الزّناد والدّموع تملأ عينيه. والآن كانت الطّلقات النّارية تملأ سـماء اللّيل يخضّبها لـون الفجـر من جهة الشّـرق. وبعـد أن أدرك الحشـد أنّ فرصتهم قد انتهت بدؤوا بالتدمير والنهب.

شـاهدت هيلـين امـرأة فيتناميّة صغيرةً تسـحب كرسـيّ مكتب ضخمـاً على رأسـها خـارج درب مبنـى السّـفارة، ورجلاً تـرك خلفهَ صندوقـاً مـن رقائق البطاطـا. لقد كانت نهاية أحقر مـن الّتي تنبأ بها دارو.

عبـرت الأبـواب ذاتها الآن دون أن يأبه بها أو يعترض طريقها أحـد، مشـت إلى الشّـوارع المهجـورة كأنّها تمشـي في حلـم. كان كلّ شـيء غيـر قابـل للتّصديق حتّـى النّهاية الأخيرة. انتشـرت شـائعاتٌ بأنّ جيـشَ فيتنام الوطنـيّ سـيعتقل أيّ صحافي غربيّ ويطلق النّار عليه على الفور، وهذا هو حمّام الدّم الّذي حذّر منه الأمريكان، لكنّها اعتقدت أنّ الواقع لن يكون بهذا العنف.

مشت وحيدةً إلى مدخل الزّقاق الهلالي مبللةً بمياه المطر. ثمّ دخلت إلى الممشى الضّيق للطّريق المرصوف. وعند المبنى المحدّب نظـرت إلـى الأعلى ورأت نافذتها مضاءة بنـور أحمر من المصباح فتسارعت دقّات قلبها غير الطيع؛ لأنّها إشارتهَم القديمة عندما كان دارو يعـود مـن الميـدان، لكنّه الآن متوفٍّ منذ سـبع سـنوات. انهـار الوقـت بعد رحيـل لين وانتابها شـعور غريب بـأن الآنَ هو بدايـة القصّـة وليس نهايتها. كان دارو قد اعتـاد أن يأتي مرهقاً لينام في فراشهما وهو ما يزال رطباً بعد أن يأخذ حمّاماً، وعند دخولها الشّقة كانت تذهب إليه فوراً.

وصلـت إلى باب الشّـقة المطلـي بصور بوذا ووجدت الخشـب الجـافّ مكسـوراً عنـد مسـتوى الرّكبـة كأنّ أحـداً ما ركلـه بقوّة باستخدام حذاء. انكسر بعد كلّ هذا الوقت ولم يكلّف أحدٌ نفسهَ السّـرقة من ذاكِ المبنى، فكّرت أنّه من الممكن أن يكون تشـونغ هو من فعل ذلك بسبب غضبه من رحيلهما.

مـررّت أصابعها على الخشـب المتشـقق متلمّسـةً الطواويس وأزهار اللّوتس الّتي رمزت إلى الازدهار والحياة الطّويلة والحكمة. نظرت إلى الوضعيّات الثّنويريّة المتعدّدة لبوذا. كانت سايغون في ظلام تامّ في هذه اللّيلة الأخيرة من الحرب كوحش حامل. كانت رسـائلها إلى لين بسـيطةً جداً: «أحبّك أكثر من الحَياة، لكَن كان عليّ أن أرى النّهاية».

بتلك الطّريقة يفقد المرء وطنه. فأوّل ما يفقده هو المشاهد ثم تليها الرّوائح. يختفي اللّمس وبالطّبع الذّوق يتبعه مسرعاً. حتّـى صـوت لغة المـرء الخاصّة فـي مـكان أجنبيّ يثيـر الحنين فقـط. لـم يتذكّر لين أيّ شـيء عـن الرّحلة الأخيرة فوق سـماء سـايغون ولا إحسـاس لديه بأنّ حربه قد انتهت. وعندما حاولت

ذاكرته استعادة أيّ شيء رآه أو بالأحرى شعر به، وكان صوت دوران الماكينات فوقه يتحرك بطيئاً كنبض أجنحة طائرٍ عظيم، نبضة قلب ثمّ ظلامٌ ثمّ ظلامٌ دامسٌ ثمّ ظلامٌ.

كان ذلك هو الإقلاع المألوف للمروحيّة، شعورٌ بالغثيان، لكنّه للمرّة الأولى لم يشعر به؛ لأنّ داخله استقام بعد الارتفاع العموديّ للمروحيّة. انتابه خوفٌ من أنه الآن يحتضر؛ خوفٌ أنّه بإقلاع الطّائرة من سطح السّفارة ربّما فاتت روحه وبقيت هناك. مرّت أمام عينيه صور أناس لا يمكن عدّهم وصور عائلته، صور أمّه وأبيه، إخوته وأخواته، وماي ودارو وهيلين الّتي انسابت من بين أصابعه في الدّقيقة الأخيرة وضاعت منه، فتساءل بكسل ووهن أليس من الأفضل أن يموت من فوره خلال طيرانه في سماءَ ذاك اللّيل.

ارتفعت السّفينة الأمريكيّة مع الأمواج، ورغم الحمّى الّتي أصابت لين لكنّه أمسك بقضبان السّفينة، بعد أن قام الأطبّاء بتضميده استطاع أن يمشي ببطءٍ إلى سطح السّفينة. ذكّرته غرفة المرضى بالكفن والدواء الّذي أعطوه إيّاه، جعله ذلك يشعر بدوار، ولكن كان عليه أن يرى السّماء ويتنفّس الهواء. أغمض عينيهَ نصف إغماضة ليرى ما تبقّى من المساحة الظاهرة للعين بشكل ظهْر محدّبٍ لتنين مغمور في الهواء الضّبابيّ، لكنّ السّفينة كانت قد بدأت رحلتها مسبقاً إلى الفيليبين. لم يستطع أن يميّز إن كان ما يراه في الأفق ظلُّ شكل الأرض أم أنّه البخار الوهميّ للغيوم.

قالت الأساطير النّسائيّة: إنّه إذا سافر المرء بعيداً عن مسقط رأسه فإنّ روحه ستطير وتعود للوطن وتتركه مجرّد شبح، لكن إذا كان ذلك صحيحاً فإنّ العالم كلّه مليءٌ بالهائمين

بالأطياف الخاوية. شعر أنّ العزلة ستأخذ جزءاً كبيراً من نفْسه كطرف إضافيّ من أطرافه. كان بين الأمريكيّين على متن السّفينَة فيتنامـيّ حتّى بين اللاجئين، ولكن لم يكن بينه وبينهم أي شيء مشترك. معظمهم كانوا سعداء لأنّهم هربوا. بعضهم ضحّى بكلّ شيءٍ ليكون على متن السّفينة بما في ذلك عائلاتهم. لكنّه لم يكن ليأخذ صفّ أحد ضدّ آخر أو يحاكم أحداً، إخلاصه الوحيد كان لهيلين وها هيَ قد هجرته.

مشى إليه شابٌّ صغيرٌ ليصافحه ولكن لم يكن لدى لين أية خلفيّة أو ذكرى عنه من المروحيّة، كان شاباً بوجهٍ طفوليّ رقيق جداً لم تنبت له لحية.

قال الشّاب: «ألا يجب أن تكون في الأسفل؟».

كان يفكّر لساعات متأسّفاً على نفسه أنّ الحرب فاتته وأنّه لن يستطيع أن ينظم قصّةً مثيرةً للاهتمام عن القدر القليل الّذي رآه، وعندما رأى لين برقت عيناه لأنّه الآن من الممكن أن يتغيّر ذلك.

سأله: «هل تعرف أين هيلين؟».

كانت رجلا لين تهتزّان وكانٍ يمسك بقضبان السفينة ليبقى واقفاً.

«لا تقلق فقد أعطيت الحقائب لمحقّق من مكتبك ويتمّ نقلهم الآن أثناءَ حديثنا. ليس لديّ أدنى فكرة مَن هي يا رجل، إنّها أسطورة».

سأله لين بحدّة أكثر مكرّراً سؤاله: «هل هي على متن السّفينة؟». كرّرها مغلقاً عينيه بسبب توتّر وضغط الأفكار على رأسه المشوّش.

«لا إنّها ليست على متن هذه السّفينة على الأقلّ، ألم تبق لتغطّي التّغيير الذي حدث؟».

لم يقل لين شيئاً، فقط اكتفى بالتّحديق إلى سطح الماء الأزرق الكامد. لقد شكّ أنّها ستحاول فعل ذلك لكنّه لم يظنّ أبداً أنّها ستفعلها من دونه.

نظر الشاب إلى لين آملاً بجوابٍ وقال: «لقد وصلت إلى سايغون منذ أسبوعين».

حافظ لين على صمته. لقد شكّ بحبّها عبر السّنوات، إذا كان الحبّ يوجد في وقت الحرب، ولو أصرّت هي على البقاء جزئيّاً كان من الممكن لحبهما الاستمرار فقط في بلده. لكنّه عرف الآن أنّها أحبّته. ومن الواضح أنّها كانت معتمدة كأيّ مدمن على مخدّر الحرب. كما أنه كان قد استخفّ بالضّرر الّذي لَحق بها.

ضحك الصّحافي وتابع: «حتى إنّني استعجلت وغادرت في اليوم الذي تخرّجت فيه لكنّ الحرب الملعونة كلّها فاتتني».

كيف سيستطيع لين العودة إليها؟

«ربّما يمكننا التّحدث لاحقاً عندما تستعيد عافيتك؟ أخبرني، لقد عرفت من أنت فقد عملت مع الجميع».

أشار لين بإيماءةٍ كبيرةٍ وأفلت قضبان السفينة فشعر برجليه تنزلقان من تحته.

أمسك الشّاب به عندما كاد ينزلق تحت القضبان: «انتبه يا سيّد، ستأتي معي الآن إلى قسم المرضى». أمسك الشّاب بذراع لين وأخذه.

قال لين: «أنا بخير». مع أنّه كان من الواضح لكليهما أنّه كان ضعيفاً جدّاً ولا يستطيع الوقوف.

«عذراً ولكنّي مسؤولٌ عنك، لا تقلق عليها فالشّائعة تقول إنّها مسحورةٌ. من المرجّح أن يتمّ طردهم من البلدِ خلال أربعِ

وعشــرين ســاعةً. هي معروفة جداً والشّـيوعيون لا يرغبون بأيّ دعاية سيّئة».

أغَلـق لَين عينيه ورأى حقول نبات الثيوم الأرجوانيّ الضّخم تحرقهـا الشّـمس، وأوراق النّبــات المفردة تنهك نفسـها وتنحني أكثــر وأكثر في ابتهــال. هكذا كان المرء يحافـظ على حياته ومع ذلك فإن هيلين لم تتعَلّم الانحناء يوماً.

«إنّ ما لا يريدونه هو شهودُ عيان عمّا سيحدث بعد ذلك».

(2)
(أنغكور)

يُحكى أنهُ كان هناكَ جنديٌّ يُدعى لين لم يرغب بالعودة إلى الحرب، وقف أمامَ كوخ القشّ الخاصّ بوالديه في الصّباح الباكر، وكان لاَ يزالُ يشعرُ بملَمس شفَتَي زوجته على شفتيه عندمَا اشتمّ نفحةً من رائحة الكبريتَ، رائحة الحربَ، كان من المُفتَرض أنْ يكونَ هذا الجزءُ من (بَيْن دونغَ) آمناً، فَلم يسَمعْ أيّ صوت لإطْلاق النّار، ولكن لم يكن أيُّ مكان آمناً لفترة طويلة في فيتنام.

كانَ صوتُ (مايَ) يرتفعُ مَن داخَل الكوخ مُتحدّياً بأغنية رقيقة رائعة، بينما أوراقُ الأشجار تشقُّ طريقَهَا في الهواء تنشرُ نغماً حزيناً، وكانَ صوتها يزدهر مَع مقدمة الأُغنية الّتي كرّرتْها مرّةً بعد أخرى.

خرجَ رجلٌ من كوخه على الطّرف الآخر من النّهر، وتوقّفَ عندَ سماعه الصّوتَ الّذي كانَ مثلَ قوس ينَزلقُ على آلة نفخ، وهو يتذكّرُ وَجهَ زوجته الحبيبة كبرعم زَهر مغمض منذُ أربعينَ سنةً خلتْ.

«لكي نعبرَ النّهرَ نعتمدُ على الزّورق.

وفي اللّيل نمضي إلى صاحبة المنزَل الشّابة.

وفي الحبِّ نعَاني من القدر.

أما عن القلبَ.. فأنا أعرف أنّ هذه هي قريتُك».

كانتْ الحربُ بمثابة منافس يسرقُ منها زوجَها ويبعده عنها، اقتربت (ماي) من الباب وصار صوتها أكثر وضوحاً، حيثُ إنها كانتْ تُريد إغواءهُ ليعودَ إلى ذراعيها كأنهما يعيدان أيّامَ المدرسة من جديد، فقد استطاعتْ إغراءه بأن يتركَ الحصصَ الدّراسيّة ويذهبا سوياً إلى ضفّة النّهر طوالَ اليوم ليسمعَ أغنياتها. ستنتهي الحربُ قريباً وَسوفَ تكونُ بأمانَ.

ظَهر (كا) أخو لين الأصغر على طرف الكوخ، وقلّدَ غناءَ ماي واضعاً يدَهُ على خدِّه، وقدماه مُلتصقتان ببعضهما بشدّة، محرّكاً فخذه كالمُطربَة الفرنسيّة الّتي سخروا منها في مَدينة (دالات). انفجر لَين وماي ضَاحكَين، كانتْ دموعُ ماي مُؤلمةً جداً فقد منعها لين أن تراه لتودّعَهُ، كان بطنُها منتفخاً بمولودهما الأوّل الّذي كان ولداً كما توقّعَتْهُ القابلةُ بسبب علوّ بطنَها أثناءَ الحمل حتّى وصلَ إلى مستوى قلبها.

فَي اللّيلةَ الفائتة قامتَ العائلةُ بتأدية المسرحيّة الّتي كتبها لين ورقَصَ القرويّونَ على الأرض، وأطلقوا الصيحات وثملوا استحساناً. وحينها أحسَّ لينَ بوخز من المُتعة في يديه ووجهه لمُجرّد فكرة نجاحه، لكنَّ ماي لم تَدعْهُ يستَمتعُ بدقيَقة منَها، فصَخَبُ الجمَهور طالباً غناءها السّولو مرّةً أخرى قدَ شجّعها، وأرادت المُغادرة إَلى سايغون في اليوم نفسه.

«كيف سأستطيعُ المغادرة، أهرباً؟ إنّهم يُطلقونَ النّارَ على الهاربيْنَ. إنّهم يطلقون النّارَ على الجنود أيضاً».

أمَسكتْ ماي بطنَها واضعةً يديهَا على جانبيه وأخذتْ أنفاساً عميقةً مُغمضةً عينيها وتلك العادةُ الجديدةُ لدَيها هي الّتي أفقدتْهُ أعصابَهُ.

«ليس لديهم وقتٌ للجنود المساكين مثلك، ففي سايغون سيكونُ لنا أسماءٌ وهميّةٌ بعد ولادة الطّفل وسأحصلُ على عملٍ كمغنّية».

لمَ يعرفْ لين ماذا عليه أنْ يفعلَ، أراد أنْ يكونَ رجلاً بسيطاً فقط، لكنّ القدرَ كان يُثقلُ كاهليه. قوّى نفسَهُ بفكرة أنّهُ ذاهبٌ ليقاتلَ حتّى لا يكونَ هناك حربٌ في مستقبل ولده. لم تفهم ماي أنّ عائلات الهاربينَ كانت تُعاني أيضاً، ولم يخبرْها هو أنَّ أختَها (ثاو) كانتْ قد سبقتها في طريقها إلى سايغون، مع أنَّ صوتَها كانَ أكثرَ خشونةً بعدة درجات من صوت ماي. لو علمَتْ ذلك الآن لانفجرت الأرضُ مفتوحةً بعويلها، ولين لا يتمكّن من التّعامُل مع النّساء الآن.

هكذا يتكشّف التّاريخ، كان الشكُّ مختلطاً باليقين ولم يعلم أحدٌ أيَّ قرار كان القرارَ الصحيح.

تفقّد الهواء مرةً أخرى ليميّزَ آثار رائحة السّلاح الكريهة، لكنّ الرّائحة كانت قد ذهبت، هل كان الأمر حقيقيّاً أم كان في مخيّلته فقط؟

في سنّ الخامسة والعشرين. كان قد مضى على وجود لين في الجيش أربعُ سنوات. كان قد انضمّ إلى الجيش الشّمالي وهرب إلى الجنوب فقطَ ليكونَ مجنّداً إلزاميّاً من قبل جيش فيتنام الشّعبيّ، كان جنديّاً باهتاً مُتخماً من الحرب حتّى السّأم، لكنّ أيّ شخص آخر لديه قدرةٌ جسديّةٌ لم يكن لديه أيُّ خيار آخر ليبقى حيّاً، فثيابُ الشّاعر الفضفاضة ناسبتهُ أكثر من بزّةِ الجندي الضّيّقة.

كان عليه أن يكون مغنّياً برأي ماي، يغنّي في الصّباح ليجعلَ النّساء يغمى عليهنّ. لم تعرف كيف غيّرته سنواتُه في الجنديّة،

والعرجة الطّفيفة في قدمه الّتي تظهر عندما يكون مُتعباً والّتي حدثت له من جرّاء شظيّة أصابتـه، والنّظرة في عينيه الممتلئة بعـدم يقـين جديد. كان كرجل بلسـانٍ ذهبيّ طُلب منـهُ فجأةً أن يؤدّي عملاً بلغة غَير معروفة.

كان والـده عالماً؛ بروفيسَـوراً يدرّس الأدب في هانوي، وكان قد أظهر لين في شبابه شغفاً بكتابة الشّعر وتأدية المسرحيّات، لكنّ الحرب دمرت كلّ شيء في النّفوس، وكلُّ شاب كان مجبراً أن يكـون مـع فريـق ضـدَّ الآخـر، إمّـا الجيـش الشّـماليّ أو الجيش الجنوبيّ. وفي بعض الأحيان خلالَ السّنوات الماضية كان ينتهـي الأمـرُ بالبعـض محارباً لكلا الطّرفـين في أوقات مختلفـة، مفارقـةٌ اكتشـفها لاحقاً ولَـم يسـتطع الأمريكانُ قبولها.

كان مجروحـاً في القدم وفي ذلك الوقت بدّل سـلاحَه - وهو سـعيدٌ – بعمـل إداريٍّ يخـصُّ الجيـش وقريـب مـن عائلته. كان ضغـط العمل خفيفـاً ولم يتراكـم عليه العملَ قـط، وبعد فترة قليلة لم يكن في الأمر أيّ عناء بالنّسبة له فعاد إلى المسرح. كان شـاباً رومانسـيّاً حالماً دائماً بأحلام اليقظـة، وكان يأمل بأنَ يتمّ غضّ النّظر عنه وإهماله ونسيانه.

كان هـو ومـاي قـد خططـا للهـروب مـن سـايغون، لكنّـه لم يستطع أن يخبرها أنّ الأمر قد تأجّل بسبب خوفه. نفدت أموال الرّشـوة الّتي كان والده قد كسـبها بعد سـنة، وأعلمته عائلته أنّه حان وقت حمل السّلاح مرة أخرى.

وقـف لين أمام المرآة ببزّته العسـكريّة وهـو يمثّل دور الجنديّ رافعـاً ذقنـه، أراد أن يبدو شـجاعاً ولكنّه بدا متوتّـراً أكثر من أيّ شيءٍ آخـر.

كانت مخاوف ماي صحيحةً جزئيّاً، ففي آخر مرّة غادر فيها لم يكن قد رأى عائلته أو عروسه الجديدة لمدّة سنتين، وعندما غادر الآن لم يكن معروفاً متى سيرونه هم مرّةً ثانيةً، حمل حقيبة كعك الأرزّ الّتي أعطته إيّاها ماي، مع تعليماتها له بأن يعود قبل أن يأكل كلّ ما في الحقيبة.

كان الأمريكان قد بدؤوا بالخروج كمستشارين مع جيش فيتنام الشّعبيّ في مهمّات خارجيّة، كانوا كالعملاق الّذي يفوق لين وباقي الجنود عندما يعطونهم العلكة والسّجائر. تعلّم لين أن يميّز الأمريكان لأنّهم كانوا يبتسمون أكثر من الفرنسيّين بأسنانهم التّامة المستقيمة ناصعة البياض، كانوا متهوّرين دائماً، أمّا لين فقد حكم أنّ هؤلاء الأجانب كانوا وجوهاً مُحَسَّنة من أسيادهم القُدامى.

وقف المستشارون بأرجلهم المتباعدة المغروسة في أحذية كبيرة وأيديهم على أفخاذهم يومئون برؤوسهم ويتَباحثون معَ قائد لين المدعوّ (دونغ) والّذي كان الجميع يدركون أنّه أحمق. كان يرتدي شالاً أبيضَ حريريّاً طويلاً حول رقبته كما في الأفلام الأمريكيّة القديمة، وكان جل اهتمامه منصبّاً على الحفاظ على نظافته، كانت فُكُوك الأمريكان تصطكُّ مع مضغ التّبغ، وقد وقفوا فوق الأجساد مبتورة الأرجل من جماعة (الفييت كونغ) بأجسادهم الرّماديّة الصّغيرة الخالية من الحياة كطيور النّهر، سراويلاتهم القصيرة الممزّقة بالكاد تغطّي أفخاذهم، هل غاب عن انتباه الجميع أنّ فيتناميّي الجنوب كانوا يشبهون أعداءهم أكثر ممّا كانوا يشبهون حلفاءهم؟

بعد كلّ هذه السّنوات الطّويلة الّتي قضاها في الحرب ما يزال لين لا يحتمل منظر الموتى، فكان يسرع بعيداً ليتأكّد من كفاية الذّخائر.

كان (سام دارو) أوّل أمريكيّ التقى به لين، وكان رجلاً طويلاً شبيهاً بطائر، ولم يكن كثير الابتسام كباقي الأمريكان، مع أنّ دارو انحنى لكنّه كان يبدو أطول من باقي الأمريكان، كان نحيلاً ولديه أطرافٌ حادّةٌ تبرز من بين أكمامه المرفوعة، كان الجلد ممتداً امتداداً على مساحة كبيرة عند معصمه العظميّ، وكانت نظّارته سميكة الإطارات تغطي جزءاً من وجهه ورأسه الّذي يتحرّك من جهة إلى أخرى كرأس طائر.

حدّق لين بالاسم (دارو) وباسم آخر يدّعى (لايف) مخطوطين على سترته، تعلّقت في رقبته كاميرتان كان لين يحلم بامتلاك واحدة مثلهما، كان الرباط الأول مطرّزاً بالهامونغ والآخر كان رباطاً جلديّاً بسيطاً. ناداه أحدُ المستشارين قائلاً: «تعال خذ لنا بعض اللقطات».

تحققّ دونغ من شعره في مرآة ذهبيّة صغيرة سحبها من جيبه، جمّل نفسه وهو يقترب من دارو وقال: «لا أعتقد أنّ..»، فقال المُستشار: «لا تشغل بالك بالاعتقادات. صوّر فقط، هل فهمت؟».

نزع دارو غطاء الكاميرا وتحقق من الأفلام بحذر وبنقرة محسوسة بالكاد بإصبعه قام بكشف فتحة الكاميرا كلّها حتّى يظهر الفيلم كلّياً في الضوء ويحترق، وفي الدّقائق العشر الأخيرة كاد لين أن يختنق عندما أدرك أن لا أحد كان لديه أية فكرة عمّا فعله، وعندما رأى دارو يلتقط صوراً لدونغ في كلّ أنحاء المخيّم حتّى إنّه وصل الأمر به إلى تصويره فوق أجساد الجثث، «يكفيك ذلك» قال له معيداً الفيلم للخلف ومعيداً غطاء الكاميرا إلى مكانه ومبتسماً في النّهاية.

قال لين: «هل تدريب أمريكا الناس للحرب أفضل من تدريبهم على التقاط الصّور؟».

ابتسم دارو وقال: «شاب ذكيّ».

«أنا لين، تران باو لين».

«أنت ماكرٌ يا لين، ما رأيك أن أطلب من دونغ أن يعيّنك لمساعدتي اليوم، وتحافظ على سرّنا؟».

قررّت الشّركة أن تقيم مخيّمها تلك اللّيلة على نيّة التّحرك صباحاً إلى مسافة ساعة من قرية لين، ولم يكونوا قد خلدوا إلى النّوم عندما انفجرتَ القنابل الأولى قريباً منهم. استخدم المستشارون الجدد أجهزة اللاسلكي الخاصّة بهم ليبلغوا عن قنابل تنفجر من حولهم، لم يكن لين سيتحدّث عن الأحداث في تلك اللّيلة، قبعت الذّكرى عميقاً في داخله وبقيت صامتةً.

هكذا ينتهي العالم بلحظةٍ واحدةٍ ويبدأ مرّةً أخرى في اللّحظة الّتي تليها.

الطّريقة الوحيدة الّتي عرفها لين عن كيفية قطع الطّريق من الحياة السّابقة إلى الحياة الّتي تليها هي أن يأخذ خطوةً ثمّ خطوةً ثمّ خطوةً تليها.

والآن عندما لم يبق شيءٌ ليحفظه هاجر وترك كلّ شيء، ولم يهتمّ أكثر بما فعلوه به، وتابع على الطّريق السّريع جنوباً غير مرتبط بالخمسة والعشرين عاماً من عمره، كان وحيداً بشكل تامّ، كَان كلّ يوم يأكلُ واحدةً من كعكات الأرزّ الّتي صنعتها ماي حتّى بدأت مُؤنَه تتقلّص، ثمّ قسّمها إلى أنصاف، وبينما كبر العدد الّذي لا يزال صغيراً قسّمها إلى أرباع وأثمان حتّى وصل إلى أكل حبيبات صغيرة من كعكات ماي يَومياً، طَعامها الّذي كان له طعمها هي فقط، وليس طعم أيّ أحد آخر، حتّى انتهى أخيراً الطّعام كلّه.

كان يتجوّل في الشّوارع خلال أشهره الأولى في سايغون، ويعمل نادلاً في مطعم وصاقلاً للأحذية، وسائقَ سيكلو. لم يكن لديه عائلةٌ أو أيّة حمولة تثقل على حياته، كلّ شيء كان قد تم دفنه. وفي اللّيل كان يشعر أن لا قيمة له لدرجة أنّه كان يتلمّس نفسه من الجانبين ليتأكّد أنّه لم يطر في الهواء بعيداً كقشّة.

دخلت إلى نفسه روائحُ المدينة وأصواتها وطعمها لكنّها لم تصبح جزءاً منه. فكرته الوحيدة كانت أن يكسب ما يكفيه، ما يطعمه ويُؤويه لا أكثر. دخل بمحض المصادفة في دوّامة حرب، ومجرّد تفكيره بالماضي أو المستقبل كان يتسبّب في ضياعَ نفسه.

في فراغه هذا أمسك بحبل نجاة واحد ألا وهو حضور دروس اللغة الإنجليزيّة عصر كلّ ثلاثاء وخميس على شرفة جيرانه، ومَع أنّه كان نوعاً ما أكثر سلاسةً وفصاحةً من جاره، لكنّه كان يحضر تلك الدّروس، لأنّها كانت تشعره بأنّه لا يزال ولداً، وكان له هدف جَدّيّ أيضاً من تلك الدّروس والّذي حثّه عليه والده المحترف للّغتين هما الفرنسيّة والإنجليزيّة لأنه كان يقول لأولاده إنّه إذا أردتُ أن تهزم أعداءك فعليك أن تتعلّم كيف تتحدّث لغتّهم.

احتاجت المعلّمة كميّةً قليلةً من المال لتُعيل نفسها وأبويها، كانت شابّةً جميلةً وكان شكلُ وجهها يذكّره بماي، والسّاعات الّتي أمضاها وهو ينظر إليها كانت مثل البلسم، وكان يتأكّد من ألا يدع إنجليزيّته تفوق إنجليزيّتها، كانت أخطاؤها تسحره فبدل أن تقول: «لا تفعل» كانت تقول: «لا تشارك»، فمثلاً جملة «لا تذهب إلى الشّارع». أصبحت «لا تشارك في الشّارع». أراد ألا يستيقظ وهو يحلم بماي.

كان يستمع إلى معلّمته ذات الوجه الجميل في تلك الأشهر الفظيعة وهي تصرّف الأفعال (أنا أكون، أنت تكون، هو يكون). وخطّته كانت أن يعاود الانضمام إلى وحدته في الجيش ويتطوّع للمشاركة في أكثر المهام خطورةً فربّما يُقدَّر له أن يُقتلَ خلال أشهر إن لم يكن أسابيع.

نحن مسالمون وهم الأعداء، نحن نقتل وهم يموتون موتاً مشرّفاً وجديراً. لكن مع أنّه لم يعد خائفاً لكنّه لم يذهب.

في أحد الأيّام حين كانت السماءُ صافيةً، وكان الجوّ لا بارداً ولا حارّاً، في ذلك اليوم وهم على الدرج ابتسمت له المعلّمةُ ذات الوجه الجميل، كان لين يمرّ بجانب مكتب خدمات إخباريّ أمريكيّ عندما ثبَت في النّقطة الّتي وقف فيها حيث تعرف على اسم لايف مكتوباً بخطّ اليد على ورقة وملصقاً على النّافذة، كان فَألاً يذكّره باليوم الّذي انتهت فيهَ حياته الطّبيعيّة.

فكّر بينه وبين نفسه، أوّلاً «لا تشارك»، ولكنّه عدّ الأمر إشارةً ومشى إلى الدّاخل، حيث وجد رجلاً أمريكيّاً ضخماً منكبّاً على مكتبه ووجهه يشعّ بالعرق وهو ينظر إلى حفنة أوراق.

قال لين: «هل لديك عملٌ؟ أنا صديقٌ جيّدٌ للسيّدَ دارو».

بدا غاري مديرَ المكتب وكان الحرّ يغليه من الدّاخل إلى الخارج وكرشه مضغوطٌ بحزامه، نظر إلى لين وابتسم له ابتسامةً عريضةً برزت فيها أسنانه وقال: «لم أكن أعلم أنّ لدارو أيّ أصدقاء». ثمّ فكّر أنّه في الوقت المناسب يحدث دوماً شيءٌ غير متوقّع. وبعد ذلك تمّ توظيف لين خلال الدقائق العشر التّالية. وفي عصر ذلك اليوم كانوا على متن طائرةِ حمولة متّجهةٍ إلى كمبوديا.

كان غـاري يُفـرغ طاقتـه النـاريّـة في علكة يمضغها، ويمسـح العرق الّذي يتصبّبُ منه بمنديل كبير رطب.

«هذا جيّدٌ يا رجل. كيف عثرتَ علينا؟ هذا المكتب مكانٌ مؤقّتٌ، إنّ الأمر كالقدر، لولا وجودُك لكنتُ أنا بنفسي أجرّ أغراضه».

ظنّ غاري أنّ صمت الفيتنامىّ الشّابّ يخفي وراءه شيئاً غير سـار وأنّه عليه أن يتعامل مع هذا الأمر لاحقاً كسـجلّ إجراميّ، لسـوء الحظّ أنّه لم يسـتطع أن يقلق على هـذا الأمر الآن، فقد كان لديه مساعد جديدٌ.

لم يقل لين شـيئاً، نظر من باب طائرة الحمولة إلى الأدغال المندفعة تحتهم دون أن يبدي أيّة إشـارة، إنّ معدته كانت مقلوبةً وإنّها المرّة الأولى الّتي يستقلّ فيها الطّائرة.

انطلقوا على الطّريق الفارغة الّتي تمتدُّ كشراع أحمرَ شفّاف خلفهم وهم متدلّون في السّماء النّحاسيّة.

قال غاري موافقاً على الصّمت المسـتمرّ: «أنت بالتّأكيد على حقّ، اسـتمتع بالرحلة، على أيّ حال النّاس يثرثرون كثيراً». إنه رجـل لم يكن يسـمح لذاته بالوقوفَ في وجه عمله، لم يتسـاءل النّاس عنه كأنّه تصرّف كراعي بقر وهذا ما فعله بالضّبط، كيف كان يمكن له أن يؤدّي عمله وفريقَ العمل يعرف أنّه يتصببُ عرقاً فـي كلّ مهمّـة كأنّه كان يرسـل أولاده إليهـا؟ ودون أن ينزعج من صمت لين غيّر ظنّه به أن يكون مجرماً، لربّما كان أسوأ.

كان البلد الملعون كلّه مصاباً بارتجاج في الدّماغ على حسـب علمه، على الأقلّ كان قد ضمن لنفسـه عَدّة أسـابيع من السّـلام بعيداً عن صورة مغنّية الأوبّرا الرّئيسة.

فـي الوقـت الّـذي وصلت فيـه سـيّارة الجـيب إلـى مدينـة إنغكـور كانـت الشّـمـس تنبض كطبـل قويٍّ بعـد ظهر ذلك

اليــــوم. كان القرويّــون يحاولــون فــكّ حزمــة كثيفة مــن أربطة معــدّات ملتفّــة فــوق الوحــل، أوراق قصديــر كثيرةٌ مبعثــرةٌ على الأرض تزيــد من حرارة الهواء الحارّ مســبقاً إلــى حدّ الاحتراق، وثلاثيّــات قوائــم الكاميــرات منتشــرةٌ كطيــور أرجلهــا طويلــةٌ ومتباعدة والأفلامُ تملأ المبرّدات، وفي منتصف كُلّ ذلك كان ســام دارو واقفاً كالمايسترو الّذي يدير تلك الفوضى.

أعطــى غاري زجاجة كوكا كولا فاترة للين ونســيه فجأة تاركاً إيّــاه واقفاً بــين مجموعة من العمّال الكمبوديــيّن. تذمّر أحدهم وهــو (ســامانغ) بأنّ الكولا تُــزال من المبرّدات ليتــمّ وضع الأفلام مكانها، فربّت على كتفه أخوه (فيســنا) باســتخدام إحدى أرجل ثلاثــيّ القوائم وقال: «أنت دائماً متذمّرٌ ولكن ليس عندما يكون هناك بقشيشٌ».

جلــس لــين في الظلّ وهو يشــاهد دارو ينظر خــلال كاميرته الموضوعــة علــى ثلاثــيّ القوائــم بعنايــة ويبتعــد قليــلاً ليُجري تعديــلاً وينظــر من خــلال العدســة الإضافيّــة مرةً أخــرى، وفي النّهايــة ضغط الكابل لتحريره وفتح مصــراع الكاميرا ليلتقط صــورة واجهة بعد أخرى للنّحت الغائر على جرف الصّخور الّتي ألقــت ظلاً علَيه، وكانت النّكتة الّتي ســرت بــين العمّال هي (لماذا يلتقــط الكثير من الصّور لصخرة لم تتحرّك بوصة واحدة منذ آلاف السّنين؟). أدرك لين أن هذا العَمل قد يستغرق ساعة وأكثر، وربمــا لا ينتهــي أبداً حيث إنــه كان يجري تعديــلات دقيقة على إطار الصورة بصبر لا ينفد، بينما كان هناك ثلاثة رجال يرفعون حامل الضوء العاكس ويبدلون زاويته بوصة بوصة في كل مرة.

خلال فترة الاســتراحة، انطوى العمّال جالســين تحت الظّلّ وكان ســامانغ ينشــر النّميمــة بــين زملائــه العمّــال بــأنّ الغربيّ

سيقتلهم بالعمل في ذاك اليوم الحارّ، أطلق دارو قهقهةً عاليةً وبخطواته الواسعة مشى ليحيّي القادمين الجدد. كان أطول ممّا يتذكّره لين وأكثر نحولاً منه، كأنّ قوامه قد ضَعُفَ وهزل خلال الأشهر الّتي مضت، أم أن سوء حظ لين هو السبب في هزاله؟ مما جعله أصغر حجماً في هذا العالم؟ لقد تعرف توّاً على المعصمين العظميين الكبيرين للأمريكي.

وفي الصباح الباكر كان في مكتبه يدقّ عليه فرحاً عندما أخبره لين أنّه كان يعمل مع دارو، كلّ من كان يعرفه يتفادى العمل مع ذاك المصوّر النّجم، وكان غاري على وشك إغلاق مكتبه والذّهاب مع دارو ليحمل معدّاته عندما ظهر له لين في الوقت المناسب، هو لن يتفحّص تلك الموهبة عن قرب كثيراً، فمعاونو دارو السّابقون استقالوا؛ لأنّه كان يكلّفهمَ تغطية أصعب النّزاعات وحمل الكثير من المعدّات والعمل لساعات لا تنتهي.

«أنتَ أحمر كسرطان البحر!» قال دارو.

«هذا المناخ يقتلني. انظر ماذا وجدت!».

استخدمَ غاري يديه للتّباهي وكأنّه استخرج لين من الدّخان محاولاً تغطية شعوذته وتابع قائلاً: «إنّه نجيون بران لين، أليس ذلك جيّداً أم ماذا؟».

«بالتّأكيد». ابتسم دارو وقدّم للين سيجارةً وقطعةً من العلكة.

كان ذلك هو أساس الفارق البسيط. فمن الوقاحة المتناهية الإجابة عن ذاك السّؤال الصّريح: «إن كانا قد التقيا من قبل فعلاً أم لا؟». قام دارو بغمس منديله في ماء المبرّد ليمسح وجهه وهو راض بالانتظار، كان عصر ذاك اليوم هادئاً ومسالماً ولكنّه شعر بثقَلٍ أسود على كتفيه لدى سماعه صوت سيّارة الجيب

الخـاصّ بغـاري، حرّك رأسـه من جهـة إلى أخرى قليـلاً محاولاً تحديد مكان لين: «كيف حالُك يا صديقي القديم؟».

«لـمَ لا تقـوم بعمل أغطيـة من القصدير لـكلّ جهة بدلاً من الإضاءة من الأسـفل فقط؟». أخذ لين السّـيجارة وهَمّ بإشعالها بسرعة حتّى لا يلاحظ احدٌ ارتعاش أصابعه.

ضحَك دارو ضحكةً كبيـرةً وقال: «إنّه بالطّبع خبيري التّقنيّ من (بين دونغ)».

ابتسم لين لكنّه لم يتفوه بكلمة.

«أتعرفان بعضكما حقّاً؟» سأل غاري.

«ولمَ تُحضر شخصاً لا أعرفه انا حقّاً؟» قال دارو.

تنقّـل غـاري بنظره بـين الرّجلين، «أنت شـابٌّ مُضحكٌ وهذا مـا أحبّـه فيـك، إنّه ذاهـبٌ معك إلـى الدّلتا ومقاطعة كوتشـي. هناك الكثيرُ من الأشياء الجيّدة الّتي تصلح موادّ للتّغطية، إنها (كونغـو) أخـرى، كيف يمكـن لأحدنا أن يكون لديـه هذا الحظّ؟ اضرب، اضرب».

«فهمت». كان هنالك مزيجٌ من المشاعر من غضب وتعب وأشياء أخرى، وشـعورٌ غريبٌ ورقيقٌ بـأنّ دارو كان مَهيباً، هَل أحسّ غاري أنّه كان يختبئ؟ محاولاً أن ينسى هنري؟ أم أنّه كان ينتظر شيئاً ما؟ إنّ هذا ما كان إلا إشـارةً إلى أنّ الأمور كانت آمنةً من جديد.

لـم يخاطـر غـاري بأخذ حمولـة العمل إلـى كوتشـينغ ليعرّض نفسـه لخطر التّفجير؟ وبدلاً من ذلك قام بتكليف شخص آخر مـن سـكّان البلد مع أنّه لا تجربةً لديه ليكـون معاونه، كانَ عمل دارو مع الوجوه واكتشـافها ومع ذلك لم يتمكّن من التّعرّف إلى لين بسـهولة فقد تغيّر بشـكلٍ متطرّفٍ كما لـو أنه قد تمّ إغراقه في الجحيم.

«كم تظنّ أنّك تحتاج وقتاً أكثر؟» سأله غاري وهو يمشي إلى سيّارة الجيب الخاصّة به.

«حتّى أحصل على الصّورة». أجاب غاري ممازحاً ومداعباً إيّاه من ذقنه مُمتعضاً من الضّغط عليه دون إنصاف. مع هذا كلّه لم تكن أزمة الأعصاب ذنبه، فقد قام هنري بتحطيم الوهم الذي يشعرهم بأنّهم مسحورون لأنّهم كانوا يحملون الكاميرات بدلاً من الأسلحة، سيمر هذا كله، فقد مرّ دارو به من قبل، كان الأمر يعتمد على انتظار مروره، إن ما نال منه هو تراكم الموت والرّعب والغضب وليس شيئاً آخر، كانت لعنةُ اللّعنات الّتي حلّت عليه أنّه كان جيّداً في الحرب وأنّه أحبّ متطلبات عمله، والّذي كان مُرعباً أكثر انّه أصبح لديه شهيّةٌ للحرب كرجل يتضوّر جوعاً وهو ينظرُ إلى طاولة ممتلئة بالطّعام رافضاً أن يأكل على أساس أخلاقيّ، فالشّهوة ستَريح فيَ النهاية، ورئيسه الحاذق في العمل كان يعتمد على ذلك.

وقف غاري أمام سيّارة الجيب، وبإشارة دالّة على التبجّح قام بضرب يده بعنف على صندوق السّيارة، وبالكاد استطاع منع نفسه من الجفول والصّراخ من الألم.

«إنّ الأمر يوشك على النّهاية الآن يا رجل، ويجب أن تكون أنت الرابح، وأكوام الصّخور القديمة هذه لن تتحرك إلى أيّ مكان بعد نهاية الحرب».

هزّ دارو رأسه وقال: «هل تعلم أنّ الفرنسيّين الّذين اكتشفوا إنغكور سألوا الفلاحين كيف نشأت المدينة؟ فأجابوا: (لقد نشأت هنا فقط)». واتضحت الصورة له أكثر فأكثر بإمكانيّة المكوث والبقاء هناك حتى تنتهي الحرب.

مسحَ غاري وجهه وهزّ رأسه وقال: «هذا جنونٌ تامٌّ».

«لا يمكن أن تعرف بشكلٍ مؤكّد».

«كيف ذلك؟ من يهتمّ بأمر هذا السّائح السّخيف؟ فقط أسرع بالعودة إلى الوطن، حسناً؟ وخفّف عن الشّاب الجديد، فحدسي يُخبرُني أنّه خدعني ليحصل على العمل، ولنقل إنّه فعل ذلك فليس هناك طابور طويلٌ بانتظار هذا العمل». ربّت غاري على كتف السّائق ليدير المحرّك.

«هل أنت متأكّدٌ أنّك لا تريد قضاء اللّيل هنا؟ ألا تبقى ليومين آخرين؟». في الحقيقة إنّه أحبّ قسوة غاري، وسيفعل أيّ شيءٍ للحصول على الصّور؛ لأنّها كانت تلك طريقة دارو المعتادة، وهو لم يُرد أن يبقى وحيداً لليلةٍ أخرى، ولم يكن لديه ثقةٌ كبيرةٌ بلين كَنديم للشّرب.

أجاب سَاخراً: «نعم، هذا صحيحٌ فهذا ما أريده، المكوث في هذا المكان المهجور (إنغكور)، ماذا؟».

«ستصيبك اللعنة بسبب ذلك».

«أضف هذا إلى القائمة يا عزيزي، لا يهمّني جودة ما تدخّنه فقط. أعدني إلى سايغون حيث مكيّفات الهواء ومكعبات الثّلج، القيادة العامّة تؤنّبني على توظيف النّساء، أتعتقد أنّ لديك مشكلات؟».

«أنا مجروحٌ، ظننت أنّك تريد أن ترى عبقريّاً يقوم بعمله».

ضرب دارو بيده على غطاء محرّك سيّارة الجيب.

«لن تتأخر لأسبوع؟ صحيحٌ؟».

«أسرع يا غاري اذهب من هنا قبل أن تغيب الشّمس وتظهر الوحوش».

وبعد مغادرة سيّارة الجيب عاد الصّمت ليستقرّ في المكان كالغبار، لكنّ ما كان سيّئاً في الأمر هو الثّقل الأسود الّذي أثقل على كتفي دارو ومصائب الحرب قد وصلت.

كان علـى دارو أن يقيّـد نفسـه بإحدى تلـك الصّخور ليبقي نفسـه هنـاك، وذلـك لكي يتفـادى اتّصـال دارو الشّـبيه بصفّارة الإنـذار. ابتسـم إلى لين الّـذي كان واقفاً في الظّلّ ولم يسـتطع أن يميّـز تعابير وجهه بسـبب قـوّة الضّوء في عينيـه، ففي اليوم الّـذي التقيا فيـه كان دارو بالفعل منغمسـاً فـي الجحيم، ودارو كان مكلّفاً تغطية عمليّات المستشـارين الأمريكيّين الّذين سـاروا مـع جيش فيتنـام الجنوبيّ في مهمّة بحث أساسـيّة، عندما كان يتمّ إطلاق النّار عليهم كان المستشارون يستدعون القوّة الجويّة، لكنّ قصفها كان يسقط عليهم وعلى المدنيّين أيضاً، كان الخراب مجّانيّاً للجميع.

ذُعـر جيـشُ فيتنام الجنوبيّ وبـدأ بإطلاق النـار على الّذين كانوا معه، وعلى المدنييّن الّذين انسـحبوا على الأرجح منذ مدّة، بـدلاً من إطـلاق النار على الأعـداء. وعندما تجمّعـوا في اليوم التّالي قام الرّجل بتعيين معاونه على أنّه الغائب الّذي لا يحمل إذنـاً بالتغيب، فلم يكـن بالإمكان العثور عليه فـي أيّ مكان، بدا أنّـه جنـديّ غير متحمّس، فلربّما كان قد اسـتغلّ الفوضى كعذر للتّسرب والهروب.

عظيمٌ، ضحك دارو ضحكةً عاليةً، فأخيراً حصل على المعاون الّذي يستحقّه.

فـي الأسـبوع التّالي عاش لين مع دارو فـي الأدغال جنباً إلى جنـب، كانـا يسـتيقظان عنـد الفجر ويتنـاولان إفطاراً بسـيطاً مؤلّفاً من الأرز والسّمك والخضار والقهوة العربيّة الغامقة الّتي أدمنها دارو في الشّـرق الأوسـط مصـرّاً على تخميرها بنفسـه. عملـوا جميعـاً خلال اليوم عمـلاً جماعيّاً مؤلّفاً من اثني عشـر عنصـراً بما في ذلـك الأخوان اللذان كانـا مفضّلين عنده، حيث

كان يأخـذ مئات اللقطات مُمضياً سـاعات عـدة ليضيء مادّةً ما، وأحياناً إلى درجة إرسـال (فيسـنا) ليتسلّق شـجرةً ويزيلُ غصناً أخضرَ كان يحجب الشّمس.

في أحد الأيّام أمضى فيسـنا خمس ساعات وهو يقلّم شجرةً ورقـةً ورقـةً، وعندما نزل كان مصاباً بالجفـافَ فقام لين بتقديم الماء له كأسـاً بعد أخرى، بينما أسـرع دارو لالتقاط ضوء العصر المتأخّر بشكل صحيح.

حسـب دارو أنّـه عَلـى ذلك المعـدّل بإمكانه قضـاء حياته في الطّبيعَـة وتصويـر الأراضي وليس مضطـرّاً لرؤية جنـديٍّ ميّت آخـر، مـع ذلك كانوا يسـمعون الرّعد ليلاً عنـد الأفق، كان نبضَ الحرب هو الّذي يُغريهم.

تشـارك الرّجلان بغرفة صغيرة كصومعة راهب وكانت تُضيّق عليهم المساحةَ كثرةُ معدّاتَ التّصويَر الّتي أصرّ دارو على إبقائها نظيفـةً ونقلهـا إلى الغرفةَ كلّ ليلة حتّى لا تتمّ سـرقة أيٍّ منها. اعتاد فيسنا على البقاء صاحياً ليسَاعد في التّنظيف بينما كان سامانغ يعود إلى البلدة لمطاردة النّساء.

«إذاً يا زعيم، هل قمنا بعمل جيّد؟» قال فيسنا.

«سأثني عليك في سايغون بالتّأكيد» قال دارو.

«لا ليس في سايغون فأنا رقمُ واحد في كمبوديا».

«لكن لا يوجد شيءٌ هنا، لا حرب».

«المنافسة أقلُّ إذاً».

عندمـا كان دارو يتعثّـر بلـين فـي إحدى الزّوايـا البعيدة عن الطّريق وهو يكتب على قصاصات أوراق كان يبعدها عندما يقترب أحدٌ منه، التقط منه لمحات كلمات وفَاجأه أنّها بالإنجليزيّة. كان صديقـه الّذي يغيب بـلا عذرٍ لغزاً لا ينتهي. وكانـت اللّيالي في

المدينــة الحجريّة عندما يعود العمّال إلى القرية تبدو مســكونةً فــي نظــر لين. كان دارو يتابع عمله غيــرَ واعٍ بالبيئة الّتي تحيط بــه، فالهوَس بعملــه أبقاه بعيداً عن إغراء الهــوَس بالحرب، لكنّ لين كان يشعر بعدم الرّاحة في ذاك القبر الضّخم، كان المكان في ســكون اللّيل مليئاً بالظّلال المنزلقة، كان هو وســامانغ وفيســنا يتناولــون وجباتهــم فــي القريــة، وفيســنا يتحدّث عــن الكيفية التــي دمّرت بها العائلةُ المالكة الحياةَ الكمبوديّة التّقليديّة، وعن حاجتهــم للعودة إلــى جذور القريــة والحياة العائليّة المُشــتركة، قــال: «إنّ ســامانغ أصبــح فاســداً بإمضائــه الوقــت فــي (بنــوم بنه)». كان لين يبقى ليشــرب الشّــاي ويتحــدّث إلى الآخرين من فيتناميّين وكمبوديّين عن المشــروع، كثيــرون تحدّثوا عن عائلات مفككّــة وصعوبات، وعن الهروب من الحدود لتجنّب التّجنيد في الجيش.

عــاد لــين باكراً في اللّيلة الأولى ورأى امــرأةً من القرية تغادر غرفــة دارو، أضاء نور المصباح جســدَها وهي واقفــةٌ خارج الغرفة ممتلئةً ومستديرةً مثل (أبساراس) ربة الغيم والماء المنحوتة على جــدران المعابــد، أتــى دارو إلى بــاب الغرفة وســحب الملابس الّتي كانت تغطّي ردفيها وأعادها مترنّحة إلى الغرفة وبعد ذلك تعمّد لين ألا يعود حتّى منتصف اللّيل.

«أين تأخّرت حتّى الآن؟» سأل دارو عندما دخل لين.

لم يُحب لين خبث ذلك الرّجل.

«هل وجدّت حبيبةً؟».

«أنا متزوّجٌ».

«آســفٌ بالطّبع لا، ابقَ للغداء معي. أحياناً أحبّ الحديث وأنا عادةً أطبخ».

هزّ دارو رأسه وقال: «ألديك أصدقاء؟».

ابتسم دارو «رائعةٌ، أليس كذلك؟ يا إلهي كأنّها وهي عاريةٌ نسخةٌ من ذاك التّمثال القديم وقد عادت إلى الحياة، كأنّ الوقت لم يمرّ منذ بناء هذا المكان».

بعد ظهر أحد الأيّام حيث كان الهواء ثقيلاً كالحجر، وقف لين على إحدى الشّرفات وحيداً بعيداً عن المكان الّذي يعمَل فيه البقيّة. كانوا قد استيقظوا قبل الشّمس ليلتقطوا صورة الضّوء على الأبنية عند بزوغ الفجر.

كانت عيناه مثقلتين بالنّعاس، ويرتدّ إلى مسامعه فقط صوتُ السّكون الّذي تكسّره أحياناً الصّرخات العالية الحادّة للقردة الّتي كانت تتراكض على الصّخور الدّافئة بحثاً عن الفاكهة، كان الجميع يخافون القردةَ لأنّها كانت مسعورة، وتعضّ أحياناً، فكان العمّال ينصبون لها الفخاخ ويصطادونها، ويقومون بشيٍّ من يتمتّع بصحّة جيّدة منها ليأكلوه.

كان قد ربَط عقدةً من قطع صغيرة من نبات الجوت ووضع يديه في الحلقات وتابع طيَّ العُقد وشَدّها أكثر فأكثر حتّى شكّلت رقم ثمانية حول معصميه، وعندما كان يشدّها كان يشعر باحتراق ثمّ براحة، فعقله كان مليئاً بلسع حار أبيضَ بدلاً عن الألَم العميق الّذي كان موجوداً في نفسه دائماً، ولأنّه كان مشغولاً بالحرارة والألم لم يلاحظ مرور دارو.

اختفى دارو ثمّ عاد بعد عدّة دقائق وهو يتصبّبَ عرقاً.

«ما الأمر؟» نادى لين من الحديقة وهو يدّعي الجهل، فصعد الدّرج بخطواته القافزة الكبيرة حاملاً زجاجتين من الجعة. كان لين مذهولاً لدرجة أنّه لم يلاحظ التّنفس القويّ لدارو، ولم يعرف أنّ دارو ركض عائداً إلى غرفته كالمجنون وفتح المبرّد

وأحضر زجاجتين من الجعة ثمّ عاد راكضاً. ولأنّه كان مربوطاً أومأ برأسه فقد تأخّر في إخفاء الحبل.

انحنى دارو ممسكاً بسكّين ليقطع الحبل الملتوي بين معصمي لين الّذي تحوّل لونهما إلى الأرجوانيّ، متظاهراً بأنّه أمر طبيعيّ جداً في هذا العالم، ثمّ قام بنزع أغطية الزّجاجات وأعطى لين واحدةً منها، كان قد لاحظ تجدّد ندوب لين عند بداية وصوله، لقد عرف دارو حطام الحرب.

«لنتحدّث».

فرك لين يديه ببعضهما وشعر باهتزاز معصمه اللّين، حيث يسيل الدّم في عروقه بطيئاً كالرّمال.

«أنت (تران باو لين)، عندما التقينا آخر مرّةٍ كنت جنديّاً في جيش فيتنام الجنوبيّ».

«ذاك الرّجل ميتٌ، أنا الآن نجيون بران لين».

«حسناً».

«لم يكن عليّ أن أكذب وأقولَ: إنّي أعمل لديك».

فرك دارو وجهه وأجاب: «لقد كان يوماً ملعوناً ذاك اليوم الّذي التقينا فيه».

«نعم».

أشار دارو إلى الحبل وسأل لين: «هل لهذا علاقةٌ بتلك اللّيلة؟ لقد اختفيت».

أشاح لين بنظره وقال: «ألا أقوم بعملي جيّداً؟».

«أنت أفضلُ مساعد عمل لديّ حتّى الآن».

«هل هذا ثمنُ إبقائي أعمل معك؟ أن أخبرك؟».

رشف دارو رشفةً طويلةً من الجعة ونظر إلى الأدغال القريبة وقال: «أنت لا تثق بي بعد، لا بأس بذلك».

سأله لين: «هل أنت سعيدٌ هنا؟».

«كأنّني حصلت على فرصة لاكتشاف الأهرامات، غاري رجلٌ طيّبٌ لكنّه لا يستوعب الأمر، لقد مللتُ من الحرب، هل تفهمني؟ بالطّبع تفهمني، الأمر فقط أنّني لا أستطيع التعود على الإقلاع والتّوقف. لذا أيّاً كانت أسباب وجودك هنا فأنا موافقٌ عليها».

رشفَ لين رشفةً جعة طويلةً من زجاجته وقال: «تظنّ أنّك في جنّة مسالمة هنا، لكنّكَ مختبئٌ في المقبرة، فعنفُهم ببساطة قد انتهى هنا وعنفنا نحن يحدث الآن، وكلُّ حجرة مبنيّةٌ هناَ مبنيّةٌ على الدم، العنف حولك في كلّ مكان لكنّك لا تستطيع التّعرف عليه، وهذا من السّهل عليك لأنّك لا تنتمي إلى هنا».

«أنا لم أصنع الحرب، كنت فقط مجرّد مصوّر عاديّ يتّجه إلى تصوير الأعراس، الحرب هي الّتي صنعت شهرتي».

«ماذا عن الواجب؟».

«حسب وجهة نظري أنت لا تنتمي إلى هذا المكان أيضاً. ويمكنك الاختفاء بشكل رسميٍّ، لماذا لا تهرب؟» حدّق فيه دارو.

أنزل لين رأسه وبقي صامتاً لفترة لدرجة أنّ دارو ظنّ أنّه لن يجيب.

«لا يمكن الهروب ممّا مررت به، فأيّ مكانٍ أذهب إليه هو جحيمٌ، حتّى أنا نفسي جحيمٌ».

لم يجد دارو ما يقوله أمام اقتباس لين لشعر (جون ملتون)، الجنديّ الغائب من دون عذر أصبح معاونه «ماذا بحقّ العالم كانَ يمكن أن يكتشفه أكثر في هذا الرّجل؟».

في يوم عطلتهم كان لين يستيقظ على رائحة القهوة المعطّرة بالهال وهي تغلي، وبعد أن تغلي تصدرُ رائحةٌ أخرى حلوةٌ مثل رائحة المخابز الفرنسيّة في سايغون، وجد دارو في الخارج يرعى مقلاة على نار مشتعلة.

قال دارو دونَ أن يستدير: «أنا أحضر (البانكيك)، لقد أرسلت لـي زوجتي علبةً من المزيج الجاهز حتّـى إنّه يحتوي على حبّات توت أزرقَ مجففة، وأرسـلت لي زجاجة شراب (فيرمونت)، أحضر شوكةً».

«هل أنت متزوّجٌ؟».

«اعتقدَتْ أنّ ما أرسلتُهُ سيُصيبني بالحنين، تعرف كيف تفكّر النّساء».

«لن أنسى أبداً حبّ زوجتي».

نظر دارو إليه وقال: «أنا آسفٌ».

لـوّح لين بيديه مؤشّـراً إلـى عدم وجود داع للاعتـذار، لم يرد أن يكون واحداً من أولئك النّاس الّذين لم يسـتطيعوا احتمال سـعادة الآخرين. «كانت تحضّر لي كعكات الأرزّ في كلّ مرّة أغادر فيها».

عندمـا جهّـز الفطـور نظـر لـين إلـى الكعكـة الذّهبيّة على صحنه وإلى بركة الشّراب البنيّة حولها.

قال دارو: «كُلْ».

أخـذ لـين قضمـةً وتقيّأ، كان كل شـيء غريباً عليـه: الحلاوة والنكهة والطّعم. غرز شوكته في بقع الفاكهة الموجودة في الكعكة وشـعر بالغثيـان، أكل دارو خمـس كعكات مـع كأسٍ وراء كأسٍ من القهوة. «هذا يأخذني إلى الوطن».

عندمـا اسـتدار دارو رمـى لـين الكعك فـي الشّـجيرات الّتي خلفه، وعندما اسـتدار إليه مرّةً أخرى ورأى الطّبق فارغاً ابتسـم ووضع واحدةً أخرى عليه رغم اعتراض لين، قال له: «أنت تصبحُ أمريكيّاً أكثر مع مرور كلّ دقيقة».

ولاحقـاً في ذاك الصّباح سـأل فيسـنا عن المواعيـد المرتقبة، لكنّـه لـم يجد دارو فـي أيّ مكانٍ وبعـد البحث لمدّة سـاعة وجده

أخيراً حيث كان واقفاً أمام صخرة منحوتة على هيئة الإله (أفالوكيتشفارا) الّتي تُجسِّد بوذا، أشار لين إلى فيسنا بالابتعاد وراقب دارو وهو يدرس الملامح المنحوتة بعينه الفارغة الّتي لا ترى، وابتسامة هادئة ترتسم على شفتيه، كان يتفحّص الرّقائق والشّقوق والظّلال الّتي تغيّر التعابير المنحوتة كلّما عبرتها الشّمس وحتّى حلول اللّيل، يستطيع لين أن يعمل مع رجل كهذا.

اعتاد لين في تلك السّاعة المتأخّرة أن يعود من القرية ويتمدّد على بساطه، وكان دارو دائماً مستيقظاً ويطالع شيئاً ما، وهناك زجاجة ويسكي إلى جانبه، وكان دوماً يصرّ على أن يشاركه لين بكأس صغير. كان لين يبلّ شفتيه بالكحول ويشربه حتّى لو كان سمّاً ليُرضيَ مَن أمامه ومن ثمّ يغلقُ عينيه ويشعرُ أنّ الجدران تدور من حوله.

وعندما كان دارو يصل إلى جزء مثير من كتابه كان يقرأ تلك الأجزاء بصوت عال بغضّ النّظر إن كانَ لين مشوّشاً بعد الشّرب أو كان قد غفَا، لذا اكتسب لين معرفته من تاريخ كتب المؤرّخ (موهوت) الّذي تحدّث عن الآثار في مقاطع شبيهة بالأحلام، لم يكن ليتأكّد إنْ كانت قصصهُ حقيقيّةً أم محضَ خَيال.

(كان ملك كمبوديا وحاشيته الّتي وصل عددها إلى الآلاف يذهبون إلى صيد الفيلة في الغابات الشّماليّة الكثيفة لبحيرة تونلي ساب العظيمة في عام 1550، وكان المرور محدوداً في بعض الأماكن لدرجة أنّ عبيد الملك اضطرّوا إلى قطع الخضرة والأشجار ليمرّوا من خلالها، وعندما أتوا مرّة إلى مكان كثيف بالنّباتات ولم يستطيعوا تحقيق أيّ تقدّم فيه أدركوا أخيراً أنّ تلك ما كانت إلا جدراناً صخريّةً صلبةً تحت الخضرة الكثيفة

الّتي كانت جدار إنغكور الخارجيّ، الّذي أعاد اكتشافه الخمير الحمر بعد أن كان منسيّاً منذ القرن الثّاني عشر).

كانوا قد أنهوا عملهم باكراً في أحد الأيّام، وعندما استدار دارو عابراً زاوية أحد المباني ركض مباشرةً باتّجاه لين، وحشر قصاصة ورق في جيبه بسرعة. «ماذا تكتب طوال الوقت؟».

«لا شيء مجرّد خربشة، قصائد وقصص».

«حقّاً؟».

«كنت أكتب المسرحيّات».

«دعني أقرأها، أنت تكتب بالإنجليزيّة أليس كذلك؟».

نظر لين إلى الأسفل واحمرّت بشرتُه «بعض الأحيان ربّما»، ويده على جيبه توحي بالرفض القاطع، وعندما أتى إلى غرفته لينام ليلاً وجد دفتراً لولبيّاً سميكاً ورزمة أقلام حبرٍ على سجّادته.

أخيراً تمّ التقاط الصّورة الأخيرة وتمّ وضع الأفلام في علبها، ولم يستطع دارو تأجيل القدر المحتوم أكثر من ذلك، فأخيراً سوف يرحل، لن يحرم نفسه أكثر من ذلك، لكنْ عليه أن يتخم نفسه بالحرب. في اليوم الأخير لهم وبينما كان يتمّ تحميل الشّاحنات، مشى دارو بين العمّال وقدّم لهم هدايا صغيرةً، لكنه لم يجد سامانغ وفيسنا في أيّ مكان، وبما أنّ لين أخذ فترة الصّباح إجازةً ذهب دارو وحيداً مع مترَجم إلى القرية، كان يأمل أن يلمح الشّابة الّتي كانت تأتي إليه خَلال اللّيالي، تلك الّتي أطعمته فاكهة (الكاكايا) اللّيّنة وفاكهة (المانجوستينز) الاستوائية، لكنّه عرف أنّه لا يستطيع السّؤال عنها. أراد أن يقدّم للأخوَين هديّةً الوداع ألا وهي كاميرا (روليفلكس) قديمة كان قد دربهما على استخدامها، وبما

أنــه لم يســتطع العثــور عليهما طلب دارو من المترجم ســؤال القرويّــين عنهما، أخذت دقائق طويلةٌ عويصةٌ تجيءُ وتذهب، وبينما كان دارو جالســاً على صخــرة يتعرّق ويضربُ الذّبابات الّتي لم ينتبه لها كثيراً وهو مســحورٌ بعمله، اهتزّت الأغصان القريبة منه وظهرت الشّابة من خلف شجرة (البانيان) واتّكأت على جذع الشّجرة وفركت فخذيها بيديها وهي تبتسم، فشعر دارو بالانزعــاج المضاعــف لاضطــراره للرّحيــل، وأخيــراً هــزّه المترجم من كتفيه.

«مــاذا؟» قال دارو بصوت مرتفــع وكان غضبه مخالفاً للّباقة، أنزلــت الفتــاة يديهــا عن فَخذيها وَهربــت مســرعةً. اللّعنة على الكاميــرا، كلن كلّ مــا في نفســه أكثر من أيّ شــيء آخر هو رغبته العارمة أن يجري خلفها من أجل لقاء واحد أخير.

«مــات ســامانغ منــذ يومــين إثر لدَغــة مَن أفعَى وفيســنا في العزاء الآن». كان أخوه يتسلّق جهة جدارٍ كَبيرٍ من الآثار فترنّحت كوبرا خارجةً منه وعضّته في فخذه.

ضــرب دارو كفيّه في الهواء وقال: «لمَ لم يخبرنا أحدٌ؟ لدينا مضّادٌ للسمّ والطّبيب يبعد عنا مسافةَ عدّة ساعات فقط».

«لقد مات بسرعة ولم يريدوا إزعاجك».

عــاد دارو إلى المخَيّم مهزوزاً ورمى مقتنياته كلّها في حقائب، لقد تهشمت تعويذة المكان (الفتاة - المعابد - البانكيك) كلّ شيءٍ كان سخيفاً ويقوده إلى الجنون وكلّ ما يريده الآن هو العودة إلى العمل الواقعيّ.

دخــل لــين وراَه. قــال دارو بغضــبٍ: «هــل ســمعت مــا حــدث لسامانغ؟».

«إنّه أمرٌ يدعو إلى الحزن».

«ليس الحزن! إنّه غباءٌ وجهلٌ لم يكن هناك من داعٍ لحدوثه، انسَ هذا المكان».

«كان من الممكن أن يكون سامانغ يقوم بعملٍ آخر عندما وجدته الأفعى».

«لكنّه لم يكن مكلّفاً شيئاً آخر لقد كان يعمل معي».

حمل لين حقائبه: «سأتحقّق من المعدّات على الشّاحنات»، استدار مبتعداً ثمّ عاد: «إنه محظوظ فقد كان يؤدّي واجبه ويكسب ليعيل عائلته، عليك إعطاء الكاميرا لفيسنا، وإذا نجح في عمله فبإمكانه كسب المال، وهذا كلّ ما يهم سامانغ الآن».

تذمّر دارو وهزّ رأسه ودفع حقيبةً ثقيلةً مُخرجاً إيّاها من الباب بدفعة قويّة من قدمه: «آمل ألا أكون محظوظاً مثل سامانغ». أمسك منشفةً ومسح عرقه وأعاد ارتداء نظّارته: «اللّعنة، أنا لم يحالفني الحظ».

«هناك تلك الشّابة الّتي استضفتها، زوجة أخيهم الأرملة الّتي لديها طفلان لتطعمهما، وسيكون من المناسب إعطاؤها بعض المال لكي تتمكّن من إعالة نفسها وعدم الاضطرار إلى بيع جسدها للأجانب».

عندما اكتشف الأوروبيّون إنغكور رفضوا تصديق أنّ أهلها قد بنوا معابدها الأصليّة، فقد ظنّوا باختصارٍ أنهم وجدوا مدينة أفلاطون الضّائعة (أتلانتس).

كانت الشّابة تُسقط قطع الفاكهة الدّافئة في فم دارو لتعطيه إحساساً مزيّفاً بالفهم والذي سرعان ما فقده، إحساس لم ينقله إلى العالم الحديث حيث كان فاصل الموت بين الحقنة ورجل يحتضر أكثر من فاصل المسافة. شعر أنّ الملك القديم يضرب الأدغال وأنّ جدار الصّخور الخاصّ بكنزه يسدّ الطّريق.

قبـل مغـادرة إنغكور وضـع لين مغلّف دفترٍ ممـزّقٍ في حضن دارو.

(عـاش الأخوان تام ولانغ خلال فتـرة حكم الملك هونغ، وكانا مخلصَـين جـدّاً لبعضهما، كانـا قد تيتّما في سـنّ صغيرة وجاء للعيـش مع سـيّد طيّب لديه ابنـةٌ جميلةٌ، وعندمـا كبرا كلاهما عشـقا الفتاة سـرّاً لكنَّ الملك زوّجها للأخ الأكبر تام. أحبّ الشّاب والفتـاة بعضهما بسـعادة لدرجة أنّ تام نسـي أمـر أخيه الأصغر لانـغ، وعندمـا أصبح غيرَ قادر على تحمّل تعاسـته؛ وهي فقدان أهمّ الأشـخاص في العالم بالنّسـبة إليه وغيرته من سـعادتهما، هـرب لانـغ، وعندمـا وصـل إلـى البحر ولـم يتمكّن مـن متابعة الطّريـق وقع على الأرض ومات من الحزن، وتحـوّل إلى صخرة كلسيّة طباشيريّة، وعندما أدرك تام أنّ أخاه قد رحل شعر بالعار مـن إهمالـه له وذهب باحثاً عنه، وبعـد أن يئس من العثور عليه وقف عند البحر وجلس على صخرة بيضاءَ كلسـيّة طباشـيريّة، وبكى حتّى مات، وتحوّل إلى شجرةٍ بجذعٍ مستقيمٍ وأوراق نخيلٍ خضراءَ، شجرة أكيرا).

«هل هذا من تأليفك؟».

«إنّها أسطورةٌ فيتناميّةٌ شهيرةٌ كما أذكرها، أخبرك إيّاها فقط لكي تفهم أين أنت».

«إنّها حزينةٌ ومأساويّةٌ».

«إنّهـا رموزنـا الوطنيّة، نحن ناسٌ اعتدنـا الحزن متوقّعين أن يتمّ تعويضنا بما يوازيه فرحاً».

عندما عادوا إلى سايغون، سارع غاري إلى استدعاء لين؛ لأنّ القيـادة العامّـة لجيش جمهوريّـة فيتنام طلبت مثولـه، فأوراق هويّتـه الّتـي قدّمها كانـت كلّها مزيّفةً: «عرفـت، لقد عرفت أنّك

أفضل من أن تكون حقيقياً، من هو تران باو لين؟ أخبرني، هم يظنّون أنّه فارٌّ من جيش فيتنام الجنوبيّ».

«أنا لا أعلم فعلاً، لقد عمل لين لديّ السّنة الماضية».

«كيف ذلك وأنا عرّفتكما ببعضكما منذ عدّة أسابيع؟».

«سنةٌ كاملة، سوف أذهب للتّحدّث مع جيش جمهوريّة فيتنام، أنت تعلم بقليلٍ من المداهنة لن يعيروه إي اهتمام».

تبع لين دارو إلى الخارج: «كيف التقينا؟..».

«لقد عملنا مع بعضنا لمدّة سنة».

«هل أنت متأكّدٌ؟».

«هل تريد أن تكون جنديّاً مرّة أخرى؟».

«لا».

«بعض الإطراء وصورٌ للزّعيم يمكن أن تساعدنا كثيراً، لاحظت كيف بقيت مستيقظاً إلى وقت متأخّر حتّى لا تلتقي بصديقتي». أغلق دارو عينيه نصفَ إغلاق بسبب ضوء الشّمس وابتسم: «إنّنا معاً نشكّل فريقاً جيّداً، ولا أحد يستجدي العمل معي».

عندما أصبح لين معاوناً لدارو كانت الحرب صغيرةً وحديثةً، حربٌ إعلاميّةٌ فقط، حربٌ أهليّةٌ في بلد راكد، كان الوجود الأمريكي الشّيء الوحيد الّذي قاد دارو إلى هناك، لقد كان موقفاً أخيراً متردّداً قبل التّقاعد من العمل في الحرب.

جلسا في ظلّ أشجار المطّاط في كوتشينغ في منطقة المثلّث الحديديّ، توقّف لين ليلتقط صورةً بعد قيام معركة قبل أن يبعده دارو، ومع ذلك أصابته شظيّة ثلمت وجهه وعنقه، حتّى كاميرا (اللّايكا) الّتي كانا يصوّران بها تضرّرت، انحنى دارو فوق الطّبيب ليتأكّد أنّه نظّف الجرح الهلاليّ على خدّه: «لديك الآن علامة جمالٍ، النّساء تحبّ النّدوب».

قال لين: «أستطيع إصلاح الكاميرا».

سحب دارو سحبةً طويلةً من سيجارته: «ألا ترى كيف؟».

أمسك لين غلاف الهيكل المحروق وشوكةً معدنيّةً، وراقبه دارو باستمتاع: «أين تعلّمت هذا؟ جيش فيتنام الجنوبيّ لا يعلّم مثل هذه الأشَياء».

ارتجف لين.

«أنت رجل البصل فعند تقشير طبقةٍ تجد لغزاً آخر وراءها».

«ما من لغز».

قال دارو: «لَقد قرأتُ أنّ جيش فيتنام الجنوبيّ يدرّب المصوّرين على العمل تحت أيّة ظروفٍ».

«قرأتُ ذلك أيضاً».

ضحك دارو: «يصطنعون اللّقطات لتصويرها ويصنعون الأبطال، ليسوا مثلنا فنحنُ نعرضُ الحقيقة».

كان باقي الصّحبة خارج مرمى السّمع، ومع هذا تحدّث لين برفق: «تخيّل أنّ والد أحد الرّجال كان يعمل بروفيسوراً في جامعَة هانوي، وأنّه حارب الفرنسيّين ليحرّر بلادنا، وأنّ الفرنسيّين أصبحوا الأمريكيّين، وأنّ الوطنيّين أصبحوا الشّيوعيّين، وتخيّل أنّ الابن تعلّم تصليح الكاميرا باستخدام الغلاف والشّوكة، ثم وجد أنّ وعودهم أكاذيب فهرب واضطرّ لأن يحارب لصالح جيش فيتنام الجنوبيّ. وافترضْ أنّه بعد كلّ هذا الوقت الّذي قضاه في القتال كلّ ما أراده هو الهرب من الحرب، إذا كان ذلك صحيحاً، فهل كنت سترضى بتعيينه معاوناً لك؟».

«لماذا لا يهرب؟».

«هو مرتبطٌ ببلده». فرك لين يديه بمعصميه.

سحب دارو سحبةً أخرى من السّيجارة وأعطى لين واحدةً: «لقد عانى هذا الرّجل بما فيه الكفاية وسيكون فخراً لي أن أعمل إلى جانبه».

أشاح لين بنظره، لم يستطع مقاومة الإحساس أنه فقد ماء وجهه بالبوح بالكثير من أسراره، ومع ذلك عرف أنّ الأمريكيّ توقّع ذلك واحتاج إلى الإذلال ليشعر بالرّاحة.

قال دارو: «لديّ سؤالٌ، هذا الرّجل الخياليّ الّذي عمل في الشّمال هل سبق له أن رأى القائد الأعلى؟».

«أظنّ أنّه رآه.. نعم». كلّما زاد الشّخص في عرض تفاصيل القصّة قلّ قبولها كقصّة واقعيّة.

«أين؟».

«خارج مدينة هانوي وهو يزور صديقه الّذي عمل حارساً، كان في قرية صغيرة مؤلّفة من سلسلة من عدّة أكواخ ممتدّة على طول قناة، وفي حديقة صغيرة كان ينحني على المزروعات لعدّة ساعات وهو يقوم بالتّعشيب، كان فقط في الخمسينيّات من عمره لكنّه كان مريضاً بالسّلّ وبدا معمّراً جدّاً، وبلمحة واحدة يظهر أنّه عجوزٌ يقوم بتعشيب حديقته، كان مختبئاً، مختبئاً لأنّ الجميع استطاعوا رؤيته بشكل واضح».

خرجوا جميعاً في دوريّة استكشاف طويلة الأمد إلى مقاطعة تسيطر عليها العصابات.

كان دارو يفضّل هذه المجموعات الّتي تذهب مكتسبةً الطّباع الحضاريّة للبلد، لأنّهم سمحوا له أن يفهم طبيعةَ مكان ما أفضل من المجموعات الكبيرة الّتي حوّلت كلّ مكان إلى قاعدةً أمريكيّة. وافقت القوّات الخاصّة أن تدع دارو يذهب على شرطٍ عدم ذكره لمهمّته ودون التقاط صور. لقد عرف من تجاربه السّابقة أنّ

الأمر يستحقّ ببساطة أن يرى مواصفات الأرض والمكان مع أنّ هذا الأمر قاد غاري إلى الجنون وأغضبه.

مشوا في صمت لأيّام دون أن يلتقوا بإنسان آخر في الأدغال المظلمة، والخوفُ من الأماكن المغلقة يسيطر عليهم. مرّت أيامٌ تبعتها ليال وتلتها أيامٌ، لم يعودوا يحسبون الوقت، يتبعون مسارات عنكبوتيّة وهم غير قادرين على الحركة أو الكلام، والصّوتَ الوحيد الّذي كانوا يسمعونه هو صوت المطر الّذي يضربُ أوراق الشّجر.

فكّر لين بالوجوه الصّخريّة الفارغة في إنغكور الّتي لا تنظر إلى أيّ شيء. مرّت قرونٌ دون أن يتدخّل صوتٌ بشريٌّ واحدٌ، أراحه مجرّد المجهود الجسديّ حيث استلقى نائماً في اللّيل على الأرض ليستيقظ صباحاً ويجد يديه ملتفّتان حول معصميه وجلده مرضوضٌ ومحكوكٌ.

كان تأثير الدوريّة على دارو غير متوقّع فلربّما حان الوقت له أن يشحذ عينيه بعد أن ابتعد عن إنغكور، فبعد كلّ الحروب الّتي غطّاها، شعر بتواصل مع ذلك المكان، كان ذلك بسبب نوعيّة الضّوء على الوجوه الأمريكيّة الشّابة في تلك الأرض القديمة الّتي كانت أيضاً جميلةً ومرعبةً، لقد وجد حريه.

أمضت الدّوريّة اللّيل في أرض صغيرة مقطوعة الشّجر في قرية مؤلّفة من ستّة أكواخ على ضفّة رافد صغير، كان النّاس لطفاء حتّى إنّهم ذبحوا دجاجةً على شرفهم بينما شارك الجنود بمؤنهم، أحضر الشّيف زجاجة خمر مهرّبة للشّرب، وبعد أن غادروا فجراً توقّفوا مرّةً أخرى بعد خمسة أيّام ليحتموا من المطر ووصلوا إلى أطلال يتصاعد منها الدّخان، ودزّينةٌ من القرويّين كانوا موتى ورائحتهم عفنةٌ وهم غارقون في بحر كثيف

مـن الطّـين، وبما أنّـه لن يكون هنـاك من يعـرف أنّ الأمريكيّين كانـوا في المقاطعة الّتي تلي الحدود المسـموح بها، لم يكن هناك أيّ أخبـار عـن ذاك العنـف، كان العـدوّ يراقبهم وقـد أخذ بثأره، فالعدوّ الّذي لا يرحم يجد من أعدائه رهبةً معيّنةً. أدرك دارو أنّ فيتنام سـتكون شـيئاً مختلفاً عن الحروب الأخرى الّتي غطّاها، كانـت واجهـة الأشـياء بدايةً فقـط دون أن تمثّل شـيئاً، كان لين محقّاً فالأشياء كانت مخيفةً لأنّها كانت واضحة الرّؤية.

اختفـى أربعة جنـود على طريق باتّجاه الغـرب آملين العثور علـى آثـار للعدوّ الّذي رحل، والتقوا بعد سـتّ سـاعات، تبع دارو ولـين وبقيّـة الجنود خطاهم حتّـى وصلوا إلى منطقـة الهبوط الأصليّة.

انتظروا يوماً آخر بين نباتات الفيل العشبيّ غيرَ قادرين على التّكلّم أو عزف الموسـيقى أو إشـعال النّار لتسخين الطّعام، كانت حرارةُ الشّمس تشوي ظهورَهم والهواء ثقيلٌ محمل بطبقة رطبة تطنّ بطنين الحشرات، كان لين مختبئاً بين العشب الطّويلَ حالماً بالهرب، لكن أين سيذهب وأخيراً فإنه طبقاً للبروتوكول كان على الجنديّ أن يبعث برسائل لاسلكية من أجل إخراج المجموعة، مع أنّ ذلك سيفضح وجودهم ويهدّد الآخرين بالخطر.

ثمّ ظهر الجنود المفقودون عن بعد كثلاثة ذئاب نحيلة جائعة حاملين الجنديّ الرّابع، كانوا يناضلون مُرهقَين وكُلٌّ منهمَ يتعثّرَ برجـل أو ذراع للجنـديِّ الرّابع الّذي كان فاقـداً الوعيَ الآن. كان دارو سيلتقطُ الكاميرا بشكل طبيعيٍّ ويبدأ بالتّصوير ما إن تبدأ الحركة، لكنّه الآن وضعها جانباً وركض إلى الميدان لحمل الرّجل الجريـح، كان قـراراً بـلا تردّدٍ، فقد فعله من قبـل هو وغيره آلاف المرّات.

وبالغريزة نفسها الّتي جعلت دارو يركض عبرَ الميدان، نسي لين حلمه بالهرب وتبعه، كانت قد جفّت الخطوط والطّين على وجوه الجنود ونظرات عيونهم لا ترفّ وتُظهِر أنّ الحرب قد بدأت والمعاناة قد بدأت.

لم يتسنَّ الوقت لأيٍّ منهم لأن يلاحظ أنّ لين التقط صورةً لدارو وهو يساعد في حمل الجنديّ الجريح، كان الوحيد في الصّورة من دون سلاح أو خوذة عسكريّة أو سترة واقية من الرّصاص، شعر لين بشَيءٍ يتحرّك في داخله للمرّةَ الأولىَ منذ أن غادر قريته، كان تخدير الحزن قد ازداد لوقت قصير، كل ما أحسّه هو خوفٌ علىَ دارو. ليحافظ المرءُ علىَ حياته في هذه الحرب يجبُ ألا يكون بالغَ الشّجاعة.

كان دارو حزيناً بعد العودة إلى سايغون و«كانت الصّور ستُظهر ما يحدث. والآن ليس هناك ما يمكن عمله، فإذا لم نقم بتصوير الشيء فكأنّه لم يحدث».

«لا يهتمّ أولئك القرويّون إن كان قد تمّ تصويرهم أم لا».

قال دارو دون أن يفهم أنّ الأسوأ كان قد حدث للين مُسبقاً:

«لديك وقتٌ لتفادي هذا الأمر».

«وأنت أيضاً تستطيع ذلك».

لكنّ ذلك لم يكن صحيحاً، لقد علم دارو أنّ كليهما كانا متورطين في هذا الأمر ولا يستطيعان الإفلات.

(3)

حرب صغيرة رائعة

سايغون، نوفمبر من عام 1965

ألقت شمسُ الظّهيرة المتأخّرة ضوءاً منصهراً على الشّارع، طَلَتْ كلّ شيءٍ بلون نحاسيٍّ مذهب معتّق صدئ، لوّنت الأرصفةَ وكراسي المطاعم والأكشاك المُتهالكة الّتي كانتْ تبيع سجائرَ أو أفلاماً أو كتباً، حتّى إنّها أعطت آلات السيكلو الصّدئة الواقفة في الشّارع بلا حراك والوجوهَ الهزيلة للسّائقين النيام خاصّيّةً ريفيّةً غيرَ موجودة إلا في الصّور الأثريّة العتيقة. كان بعضُ الفيتناميّين متمدّدين على أسرّة صغيرة متنقّلة في الشّارع يقرؤون الصّحف بكسلٍ أو يلهون بالنّوم وينتظرونَ راحةَ حلول اللّيل.

كان هذا الجزء من المدينة عائداً للغربيّين وكان عمل الفيتناميّين هنا هو كسب المال منهم إمّا بإطعامهم في المطاعم وإمّا ببيعهم أشياءَ من الأكشاك المتهالكة أو بإيصالهم إلى أطراف المدينة بآلات السيكلو الصدئة أو بممارسة الجنس معهم أو بالتجسّس عليهم أو بمزيج من كلّ هذه الأشياء.

أتت سيّارةُ الجيب العسكريّة الغبراء إلى أحد المواقف السّريعة أمام فندق كونتيننتال حيث المشاة وآلات السّيكلو منتشرون

كالنّار، وخرج موظّفٌ عريض الكتفين ومدّ يده لهيلين ليساعدها على النّزول من مقعد المسافرين، قالت هيلين ضاحكةً: «يا لها من خدمة! كم علي أن أدفع بقشيشاً؟».

«فقط عديني أنك ستذهبين لتناول مشروب معنا».

«أعدُكَ».

«نحن متمركزون هنا لعدّة أيّام أخرى فقط».

«سأفعل».

قالتها ونظرت إلى الطريق الّذي يقودها إلى الفندق. صرخ الجنديُّ ضاحكاً: «تذكّري أنّنا نعرف أين تعيشين، أنت هيلين من سايغون».

ابتسم الأمريكيّون الموجودون على الشّرفات الأقرب إلى رصيف المشاة وهزّوا رؤوسهم، لكنّ الفيتناميّين في الشّارع اكتفوا بالتّحديق ببساطة، وتعابير وجوههم تستحيل قراءتها. كان لين جالساً على طاولة مع باو يرى المشهد يمر أمامهم بصمت في الشّارع، رأيا المرأة الشّقراء الطّويلة ذات الرّوح العالية تنفض يديها على سروالها وتملّس شعرها المنسق على شكل ذنب الفرس، تفرّق الحشد بينما مشت هي على الرّصيف متخطيّة أدراج الفندق. هزّ باو رأسه وداس في بركة طين بنّية حمراء ممّا أغضب النّادل الّذي أسرع لإحضار خرقة لتنظيفها. «يظنّون أنّ هذا ملعبهم». أشار لين إلى النّادل لكي يحضر له زجاجةً أخرى من المياه المعدنيّة؛ لأنّه كان قد تعب من لقائه مع باو وكيف حدق ذاك العجوز في وجهه مباشرة مهاجماً إيّاه بنفخات أنفاسه الدّافئة القديمة كسمكة غير طازجة، قال باو: «زجاجةَ ويسكي أخرى أيضاً». بالنّسبة لشخص أفصح عن أنه (بروليتاري) بدا باو مرتاحاً لاستخدام فندق كونتيننتال كمكان إقامته الخاصّ.

«أضـف زجاجـةً أخرى من ويسـكي (جاك دانيال) إلى حسـابي».
كان لين يعمل لدى دارو لمدّة سـنة، وأخيراً انتقل الآن إلى شـقّته الخاصّـة في سـايغون وبدأ بممارَسـة شـيء من طبيعيّـة الحياة عندما ظهر باو فجأة في أحد المقاهي الّتي كان يتردّدُ عليها. ومع أنّه لم يكن واضحاً في أيّ جهة كان يعمل، لكنّ ما كان واضحاً أنّه تلقّى عرضاً يسـتحيل رفضه مَن الشّـماليين، قال لـ (لين): «تران بـاو لين، لـم نكد نتعرّف عليـك، من الجيّد بالنّسـبة لنا أن نرى كيف ازدهرت أحوالك في العالم منذ مغادرتك المفاجئة للحزب».

كان لـه وجـه فلاح مربّع متبلّد الذّهـن، وكان لديه أيضاً ولاءُ الجهلـة لخـطّ الحـزب وكانت مفاجئة لـ (لين) أنّهم لـم يقتلوه حتّى الآن. قال: «لدينا مخطّطاتٌ كبيرةٌ تخصّك، سـتجعل أرض أجـدادك فخـورةً بـك». كان العمل غير ضارٍّ نوعـاً ما، ولمرّتين في الشّهر، حيث كان ينقل التّقارير إلى باو عن مكان وجوده مع دارو، وأيّ قارئ اعتياديٌّ لمجلة أو جريدة كان سـيتمكّن من معرفة هذه المعلومـات. الفكرة كانتَ بمعرفة العـدوّ، فتأكّد لين من أن باو قد أصابـه الضجر بإخبار التّفاصيل التّافهـة غير المهمّة لدرجة أنّه لـم ينقل له أيّ شـيء له أدنى أهميـة، كان يقضي معظم وجباته متحدّثـاً عـن الطّعـام. أوضـح بـاو له أنّه لن يسـمع أبـداً صوت الطّلقة الّتي ستقتله إذا اختار ألا يكون متعاوناً: «أنت محظوظٌ لأنّك تملك عملاً وإلا لما كنت جالساً تتحدّث معي الآن».

كان لونُ السّـماء قد تحوّل إلـى الذّهبيّ الغامق عندما نزلت المـرأة مرتديـةً ثوبـاً حريريّـاً أزرقَ كلـون المحيط سـاعة الغسـق، كان لحذائهـا العالـي صـوتُ طقطقة رقيقة علـى الأرض عندما مشـت إلى البار حيـث الرّجل الّذي كانت علـى موعد معه واقف بانتظارها وهو (روبرت بودرو).

خُيّل إلى لين أنّ الهواء أصبح أكثر لطفاً في المكان الّذي كانت تمرّ فيه، قال وهو ينهض: «عليّ الذّهاب الآن». كانت الحانةُ مزدحمة فلم يكن هناك إلا مكانٌ للوقوف، لكنّ هيلين تمكّنت من رؤية روبرت في الزّاوية. قالت: «أنا آسفةٌ، فلم أستطع العثور على وسيلة نقل من المشفى فاضطررت إلى أن أطلب من بعض ضبّاط الجيش أن يقلّوني إلى هنا». استدار روبرت ونظر إليها والمشروب في يده وقال: «تبدين جميلةً، وتستحقّ أجملُ فتاة في سايغون أن أنتظرها». كان روبرت يعمل في إحدى المحطّات ويضيّع وقته في المكتب الأمامي عندما أتت هي باحثةً عن عمل حرّ، وبعد أن أحس أنّها خالية الذّهن كليّاً جعلها بسرعة تَشعر بأنّها لا تستطيع الاستغناء عنه. كان جسمه ثخيناً قَصير القامة بأكتاف عضليّة وصدر ممدود ممّا اضطرّه لأن يتحرّك بمشية ثقيلةً ثخينة كَمشيةَ رياضيَ سابق، وأيضاً كرياضيّ سابق كأن يشعرُ بأنّ أفَضل أيّاَمه باتت خلفهَ، كانت أناقته زائدةً قليلاً، ووطنيّته وانتماؤه إلى الحزب الجنوبيّ كذلك، فلم يكن متناسباً مع جوّ الصحافيّين الأصغر سنّاً الّذين بدؤوا بالتّسرب إلى المدينة. كانت هيلين من نوع الفتيات الّذي حلم بأن يريها للجميع في وطنه ولكنّه شعر أنّه على حافّة معجزة بعد أن التقى بها في سايغون. كان فيما بعد ظهر ذاك اليوم يخطّط أن يجعلها تقع في حبّه بشكل كامل حتّى تنتهي مهمّته ويعود متأبّطاً إيّاها إلى الوطنَ كعبدةَ، كغطاء لمهنته الخارجيّة غير المثيرة. ابتسمت هي، فقد كانتَ تعيش فَي الوطن حياة سهلة، لكنّ الانتباه الّذي كانت تتلقّاه هنا لكونها نادرةً كان شيئاً لم تعتد عليه. «خذي رشفة مشروب الروم من أجل الطّريق».

أعطاها كأسه المربّعة الثّقيلة ذات القاعدة الكريستاليّة الصّلبة الّتي جعلت يدها تهبط من ثقلها المفاجئ: «ممممم، كنت بحاجة إلى ذلك».

«يجب عليك العودة معي إلى الوطن إلى (نيو أورليانز) فكلّ الأشياء الجيّدة تحدث هناك، يمكننا العيش في أحد البيوت الأثريّة الكبيرة ويمكننا أن نملأه بالأطفال». قالت وهي تلمس عينيها مستخدمةً لكنةً شماليّةً زائفةً. «عزيزي روبرت لقد أتيت إلى سايغون لأهرب من ذلك كلّه».

«لنذهب، الجميع غادروا إلى المطعم».

وقفا على الرّصيف بينما أخذ روبرت يساوم على أجرة التّوصيل إلى (كولون) مع سائقَي سيكلو كانا موجودَين في المكان. تحرّكت غيومٌ رماديّةٌ غامقةٌ بلون الرّصاص إلى المكان الّذي حلّ فيه الظّلام واستقرّت على قمم الأبنية، كانت الحرارةُ عاليةً والرّطوبةُ كثيفةً جدّاً لدرجة أنّ هيلين شعرت أنّها دخلت إلى ساونا بكامل ملابسها. وكان هناك وميضٌ في الهواء حيث مشت بين روبرت والسّائقين وأنزلت رأسها تحت المظلّة المهترئة الّتي غطّت السّيكلو الّذي كان موجوداً للحماية من المطر.

تغيّر لون المدينة من مسحات اللّون البنّي الذهبيّ الدّاكن إلى ظلال ودرجات اللّون الفضّي، والهواء كان مبتلاً ينادي النّهر القريب الّذي كان يحمل الاسم ذاته. أمّا الورود المكوّمة المصفوفة في أوان على جانب الطّريق فقد طرّزتها قطرات الماء.

«ادفع الأجرة يا روبرت». صاحت ضاحكةً بينما صعدت السّيكلو الثّاني الّذي يقف خلفها وهي تقطر ماءً.

بدا الهطول غير المتوقّع للمطر فجائيّاً بالنّسبة لها ليس كما كان يحدث في وطنها حيث كانت تسقط عدّة قطرات لتحذّر

النّـاس ثـمّ تزداد غزارةً بالتّدريج. لقد حـدث الأمر بلمح البصر، هطـول لشـلالات نياجـارا فجائـيّ. كانت الرّيـاح الموسـميّة تهزّ المحيط كأنّها تحاول استعادة الأرض.

كان الأمر كذلك في كولون خاصّةً وهي سـايغون الصينيّة حيث لم يوقف الهطولُ وتيرة العمل الكثيفة. كان النّاس ببساطة يغطّون أنفسهم بمظلّة أو قطعة بلاستيك أو أيّ شيء بين أيديهم ويتابعون عملهم. سرعان ما أصبح السّائقان مغمورَين بالمياه لكنّهما لم يأبها بتواصـل هطول المطر، وسـرعان ما أصبحت قمصانهم وسـراويلهم القصيـرة مبتلة تمامـاً وملتصقة بجسـميهما مفتولَـي العضلات، والمياه تخوض من صنادلهم المطّاطيّة وهما يشغلان آلتيهما.

عندمـا توقّفـوا فـي الازدحـام اسـتدارت هيلـين لتـرى سـائقها يغلق عينيه ويرفع وجهه إلى السّـماء، وعندما ركن السّـيكلو الثّاني بجانبهما مالت باتّجاه روبرت وهمست: «لا يبدو أنّه يمانع الابتلال».

قال روبرت: «من المحتمل أن يكون هذا هو الاستحمام الوحيد الّذي يحصل عليه يوميّاً».

كان قـد تمّ تعيين روبرت في خمسـة بلـدان منذ أن بدأ يعمل كصحافيّ إخباريّ، وكان فخوراً بأنّه بقي منيعاً ومنفصلاً عن كلّ واحد منهم. تشـوّق إلى الوقت الّذي سـتنتهي فيه دهشـة الأمور الغريبة بالنّسبة إلى هيلين أيضاً.

«لا تتحدّث بصوت عالٍ».

«لا يستطيع أن يفهمني أحد يا عزيزتي».

«لا يهمّ. هذا غير لطيف».

«معك حقّ فهو على الأرجح سائقُ سيكلو نهاراً وعاملٌ مختصّ بالمحادثات الصّوتيّة ليلاً، وما لم يكن أحد اللاجئين الّذين دمّرنا قراهم، أريد بالتّأكيد أن أكون لطيفاً من أجل هيلين».

حدّقت هيلين في وجهه وقالت: «ربّما هو مجرّد سائق سيكلو يحاول أن يكسب قوته». مدّت يدها وقرصت ذراع روبرت: «آه، هذا مؤلمٌ».

ضحكت، فلم تكن ساذجةً كما ظنّها روبرت، لكنّها تقوم بالدّور بإتقان.

«توقفي عن السّخرية منّي».

الحقيقة أنّ سايغون كانت مكاناً قذراً وحزيناً وتافهاً ورخيصاً، لكنّ كارثة فقر النّاس أضعفتها. وجدت قبول الفيتناميّين وصراعهم للمعيشة مرعباً، وتساءلت ماذا أرادت الولايات المتّحدة من بلد متخلّف كهذا.

«لا شيء بسيطٌ هنا أبداً يا هيلين». فكّر أنّها أكثر دهاءً ممّا أبدته لكنّه قدّر لها ادّعاءها السّذاجة لأنّه كان متعباً من عيون النّساء القاسية هنا. تلك النساء اللّواتي كنَّ يحسبْن صحبتهنّ له بنصف الساعة.

وبعد مسافة عدّة أبنية بعيداً عن المطعم وصل الازدحام إلى مكان متوقّف يعجّ بزمجَرة السّيارات والعربات والدّرّاجات والشّاحنَات والموتَورات. تحوّل الهواء المحيط إثر الوقوف الثّابت إلى لون أزرق ممزوج بالإرهاق. وكان سبب التّأخير هو العربة المقلوبة في الأمام. كانت حمولتها من الطّيور والبطّ والإوزّ والسّنونو متناثرةً في الشّارع تتخبّط في مراحل مختلفة من المعاناة. طاف الرّيش النّاعم في البرك في الشّارع حتّى غمَرته المياه وغاص تحتها وشكّل حساءً بشكل الغيم. كان هناك مجموعةٌ من الرّجال الصينيّين يتجادلون بصوت عالٍ. والطّيور الّتي في أقفاص الخيزران انقلبت في الشّارع فصَفروا وصاحوا بفزعٍ. كانت العديد من الطّيور معلّقةً بشكلٍ مقلوبٍ في العربة

ومتروكـةً حيّـةً لتبقى طازجـةً، والآن أصبح العديـد منها نصف مدهوسـاً وإن كانـت لا تزال حيّـة ترفرف بأجنحتها المكسـورة أو تصـارع بأرجلهـا وظهورهـا المقطوعة. بـدأ مالـك العربة بقطع رؤوسها بفأس هلاليّة. ورمى الرؤوس البرتقاليّة القذرة المقطوعة في كيس منَ الخيش. ثم ربطه بشريط من اللّون الأحمر البرّاق كان ملقَياً بين برك الماء الطينيّة الّتي تسيل في منتصف الشّارع. نظر سـائقو السّـيكلو إليه دون أيّة نيّة للحراك حتّى يتمّ إخلاء الشّارع.

قالت هيلين: «لا أسـتطيع مشـاهدة ذلك». منـذ وصولها إلى المدينة منذ عدّة أسـابيع بذلت مجهوداً لكي لا ترى قبح المدينة، ولكن ما لا يمكن تفاديه الآن يعترض طريقها.

«حسناً نستطيع المشي، فالمطعم على بعد شارع فقط».

خفّت حدة المطر وتحول إلى رذاذ خفيف ووقفَت هيلين على الطّريق مرتجفةً وهي تنظرُ إلى فوضى الرّيش والدّم بانتظار روبـرت ليدفع الأجـرة، كان هناك كلبٌ يراقـب من أحد الأزقّة وركـض فجأةً قريباً من هيلين وأمسـك بإحـدى البطّات، رأت هيلين الطّرف السّـفليّ الأبيض لبطتها في فمه ورأته يركض مبتعداً بجائزته ورجل عجوز يتبعه بمكنسـة. قام الكلب بنثر الطّين والماء في وجه مطارده باستخدام أطرافه الخلفيّة قبل أن يختفي وراء زاوية الشّارع حاملاً جائزته. وافق الرّجل الّذي سببّ انقلاب العربة على شراء كلّ الطّيور وكان يناقش السّعر وتفاصيلـه في ذلك الوقت، أصدرت البطّات المتبقّية على قيد الحيـاة أصواتـاً جنونيّة فـي أقفاصها عندمـا حملها صاحب العربـة وقطع رؤوسـها على الأرض باسـتخدام فـأس صغيرة ورمى أجسامها في صندوق.

ركضت هيلين باتّجاهه وأشارت بيدها آملة ألا يقتل تلك الطّيور وأخرجت بضعة دولارات من حقيبتها وأعطتها للعجوز الذي ابتسم لها ومال برأسه.

أتى روبرت إليها وقال: «ماذا تفعلين؟».

«أريده أن يحرّرها».

«ماذا؟ أتظنّين أنّ فرصة طيور بطّ محرّرة ستحدث في فيتنام؟». لقد جعله سخف الموقف يشعر بأنّ عليه أن يحميها، لأنّ باستطاعته أن يحبّ امرأة كهذه فلن تستطيع الصّمود هناك لوقت طويل.

«لَقد فهِمني، فهو سيأخذها إلى القرية ويتصرّف بها».

فجأة بدأ المطر يهطل قويّاً مرّة أخرى فأمسك روبرت بيدها وركضا وهما يضحكان.

قال لها: «ربّما ستكون إحدى تلك البطّات على طبقك في المطعم عندما نطلب وجبتنا».

وصلا إلى المطعم وأجبرهما النّادل المتجهّم على الوقوف عند باب الدّخول ليطلب لهما مناشف تمّ إحضارها من المطبخ ليجفّفا نفسيهما. وقف أمامهما ويداه مطويّتان ومتقاطعتان أمام صدره وهو يضرب بمقدّمة قدمه على الأرض وينتظرهما. نظرت هيلين إلى الأسفل ورأت أنّه يرتدي حذاءً نسائيّاً جلديّاً أسودَ لامعاً.

قاد روبرت هيلين من ذراعها إلى طاولة كبيرة يجلس عليها صحافيّون مخبرون في آخر الغرفة، وعِندما رأى الرّجال الموجودون على الطّاولة هيلين توقّفت المحادثة بينهم. كان شعر هيلين منسدلاً كجدائل ملتصقة وثوبها أصبح باللّون الأزرق الغامق كلون اللّيل. بدت بعض الوجوه متحجّرة ووجوه أخرى

بدت عدائيّة بشكل صريح والقليل منها بدت مرتبكة، وعدم الترحيب بهما كان واضحاً. قال غاري: «تبدين كحورية خارجة من البحر».

«هل أتيت سابحةً من الولايات المتّحدة؟».

قال روبرت: «يا جماعة هذه هيلين آدامز وهي صحافيّة مستقلّة وصلت منذ أسبوع فقط».

«الآن بعد أن أتت النّساء، لن تصبح هذه حرباً على درجة عالية».

«إنك تتعجل الأمور يا روبرت. ماذا تفعل؟ هل كلّ ما تفعله هو انتظار الجميلات اللّواتي ينزلن من الطّائرة في قاعدة (تان سون نهوت) الجوّية؟».

قال روبرت وهو يقدّمها للنّاس على الطّاولة: «هذا مضحك. وذاك هو نجيون بران لين الرّجل المسكين المضطرّ لمساعدة ذاك الشّهير سام دارو مهلهل المظهر في نهاية الطّاولة، والمعروف أكثر باسم مستر فيتنام ربّما لأنّه الرّجل الأكثر شجاعةً هنا والأشدّ قصر نظر».

عمّت الضّحكات والصّيحات أرجاء الطّاولة واستمرّ الإحراج لفترة.

«ألا تحضر الممرّضات عادةً يا روبرت؟».

نهض دارو من نهاية الطّاولة بعد أن فرد ساقيه على مقعده تحت الطّاولة المنخفضة. كان برونزيّ البشرة وشعره الأبيض الرّماديّ يلتف في حلقات مجعّدة حول أذنيه. ويداه تمسّدان القميص المجعّد الّذي كان يرتديه، مع ذلك لم يكن الغضب الّذي بين عينيه عدم إعجاب، هو فقط لم يستطع تحمّل وجود وجه إنسان بريءٍ آخر يهبط على أرض تلك الحرب

خاصـةً إن كان أنثـى، وكان غاضبـاً من روبـرت لأنّه أحضرها. ومـع ذلـك كانـت تبدو مثيـرةً للشـفقة ومبلّلـة ومتورطة في الحرب مسـبقاً. لم يكن سيسـمح للرّجال بمطاردتها. انحنى لهـا انحنـاءةً بسـيطةً وعيونـه الّتـي تقيّمهـا كعيـون الصّقر جعلتها تشعر بأنّه يراقبها.

قـال دارو وهو ينظر إلى الطّاولة ويلتقط منديله: «نعتذر عن التّرحيب السّيئ. يا هيلين ذات الوجه الّذي أطلق ألف سفينة».

«انتبه، روبرت قادم».

ضحـك غـاري أيضاً بصوت عال وأشـاح بوجهـه بعيداً وقال: «أين كفتة سرطان البحر الّتي طلبتَها؟ أحضروا النّادل».

قال دارو: «أقترح أن نشـرب نخب القادمة الجديدة، أهلاً بك في حرينا الصّغيرة الرّائعة».

قـال روبـرت بعد أن أحـسّ بخطـأ إحضارها إلى هنـاك: «إنّ روعتها تقلّ يوماً بعد يوم».

رفع دارو يده ليدفع نظّارته إلى مسـتوى جسر أنفه ولاحظت هيلـين ندبةً طويلةً ظاهرةً ممتدّةً من معصمه إلى مرفقه وظهر مـن النّسـيج المرفوع أنّه أرقّ من باقـي ذراعه، رفع نظّارته وتحدّث بخَطابة ساخرة.

وعندَما وقعَت عيونهم على هيلين وهي تمشي بجانب الأسوار همسـوا لبعضهم بكلمات رقيقة مجنّحـة: «مَن على هذه الأرض يمكن أن يلومهم؟».

قال (إد) الّذي يملك شـعراً كالقشّ وأنفـاً كبيراً: «يا إلهي هل يوجد ملاحظات تغشّ منها في لفافة البيض خاصّتك أم ماذا؟».

«إنّه يتبجّح الآن لنبدو جميعاً جهَلة».

قال دارو: «معظمكم فعلاً جهلة وغير مثقّفين».

ضحـك الجميع بينما جلسـت هيلـين وانحسـر التّوتّر. كان دارو قد جعل وجودها مقبولاً وغاري أعطاها كأسـاً من الويسكي لتشـارك فـي شـرب النّخـب فأمسـكت الـكأس وأفرغتـه بجرعة واحدة. وانفجرت الطّاولة بالضّحكات. قالت هيلين بعد أن عرفتَ أنّه أشفق عليها دون أن تقبل بذلك: «كلامك إطراء بالنّسـبة لي ولكنّي أخشى أنّك أخطأت في شخصيّة هيلين».

أحضـر النّادل الّذي يرتدي معطفـاً أبيض طبقاً من الكفتة وملأ صحنها، وبعد انتهاء تأثير وصولها استمرّت المحادثة بذات الطّريقة الخشنة.

قال جاك وهو رجلٌ أيرلندي من بوسـطن: «أثناء وجودي في مقاطعة (تاي ننه) قام المترجم الّذي كان يرافقني بسـؤال عجوز القرية عن رأيه بما ينجزه القائد الجديد فقال: إنّ القائد (ديم) شخصٌ جيّد جدّاً». فعمّت الهمهمات والضّحكات الكسولة أرجاء الطّاولة.

قال إد: «يا إلهي يبدو أنّنا نكسب العقول والقلوب أليس كذلك؟».

فقال جاك: «ديم كان رجلاً سيّئاً وقد أُطيح به منذ سنتين».

تابع جاك حديثه: «سألني بحذر من هو القائد الجديد».

«كان عليك أن تقول: إنّه العمّ (هوو)».

«الجميع يتعرّف على الاسم فقط».

قال جاك: «فقلت له إن (كاي) هو من تسلم الحكم الآن».

«بماذا ردّ عليك؟».

قال: «كاي جيّدٌ جداً».

القهقهات والتمتمات السّـاخرة: «إنّ ذلك يطبّق نظرية لعبة الدّومينـو، فالنّـاس لا يهتمّـون بمـآل الأمـور، لا أحـد يهتـمّ إلا الأمريكان».

«حتّى الفرنسيّون كانوا سيعقدون اتّفاقاً مع (هوو) نفسه طالما سمح لهم بالاحتفاظ بمزارعهم والسماح لهم بفترة ساعة الكوكتيل الّتي يجتمعون فيها، كانوا سيقولون له: اذهب وكن اشتراكيّاً في مكان آخر من فضلك».

توقّفت هيلينَ عن الأكل وكان كلّ ما أرادته أن تحبس لسانها وتراقب ولكنّها لم تستطع: «لا أوافقكم الرّاي».

قال (إد) مضيّقاً عينيه: «على ماذا يا عزيزتي؟».

«غير صحيح أنّ النّاس لا يهتمّون بما تؤول إليه الأمور فقد اهتمّوا في كوريا، الجميع يريدون أن يصبحوا أحراراً».

«ما رأيك يا لين، يا قناتنا الغامضة المفتوحة مع الشّمال؟».

رفع لين رأسه عن طبقه وقال: «رأيي أنّ هذا الأرزّ لذيذٌ جدّاً». وانفجرت الطّاولة ضاحكةً، وعندما هدأت تابع حديثه كأنّه لم يلحظ المقاطعة: «لم يتناول العديد من النّاس في هذا البلد أرزّاً كهذا منذ سنوات».

قال جاك: «دعهم يتناولون الأرزّ يا تعويذتنا الماركسيّة الكونفوشيّة».

قال دارو: «أعتذر لك. ولكن ما الّذي تعرفينه عن كوريا فأنت ما زلت طفلةً وكان من الممكن أن تكوني ملكة حفلة التّخرج في الثّانوية، العام الفائت».

«ربّما لم تكن ستهرب من تلك اللّيلة دون أذيّة».

لقد مات أبي هناك في عام 1950 في معركة (تشوسن) وأخي كان في القوّات الخاصّة ومات في منطقة (سهل القصب) العام الماضي.

قال دارو رافضاً التّعاطف معها: «على الأرجح أنّ نصف الموجودين حول هذه الطّاولة موجودون هنا بدافع الفضول

والنّصف الآخر بدافع الطّموح، وليست الإثارة هي الّتي تقودنا بالتّأكيد، عملنا يزدهر في الحرب والشّيء الرّائع بالنّسبة لنا أنّه حتّى تنتهي هذه الحرب هناك المزيد سواء في الشّرق الأوسط، إفريقيا، كمبوديا، لاوس، السّويس، الكونغو، لبنان، الجزائر، ليس هناك من داع أن تنتهي الحرب بالنّسبة لنا أبداً».

«لست إلا مرتزقاً برّاق العينين أليس كذلك يا دارو؟».

تبع ذلك صمتٌ طويلٌ حدّقت فيه هيلين ودارو إلى بعضهما وأبعدا ناظريهما، ثمّ عاودا النّظر إلى بعضهما، كان وقتاً كافياً لإفراغ الصّحون وصبّ كؤوس الشّراب، لقد كان أكثر الرجال الذين رأتهم في حياتها غروراً، اشتعل وجهها غضباً.

«أنت مخطئ فقد كنت ملكةً حفل التّخرج منذ أربع سنوات».

انتشرت بعض الضّحكات والتّصفيقات: «هنا. هنا».

«من أين أنت؟».

«نشأت في جنوب كاليفورنيا».

سعل روبرت لأنّه أراد أن يلهي الحاضرين عما كان يحدث أمامه على الطّاولة: «ما رأيكم جميعاً في تقدير الجيش أنّ الحرب ستنتهي خلال سنة؟».

أخذ دارو رشفةً من شراب آخر: «ستنتهي إذا توقّفنا، ألا يقرأ أحدٌ فيكم العمّ (هوو) أو ما يقوله العم (غياب)؟ (سنتابع القتال حتّى لو استمرّ مئة عام)».

«أنت لا تصدّق هذا أليس كذلك، فلا أحد يقاتل لمئة عام».

«بالتّأكيد أصدّق ذلك وأنت أيضاً ستصدّقه يا (إد) إذا غادرت غرفة الفندق المكيّفة وكدحت معنا في الأدغال».

«سأترك البطولات لك. هل وضعت جائزة (البوليتزر) بإطارها على مكتبك أم ليس بعد؟».

ابتسم دارو بتكلّف ابتسامةً مصطنعةً غير متوازنة: «في الواقع لقد تمّ إرسالها إلى زوجتي، لذا لم أرها مطلقاً وأظنّ أنّها علّقتها في الحمّام. وشعورها أنّ الشّيك الّذي تسلمته كان أفضل ما في الأمر؛ لأنّه عوّض عن راتبي الضّئيل».

انتشرت القهقهات على الطّاولة: «لقد أبكيتني نهراً يا دارو».

ولما اقتربت ساعة حظر التجوال أصبح المطعم خاوياً، فقد أسرع الناس بالرحيل ومعهم كؤوسهم المليئة وزجاجاتهم، وهم يعدون بالعودة في صباح اليوم التالي. قام كل نادل بإزاحة مفارش الطاولات وقلب الكراسي، وكان الدلو والممسحة جاهزين عند باب المطبخ.

استدار جاك نحو هيلين: «حسناً هل كان علينا المجيء إلى هنا في بادئ الأمر أصلاً يا حبيبتي؟».

ابتسمت وقالت: «إلى هذا المطعم؟». انتشرت الضّحكات: «قالوا في البيان الموجز اليوم إنّ ألفاً وثمانمئة رجلٍ قد ماتوا اليوم ومن بينهم أخي».

قال دارو: «لم يتأخّر الوقت بعد يا ملكة حفل التّخرج. اخرجي من هنا بينما لا يزال الوضع جيّداً».

«إذاً ماذا عن مصير بلدنا الواضح؟ ماذا كان سيحدث لو لم تكن أمريكا موجودة؟».

قال روبرت ضاحكاً: «ربّما كان سينتهي الأمر بنا جميعاً ونحن نتحدّث الفيتناميّة».

سأل (إد): «لم يكن قدر فيتنام بيدها منذ زمنٍ طويلٍ. ماذا عن الفرنسيّين؟».

قال روبرت: «كان الفرنسيّون في طريقهم إلى الرحيل».

قال دارو: «السّبب فقط أنّ (هوو) وجد مَن هو أقوى منهم فلو لـم يوجد الفرنسـيّون في فيتنّام لما اضطـرّ يوماً لإطلاق الجنيّ من القمقم».

«يا له من جنيّ!».

«حسـناً يا عباقـرة بما أنّنا حزرنـا وعرفنا سياسـة العالم في ليلة واحدة أقترح أن نرفع الجلسة».

«حسناً».

«يبدو هذا جيّداً. أين نذهب؟ النّادي الرياضي أم السفينة؟».

شـكّل الرّجال على الرّصيف في الخـارج دائرةً كبيرةً عاصفةً لكنّ لين وقف بعيداً على الجنب. قال لهم طابت ليلتكم ومشـى وحـده مبتعداً، رأت هيلين جسـمه النّحيل المنعـزل عن الآخرين يمشـي مبتعداً. فمهما ربّتوا على كتفه أو أحضروا له المشـروبات لم يمتزج أبداً بأولئك الرّجال.

استدار روبرت إلى هيلين: «أحتاج أن أذهب إلى المكتب لبعض الوقت، هل تمانعين في أن يوصلك جاك إلى الفندق؟ سألتقيك هناك في غضون ساعة لنحتسي الخمر. ما رأيك؟».

«بالتّأكيد». قالت هيلين بخيبة أمل لأنّ اللّيلة انتهت بالنّسبة إليها، لأنّها أدركت أنّه تمّ إبعادها أيضاً من نادي الرّجال.

«سـآخذها أنـا».. قال دارو بعد أن مشـى ووقـف بجانب روبرت واضعاً يديه في جيبه ورأسه منخفضٌ قليلاً محدّقاً في شيءٍ ما على الرّصيف.

قال روبرت: «لا بالتأكيد الفندق ليس عبر طريقك».

«في الواقع كنت ذاهباً في ذلك الطريق».

نظر روبرت إليه مباشرةً ودفاعاته المعتادة مهزومةٌ: «أين؟ أنت لا تعرف أين تقيم حتّى».

ابتسم دارو والجميع منتظرٌ: «كلّ شخص جديد يأتي كان يقيم في فندق كونتيننتال».

قال روبرت: «قال جاك إنّه سيأخذها».

«انا ايضاً لديّ غرفةٌ هناك، اتذكر؟».

قالت هيلين: «سأذهب مع سام». معطيةً روبرت نظرة استهجانيّة محاولةً ان تلتمس عذراً لنفسها كأنّ الاختيار كان خارجاً عن إرادتها. «لربّما استطعت ان اريح بعض المعلومات منه حتّى وصولنا إلى الفندق».

أدرك الرّجال أنّ المباراة السّجاليّة انتهت لصالح رابح واضح للجميع. امسك (إد) قلبَه بحزن ساخر وترنّح على الرّصيفَ. عضّ روبرت شفاهه واحمرّ وجههُ وربّتَ جاك على ظهره: «تعال يا بنيّ سنوصلك».

توقّفت سيّارتا جيب، وتجمّع سائقاها كصبية حمقى يتسكّعون في البلدة.

سمعا صوتاً من إحدى السّيارات: «كونا حذرين الآن. فقد تكون الشّوارع خطرةً ليلاً إذا كان الوقت متأخراً، فما يأتي بسهولة يذهب بسهولة، أليس كذلك يا روبرت؟». وانتشر الضّحك بينما غادرت سيّارتا الجيب.

قال دارو: «أخشى أنّني ربّما وضعت نفسي معك في خضم فضيحة صغيرة».

«لم نَفعل شيئاً».

«لكنّنا سنفعل».

«لن نفعل». قالت هيلين أمام المطعم وهي تنظر إلى وجهه. حيث كان المصباح يعكس ضوءاً ذهبيّاً على أطراف خدّه ونظّارته فلم تتمكن من رؤية عينيه ثم قالت: «كان ذلك مفاجئاً؟».

«هذا من مفاتيح الحياة هنا، متساميةٌ ومفاجئةٌ، مفاجئةٌ ومروّعةٌ كلّ شيء يصل إلى أقصى كثافته، لذا نحن جميعاً عالقون هنا».

«أنت لا تخيفني، أخبرني هل يحصل سام دارو العظيم على الفتيات دوماً؟».

«هو لم يحصل على الفتاة، لماذا تظنّينه موجود هنا؟ فالولد الّذي لا يستطيع الكلام يتعلّم التقاط الصّور، يوجد دمٌ على ثوبك هل تعلمين؟».

نظرت إلى الأسفل ورأت اللّطخات الّتي لم تكن واضحة عندما كانت مبلّلة، على حاشية الثوب، وتوتّر وجهها لإعادة المشهد في ذهنها: «البطّ والكلب الّذي يركض وفي فمه إحداها».

انحنى دارو ومسح قماش الثّوب بمنديله لكن الدّم كان قد جفّ: «هل تستطيعين المشي بهذه الأشياء؟» قال لها مشيراً إلى الحذاء العالي.

«بالتّأكيد».

«أريد أن أريك شيئاً، ليس بعيداً من هنا».

«لا أدري ربّما من الأفضل أن نعود». لم تشعر بالشّجاعة وهي وحدها معه كما شعرت بها عندما كانت مع المجموعة. كانت تشعر بكثير من الوحدة والحنين إلى الوطن فكان صعباً أن تثق بانجذابها إلَى شخص ما.

«تعالي، لن أعضّك».

مشيا في الطّرق الضّيقة الملتوية حيث قام أصحاب المحالّ بإنزال لوحاتهم المكتوبة أغلبها بالفرنسيّة وبعضها بالفيتناميّة ليضعوا مكانها لوحات مكتوبةً بالإنجليزية. دارا حول الباعة في الرّصيف وارتطم كتفاهما ببعض أحياناً.

لـم تكـن تعرف إن كان يعجبها، لكن كان لديها شـغفٌ للعمل ولذاك البلد وهذا ما لم يكن موجوداً لدى الآخرين.

«لم يكن وجودي مرحّباً به اللّيلة». قالت.

قال دارو: «الشّباب؟ لا بأس بهم».

«إنهم لا يرغبون بوجود النّساء هنا».

«أنت مخطئةٌ فأنت شـيءٌ جديدٌ بالنّسبة لهم؛ لعبةٌ للتّسلية، انتظـرِي وسـترين كيف يتصرّفـون عندما يشـعرون بأنّك خطرٌ عليهم».

شعرتْ بيده على أسفل ظهرها عندما مشت بمحاذاة صناديق تعبئة. تردّد ثمّ سألها عمّا حدث لأخيها.

قالت الرّسالة: «إنّه مات بطلاً في إطلاق النّار وضحّى بنفسه من أجل أصدقائه، أحببت أخي ولكن لا يبدو هذا من شيمه».

قال دارو: «كان ذلك سـبباً كافياً للكثيرين ليبقوا بعيدين عن الحرب».

قالـت ضاحكةً: «لقد اعتنيت بمايكل عندما كانت أمّي تعمل بعـد أن مـات أبي، كنت أصلح كلّ لعبة يكسـرها، وكنت أدافع عنه عندمـا كان يدخـل في شـجارٍ مـع الصّبية الآخريـن. حتّى إنّني أعطيتـه نصيحةً تخصّ الفتاة الّتـي كان معجباً بها في المرحلة المتوسّـطة وقلت له: إنّني سـأكون بجانبه فـي أيّ وقت يحتاجني فيه، وبالطّبع لم أكن قريبة منه في المواقف المهمة».

نظـرت هيلـين عابسـةً إلـى لطـخ الـدّم علـى ثوبهـا: «كيف سأستطيع احتمال الحياة في الوطن؟».

«لقد تأخّرت فقد انتهت الأيّام الجميلة».

بعـد أن سـارا فـي الطّرق الرّئيسـة اسـتدارا يسـاراً ثـمّ يميناً ثمّ لليسـار من جديد ثم اسـتدارا عائدَين إلى المكان نفسـه حتّى

بـدا أنّهمـا قطعا مسـافةً طويلـةً ولكنّهما لـم يبتعدا كثيـراً. كان دارو يقودهـا فـي الشّـوارع حتّى تاهـت وكانت بوصلتهـا الوحيدة ذراعـه. كان هنـاك عالمٌ جديد أو عالمٌ قـديمٌ مخفيّ، كانت نصف الحوانيـت مضـاءةً بالكهربـاء وعادةً ما يكـون ضوءٌ واحـدٌ معلّقاً عاليـاً في السّـقف وباقي الحوانيت مضاءة بشـكل خافت بأضواء الكيروسـين الّتي كانت تومض وتجعل الغرفة تبدو كأنّها على قيد الحيـاة. كانت العديـد من الحوانيت بالكاد أكبر مـن خزانة، وكان لغزاً معرفةُ ما كانوا يضعونه هناك بغرض البيع في تلك الأماكن الضّيقـة المزدحمة. أحدهم كان يبيع الورق، الجرائد، ورقاً للكتابة وورقـاً للجزّارين. وحانوت آخر كان يبيع الخيوط ولكنّ محلاً آخر كان يبيع المقصّات والسّكاكين. كان بائعو الطّعام يدورون بالأكشاك المحمولـة. كانـت هنـاك رائحة بهار لـم تسـتطع أن تميّزها، كانت ممتزجةً بالبخور الجميل المحترق في الحوانيت، وكلّه كان متخماً برائحة الدّيزل والصّرف الصّحيّ والنّهر الموجود دوماً.

وصلا إلى مدخل الزّقاق الهلاليّ الّذي كان فائضاً بالماء بعد المطر والّذي أدى إلى ممرٍّ مظلم.

«الشّوارع هنا معروفةٌ باسم الحِرَف الّتي تمارَس فيها والأشياء الّتي تُباع هناك، شـارع المعكرونة، شـارع الأشـرعة، شـارع القطن، شارع الأكفان. فإذا طلبت من السّائق إحضارك إلى هنا فأخبريه أن يذهـب إلـى مـكان اللّقاء فـي شـارع الحرير أو شـارع الأوعية المطليّة».

«ما الدّاعي إلى مجيئي إلى هنا؟».

«لنذهب من هنا». قال متجاهلاً كلامها.

نظرت هيلين إلى المياه الزّيتيّة فاحمة السّـواد بارتياب بينما خطا داور خطواته فيها حتّى غطّت كاحليه.

«إنهم لا يُصلحون الحفر والمنخفضات هنا كثيراً».

«ربّما علينا تأجيل هذا لمرّة أخرى فحظر التجوّل سيبدأ بعد ساعة».

حملها بين ذراعيه من دون سابق إنذار عابراً بها البركة. احتشد الفيتناميّون والصينيّون في مدخل الزّقاق يضحكون ويشيرون بأيديهم. وسمعت هيلين بعض الرّجال يطلقون صيحات عالية لم تتمكّن من فهمها. وعلى الجانب الآخر من البركة استمرّ دارو في حملها.

قالت: «أنزلني، هذا غباء». واستمرّ في حملها.

«أنزلني». قالت. أنزلها ببطء ولكنّه أبقاها قريبةً من جسده، وعندما لامست قدماها الأرض كانت لا تزال محبوسةً بين ذراعيه.

«إذا لم تتوقّف عن ذلك فسوف أغادر».

«كيف؟ هنالك خندقٌ أمامك يمنعك من الحركة وستدمرين حذاءك الجميل».

تنهّدت وقالت: «سأخلع حذائي وأحمله وأنا أعبر البركة صدّقني».

«أصدّقك».

دخلا الزّقاق وأصبحت الأبنية الآن أقرب إلى بعضها وأضواء واجهات المحالّ خافتة أكثر. أحاط بهما الظلام ودنوهما من بعضهما وسارا كتفاً إلى كتف بينما دارو يمسك بيدها ودون أن تفلت يده. لم يمرّ بجانبهما أيّ شخص لكن لم يكن هناك أيّ شعور بالوحدة في تلك اللّيلة. وبدلاً عن ذلك بدا الطّريق كأنّه يعجّ بالنّاس حتّى إنّه بدا مزدحماً وبدا لها أنّها إذا مدّت يدها فستلمس شخصاً آخر مستنداً على الجدار واقفاً ومنتظراً أن

يمـرّا. خطرت في بالها للحظـة صورةُ الرّجـل الفيتنامـيّ (لين) وكيـف وقـف بعيداً عـن المجموعَة وذهـب وحيداً. هـل كان واقفاً يحبس أنفاسه في مكانٍ قريب؟

مشـيا بصمت حتّـى وصلاً إلى مبنىً اسـتعماريّ من الجصّ الأصفـر اللّـون وكان مؤلّفاً من طابقين حيـث بدا كأنّه مائلٌ إلى اليسار وكأنّه ينام مع جاره.

كانت واجهة المبنى مغطّاةً بخطوط صفراء طويلة من جرّاء المطر والرّطوبـة. كان له المظهر المعتّق مثل الأبنية القديمةَ في فينيسـيا. كان الرّواق عند المدخل والسّقف مرصوفاً بسيراميك كوبالت صينيّ أزرق. أمّـا الزّوايا فكانت معقوفةً إلى الأعلى في نقاط معيّنة أشـبه بزوايـا فم خبيث مقلـوب. كان مزيجاً مثيراً للحضارات خلق جمالاً غريبـاً، وكان البـاب الأماميّ للمبنى مصنوعاً من الخشـب المصقول مرسوماً عليه مربّعات تبيّن بوذا في مشاهد تنوير مختلفة.

قالت هيلين وهي تمرّر يدها على اللّوحة: «جميل».

«كان يعيش هنا رسّام وعندما لم يستطع أن يدفع أجرة البيت طلب منه صاحب البيت أن يصنع شيئاً يعادل قيمة الإيجار».

نظـرت هيلـين إلـى الطّـاووس الواقف علـى الصّخـور وإلى الفيلة الّتي تمشي بجانب الخيزران، والنّمور الجاثمة عند شجر النّخيل والانتشار الواسع لشجر البودي وبحيرات أزهار اللّوتس.

«يجب أن تكون في متحف».

«هذا جزءٌ ممّا أحبّه هنا. ليس كلّ شـيءٍ مخفياً خلف الزّجاج والأقفال. فأنت تعيش مع التّاريخ كجزءٍ من حياتك ولا تراه فقط فـي رحلـة استكشـافيّة. تقول الأسـطورة: إنّه عمل بها لمدّة سـنة، وعندما أنجزها هرب ولم يسمع أحدٌ عنه أيّ شيءٍ بعد ذلك».

«لماذا؟».

«لقد كان ذلك خلال الحرب مع الفرنسيّين. فلم يستطع أن يكسب رزقاً كافياً ليتزّوج الفتاة الّتي يحبّها فتزوّجت من جنديّ آخر. لا أعرف إن كانت القصّة صحيحةً أو انّها مجرّد حكاية خرافيّة شعبيّة. لكنّ الباب حقيقيّ. لقد عاش أحد أصدقائيَ هنا ولا أزال أحتفظ بهذا المكان».

«ظننت أنّك تقيم في غرفة في فندق كونتيننتال».

«تلك الغرفة الّتي تدفع ثمنها وكالة لايف هي مكان إقامتي الرّسميّ أمّا هنا فحياتي الحقيقيّة». فتح دارو الباب وانتظرها أن تدخل.

صعدا الأدراج الظّليلة التي كانت تميل إلى اليمين بمسافة عدّة خطوات ثمّ تميل إلى اليسار بعد ذلك، كما لو أن الذي ثبتهاَ إلى بعضها كان شخصاً يشعر بأمواج البحر تحت قدميه. بدا الخشب رقيقاً وخفيفاً كخشب (البلسا) وكانت الدّعامات ملتويةً من المنتصف وتصدر أنيناً تحت كلّ وطأة قدم.

«هل أنت متأكّد من أنّ المكان آمنٌ؟».

«هذا بناءٌ قديمٌ وما زال آمناً حتّى الآن».

سحب دارو هيكل مفتاح نحاسيٍّ قديم الطّراز أمام باب رقيق ليفتح القفل وقال: «هذاً المفتاح يفتح فقط هذا البابَ وعدّة أبواب أخرى في (تشولون)».

وعندما دخل الغرفة نقر على مصباح صغير ينشر ضوءاً حريرياً أحمر. كانت تصدر عن الغرفة رائحةُ غبار وعدم استخدام أشبه برائحة أكوام مكتبة قديمة.

عطس ومشى باتّجاه النّافَذة وفتحها. كانت الغرفة رثّةً مفروشةً فقط بسرير حديديّ قديم وخزانة وكرسيّين من الخشب، والزّينة الوحيَدة الموجودة فيَها كانتَ المصباح والمرآة الكبيرة المعلّقة بإطارِ مستديرِ مذهّب.

قالت هيلين مشيرةً بعينيها إلى الضّوء والظّل الأحمر: «هذه لمسةٌ أنثويّةٌ بحتةٌ».

«إنّ هنـري هو الّذي اسـتأجر هذا المـكان وكان على علاقة مع فتـاة فيتناميّـة ويبدو أنّ هذه لمسـتها. سـمحت لهـا أن تأخذَ ما تشاءَ لكنّها تركته خلفها».

«أين هنري؟ هل عاد إلى الوطن؟».

«إنه في وطنه الآن، كان أمريكيّاً لكنّه عشق فيتنام، لقد مزّقته الحرب. سـأريك بعضاً من أعماله، لقد كان في طريقه أن يصبح مصوّراً مشهوراً».

«أين هو؟».

«لقـد مات منذ عامين وهو يغطّي عمليّـةً في منطقة الدّلتا. لقـد كان هنـري متهـوّراً وكنت أرفـض الخروج معه فـي مهمّاته. لكنّـه كان متهـوراً. وهـذا درسٌ مـن قواعد اللّباقـة والإتكيت أنت بحاجـة إليـه هنـا، وهو ألا تسـألي مطلقـاً عمّا حـدث لأحدهمَ فالجوابَ عادةً سيئٌ».

«ليست شقّةً محظوظةً لمَن أقاموا فيها».

«مـن الأحـرى أن نقول ليـس بلداً محظوظـاً. أعطاني هنري مفتاحاً. هذا هو المكان الّذي أستطيع الهروب إليه عندما أحتاج لذلك».

مشـت هيلـين إلـى النّافذة واتّـكأت على الحافّة. اسـتطاعت أن تشـتمّ رائحة الغبار والمطر وأن تسـمع النّاس الّذين يمشـون في الزّقاق وصوت موسـيقى البوب الفيتناميّة الصّادرة عن راديو ترانسستور وقالت: «هل أنت هاربٌ الآن؟».

«أنـا أشـبه بالمحاصر الآن». وبعدها انقطعـت الكهرباء كما لو أنّها أجابت عن السّؤال.

«لقد تولّت كهرباء سايفون العظيمة الموضوع مرّةً أخرى».
تلمّس دارو طريقه إلى الطّاولة وأشعل شمعةً.
ظهر في أعلى وأسفل الطّريق المظلم نبض لهب بطيءٍ أشبه بفراشات النّار.
«لماذا أحضرتني إلى هنا؟».
وقف دارو إلى جانبها بتحفّظ وحدّق في الخارج عبر النّافذة كأنّه ينتظر شيئاً ما يحدث. لم يُرد ان يقول لها ذلك لأنّها بدت مرعوبةً وخائفةً، وكانت غير كفء للّذي جاءت لتفعله، ولا هو أراد الاعتراف بأنّه وجدها جميلةً.
«هل ترين الشّجرة أمام المبنى؟ إنّها عارية جرداء الآن لكنّها تُزهر زهوراً حمراء كبيرةً في الرّبيع. كان هنري وفتاته يقيمان حفلات كلّ ربيع للاحتفال بأزهارها. قصّةٌ آسيويّةٌ بحتةٌ كقصصِ الجنيات». ضحك دارو مع نفسه. «لقد أحبّ هنري كلّ هذه الأشياء وأقسم ألا يعود إلى الولايات المتّحدة وقال: إنّ أمريكا أخافته أكثر ممّا استطاعت أيّ حربٍ أن تفعل».
«ماذا حدث لفتاة الضّوء الأحمر؟».
قال دارو مستهجَناً: «لا أعلم اختفت، وجدت شخصاً آخر. لا تملك النّساء المحلّيات هنا خياراً بعد أن يختلطن مع الرّجال البيض». برّر دارو أفعاله مع النّساء المحلّيات أنّه إذا لم يكن هو فسيعرضنَ انفسهنَّ على أحد آخر. عاملهنّ بلطف ثمّ نسي أمرهنّ فجأةً. أضجره الوفاءُ وإشارات الهجر غيرُ المجدية، وتحوّل إلى برجوازيّ عمليّ في وقت الحرب.
«يوجد شيءٌ جميلٌ هنا حتّى ونحن ننظر إليه أو نتواصل معه، بإمكاننا أن نغيّره. إذاً لماذا تواعدين ذاك المتبجّح روبرت؟».

«يا لوقاحتك! نحن أصدقاء».

صبّ كأسين من الويسكي من الخزانة وأعطاها واحداً. كان الكأس ثقيلاً ومربّعاً وله قاعدةٌ كريستاليّة عريضة».

«أليست هذه الكؤوس من البار الّذي في الفندق؟».

ابتسم وقال: «دائماً أنسى أن أعيدها».

رشفت مشروبها بصمت وهي تستمع إلى الأصوات الخارجيّة وإلى ثقل الهواء الدّافئ المتحرّك في الغرفة، أعاد ملء الكؤوس وجلس قبالتها.

قالت أخيراً: «يعجبني هذا المكان». وما لم تقله إنّها المرّة الأولى الّتي أحسّت فيها بالأمان منذ أن وصلت إلى البلد.

«هذه هي فيتنام الحقيقيّة فعندما آتي إلى هنا يهدأ عقلي.. أستطيع أن أخمّن ما هو جيّد في المكان وما الذي يرغب النّاس في الاحتفاظ به. فهذا المكان ينسيك فندق كارفيل وفندق كونتيننتال حيث تعيشين بغرفهم المكيّفة والخدم ومكعّبات الثّلج، ويبدأ مشجّعو الحرب بالخروج لتعجّ بهم المطاعم والنّوادي اللّيليّة، وتقام الحفلات كلّ ليلة فسايغون بالنّسبة لهم مثل كازابلانكا أو برلين؛ لأنّ المشهد يجري هنا الآن. كلّ مجموعات النّوادي هنا يتنقّلون بنسخة من كتب (غراهام غرين) تحت إبطهم. متأسّفٌ على إلقاء الخطابات، أنا ثمل».

وضعت هيلين كأسها على الأرض: «برأيك يجب ألا أكون هنا إذاً».

نظر إليها وهو يأسرها بعينيه ويقيم تعابيرها بهدوء: «أنت أخبريني، هل يجب أن تكوني هنا؟ لا تظنّي أبداً أنّ وجودك هنا لن يغيّرك».

«أخبرني حقّاً ما رأيك؟».

«لقد جرحت مشاعرك».

«لقد جعلت روبرت يأخذني إلى الغداء اليوم لأنّي عرفت أنّك ستكون موجوداً هناك».

رفع دارو حواجبه وقال: «هل يجب أن أعدّ هذا إطراءً؟».

«كلُّ ما جعلوني أنجزه حتّى الآن هو تصوير ما يتعلّق بالأمور الإنسانيّة من أرامل وأيتام إلى جنود جرحى. أحتاج لأحدٍ ما يخرجني إلى الميدان».

رفّ عينيه دون رغبة منه بأن يعترفَ بجرح مشاعره لأن الأسباب التي ساقتها لَم تكن رومانسيّة. كان عادةً ما ينجح في استخدام الكلام المعسول للصّحافيّ الخارج من المعركة. «هناك فقط عددٌ قليلٌ من النّساء يغطّين المعركة ولا أحد يخوضها، فهي خطيرةٌ جدّاً ومرعبةٌ، حتّى الرّجال لا يحبّونها فمن الصّعب العمل فيها لأنّها عملٌ شاقٌّ، عمري أربعون عاماً وأبدو في الخمسين وأشعر أنّ عمري ستّون».

قالت هيلين: «كتب أخي لي رسالةً قبل أن يُقتل، قال فيها إنّه مهما حدث فلن يندم على المجيء، كنت بحاجة لأن أرى كل شيء بنفسي، والوسيلة الوحيدة للشّهرة هي تغطية المعركة. أليس هذا صحيحاً؟ لقد تركت الكلّية لأنّي كنت قلقةً أن تنتهي الحرب عندما أتخرّج».

لاحقاً ستندم على غبائها، لكنّ اعترافها في ذلك الوقت بتلك الحقيقة القاسية بدا جريئاً. كيف ستفسر كلّ السّنوات الّتي كانت فيها مسترجلةً وترفض الألعاب والفساتين ودائماً موجودةٌ مع الصّبية؟ كانت فكرة الجنديّة موجودةً لدى مايكل ولدى والدها لكنّهما أبعداها عنها. كانت تبكي عندما يُطلَب منها البقاء في المطبخ مع والدتها ومع خبز المعجّنات. كان مايكل يسخر عندما كانوا يذهبون للصّيد ويقول لا يمكنك

المجيء.. لا يمكنك المجيء.

انحنى دارو أمامها. كان إعجابه بها يقلّ ويتضاءل، ممّا سهّل عليه إغواءها الآن.

«لا أحد سيقول: إنّني لم أحاول، تعالي معي في دوريّة الغد وستختبرين نصيبك من الأمور. ستفعلين ذلك على كلّ الأحوال. أليس كذلك؟».

«صحيح».

كانت الفتاة ممتلئةً بالطّموح والارتياب والشّغف. كانت مثله مغايرةً تماماً لزوجته الّتي كانت هادئةً واضحةً وحادّة، وكانت تشكّل عائقاً مستمرّاً يمنعه من فعل ما يحبّ. كان لغزاً أنّها تزوّجته فقط لتشعره بالذّنب لما فعله. وكان جدالهما يلتفّ دائماً كدوائرَ مثل كلب يطارد ذيله. كان يصرخ: (إنّه الشّيء الوحيد الّذي أجيده)، لَكنّ الحقيقة أنّه الشّيء الوحيد الّذي جعله يشعر أنّه على قيد الحياة.

«هل نحن متّفقان؟ أعني هل الأمور بيننا بخير؟».

مدّت هيلين يدها وسحبت نظّاراته برقّة، وبالرّغم من مظهرها فإنها كانت في الحقيقة مرتعبةً ممّا شاهدته في المشفى، وفكرة رفض رجل أرادته في تلك اللّيلة بدت لها سخيفةً، ما الذي سيحدث لو رحلت غداً مثلما فعل هنري؟

عبست وقالت: «هل من شيء بيننا؟».

وضع يديه على أطراف كرسيّها ولاحظت أنّهما ترتجفان، لقد كان أمراً جيّداً أنّ كليهما لم يكن مدرّباً وخبيراً في أمور الإغواء.

«لديّ جسارةٌ وثباتٌ في الميدان أمام كل التّداعيات وكلّ الظّروف».

مــرّرت اصابعهــا علــى النّدبة الّتــي في ذراعه وســألت: «كيف حدث لك ذلك؟».

امتعض وقال: «زوجٌ غاضبٌ».

ضحكــت

«اظــنّ انّ ذلــك حــدث فــي الجزائــر، فمن الصّعــب تذكّــر حادثةً وفصلهــا عن الأخرى. علينا مناقشــة ذلك. هل يجب أن نكشــف كلّ شيءٍ أم نحافظ عليه سرّاً؟».

«لقدْ انكشف السرّ قليلاً».

«هــذا صحيحٌ ولكن هل انتِ على اســتعدادٍ ان تكوني عشــيقة رجلٍ متزوّج؟».

طَوى النّظارات ووضعها في جيب قميصه.

قال: «أنت جميلة».

هــي لــمَ تكن جميلــةً ولكنّها لم تصحّــح معلوماته، وتغاضت عما قاله مقتنعةً انّ جمالها كان كافياً لتلك اللّحظة.

قــال: «اللّيلــة مُلكنــا فقــط ولا شــيء لنفعلــه غــداً، هــل أنتِ موافقة؟».

أومــأت براســها وابتعــدت عنه ثــمّ وقفت وعبــرت الغرفة إلى المرآة.

كان الزمن يتوقف عندما كانت في الوطن، كانت دائماً نافذة الصّبر وقلقةً. حاولت ان تحبس أنفاســها وتكون هادئةً مثل تلك الغرفة. «لم تسألني لماذا أتيت إلى هنا اليوم؟».

«فكّرت أنك ســتخبرينني إذا أردت ذلك، وسأكتشف السّبب في الوقت المناسبَ».

قال روبرت: «إنّكَ من المسحورين»، وقال: «إنّ الجميع يحاولون البقــاء بالقــرب منــك لأنهــم يعتقدون انهــم ســيكونون بأمانٍ».

أحسّت أنّها بدت حمقاء كطفلة بعد أن خرجت تلك الكلمات من فمها.

«روبرت المسكين ما يزال يؤمن بقصّة (جنيّة الأسنان)».

«طلبت منه مسبقاً أن يساعدني لكنّه رفض».

«حسناً لقد أحسن عملاً».

«قال إنّك لا أخلاقي وستفعل أيّ شيء للحصول على صورة، ولا مشكلة لديك في النّوم مع امرأة أو إطلاقها بعيداً».

تفاجأ دارو وبدا متعباً. نهض وتحرّك ليقف خلفها ويفكّ ثوبها من الخلف ببطء زرّاً واحداً في كل مرة.

«لكنّك أتيت على كلّ الأحوال، لم أنته من المقطع الذي كنت أتلوه في المطعم اللّيلة، فآخر مرّة كنت خارجاً في مهمّة، كان الكتاب الوحيد الّذي في حوزتي هو نسخةٌ مهترئةٌ من (الإلياذة)، فكنت أحفظ بعض المقاطع:

(ولأنّها كانت بذاك السّحر علينا إرسالها إلى الوطن بالسّفن الكبيرة وألا نتركها خلفنا.. لنندم نحن وأولادنا طوال السّنوات القادمة، ندماً لا يمكن احتماله).

سمعت صوت تذمّر من داخل المبنى بينما كانت الكهرباء تضعف أوّلاً إلى نصف قوّتها ثمّ تنقطع بالكامل، ثمّ من الظّلام إلى النّور ممّا أربكها وجعلها تشعر أنّها رخيصةٌ بثوبها نصف المفتوح وحمّالة صدرها الظّاهرة. قلّت رغبتها ومدّت يديها لتقفل الأزرار الّتي فُتحت. «علينا أن نذهب فروبرت سيكون في الفندق».

«حقّاً؟ هل خفت من نفسك فجأةً؟» رأى وجهها محمرّاً وهي تتنقّل في الغرفة وتجمع أشياءها. لم تكن بتلك السّهولة الّتي ظنّها. هل تمّ خداعه؟ حتّى لو كان الأمر كذلك فقد فتنته، ربّما قد التقى أخيراً بنفسه على صورة أنثى.

«لمـاذا تفترضـين أنّ مَن يحبّوننـا بأكبر قدر هـم ذاتهم الّذين يحاولون إيقافنا عن فعل ما نحبّ هل تركت أيّ أحد خلفك؟».

«لا .. فلـو وُجـد أحـدٌ بتلـك الأهميّة لما أتيت ولمَا كنت بتلك الأنانيّة الّتي أنا عليها».

«أنت مخطئةٌ بذلك».

«كيفَ ذلك؟».

«أحيانـاً ربّما عليـك الوفاء بوعد لكي تسـتحقّي الحبّ الّذي تتلقّينـه. ألا تظنّين أنّ العيـش تحتَ الخطر لمجرّد التقاط صور وجوه مَن يعانون هو نداءٌ في حدّ ذاته، فقط لنُري العالم حياتهم المخفيّة».

مشـت بجانبـه وعبرت الباب: «أنا ذاهبـةٌ معك أو من دونك». مشت في الرّدهة رافضةً أن تنظر خلفها، رافضةً الاعتراف أنّه إذا لم يلحق بها عندما تصل إلى الزّقاق فسوف تضيع حتماً.

عندمـا كانـت ومايـكل طفلـين كان الاختبـاء هـو لعبتهمـا المفضّلـة. وكانت هيلـين دوماً تبحث عن أصعـب أماكن الاختباء الممكنة دون أن ينتهي الوقت، وغالباً ما كانت تشـرد حالمةً وتنسى أنّها كانت تلعب وتنتظـر في الحجرة المظلمـة متمنّيةً بيأسٍ أن يتمّ العثور عليها.

(4)
بلدٌ هنديّ

في قاعدة (بيان هوا) الجويّة وقفت هيلين في ظلّ سقيفة معدنيّة وإشارة: (كن حذراً) مكتوبة فوق رأسها باللّون الأحمرَ الباهت والكلمات تحتها مختفيةٌ متلاشيةٌ من آثار الشّمس والمطر. كانت المنطقة المخفورة تُعَدُّ منطقةً خاويةً. وكان البحث الروتيني عن بعض الأهوار وقريتين صغيرتين يمثل حضوراً وطنياً.

أدار دارو عينيه نحوها بينما كان يخاطب ضابطاً برتبة «مقدم» لكي يأخذ هيلين معه، وسمعت أثناء ذلك كلمات مثل (عبء إضافيّ) و(نقص التّسهيلات)، لكنّ الرّجل استسلم بعدها بسبب دَين مقامرة كان مديناً به لدارو.

بينما كانت هيلين تنتظر وسيلة نقل تقلّها تخبّطت بين كاميراتها الّتي حصلت عليها حديثاً والّتي كانت أفخر من كاميرا (الأنستاماتيك) الّتي اعتادت عليها، قالت بهدوء وعيناها إلى الأسفل: «هل ممكن أن تُريني كيف أضع الأفلام في هذه الكاميرات؟». لم يقل دارو شيئاً فلم يكن أمامه خيارٌ آخر إلا أن يطيع. أراها تقنيّات التّصوير الأساسيّة خلال الخمس عشرةَ دقيقةً الّتي أخذوها لتحميل المعدّات. سألته محاولةً التّصرف بطبيعيّة: «أين لين؟».

«إنّه في إجازة لعدّة أيام لأمور شخصيّة».

حوّمت طائرةُ الهيلوكوبتر قريباً منَ الأرض، وقفز الجنود وركضوا وفعلت هيلين مثلهم وشعرت بكلّ عظامها الصغيرة تطحنُ عظام الآخرين، ركضوا إلى جدار رمليٍّ من عيدان القصب أمام المستنقع وقرفصوا على الأرضَ الجافّة في الخلف منتظرين المروحيّة التّالية أن تُعبئ حمولتها. ولم تبدأ طلقات القنّاصين بإطلاق أصوات في الهواء حتّى نزل آخر جنديّ.

«لا يُفترض أن يحدث ذلكٍ». قالت، بينما شبت المروحيّة الأخيرة كالضّحيّة الخائفة ومقدّمتها إلى الأرض حتّى اختفت خلف الأشجار. همس أحد الجنود: «اخرسي».

بدت الأرض بعد ارتجاج المروحيّة وهديرها هادئةً ومسالمةً ما عدا صوت أنين طلقات صادم أشبه بالحشرات يمرّ على مسامعها. قلّ مدى رؤيتها إلى عدّة أقدام بينها وبين الجدار الرّملي وقمم الأشجار البعيدة. اشتدّت الحرارة في ملابسها ولسعت الحصى راحةَ يديها المقلوبتين إلى الأسفل. بدا الخطر غير حقيقيّ مثل فيلم سينمائي أو كيوم تدريبيّ على المناورة، وكان هناك قنّاصٌ ضجرٌ يطلق رصاصات فارغةً من خلف شجرة. نبض قلبُها سريعاً في صدرها لفكرة وجود عدوّ حقيقيّ أمامهم.

زحف المقدم (شافر) إليها وقال: «ابقي منبطحة هنا سنذهب إلى خطّ الأشجار».

تحرّك دارو إلى الأمام مع باقي الرّجال ودخلوا إلى المستنقع الّذي يصل علوّه إلى مستوى الخصر. رأته كأنّها تراه للمرّة الأولى، أكثر الصور الحقيقيّة له، رأت دزينة من الرّجال يتحرّكون كمجموعة ويظهرون من الخصر إلى الأعلى بحقائبهم وخوذهم وأسلحتهم المرتفعة الّتي تميزهم ورأس واحد عارٍ بكاميرا مرفوعة.

لقد تنازل للعقيد عن دَين قدره خمسةٌ وتسعون دولاراً ليمكّنها من الصعود على متن الطّائرة، ولكنه عاملها كأنّها غريبةٌ عنه ممّا جرح مشاعرها. على الرّغم من أنّها فهمت ضرورة ذلك. أدار دارو ظهره لتأمين الموقع الخلفيّ لهيلين، وللتّفكير في سايغون، وربّما في أمريكا، وكان كلّ تركيزه منصبّاً على عمق المستنقع والعمق الأبعد للأدغال والحرب والأسرار الّتي لم يكتشفها بعد. احترمته دون أن تفهم ما الّذي يدفعه لذلك وشعرت بالغباء من شدّة الخوف.

رفعت رأسها ورأت أشجار (الأيكالبتوس) المصفوفة كمصدّات للرّياح الّتي كانت تراها في أمريكا بين بساتين الحمضيّات. أزعجها بشكل مضاعف تعرّفها على الأشجار الّتي كانت في حالة سيّئةً في ذاك المشهد.

في الوطن كانت تتوق إلى نظافة وهدوء بيت والدتها وإلى الرّائحة العفنة للغرف القريبة من الشّاطئ. وإلى كلّ الأيّام السّعيدة الّتي كانوا يركبون الأمواج فيها والشّمس الحارقة والمياه الدّوارة؛ الأيّام الّتي كانت تلحس فيها شفتيها الطّفوليّتين المالحتين أو المتلئتين بالآيس كريم. الممرّات المزدحمة بجانب الشّاطئ والسّياح المحروقين بلون وردي وأهل المدينة الّذين تحوّل لونهم إلى البرونزيّ، وأوقات الضحك مع أصدقائها على الجذوع البنّية اللّينة للصبية الكبار الّذين كانوا يلعبون كرة السّلة دوماً من دون قمصان وهم يتجاهلونهم دوماً. يمشون بجانب المطاعم ذات المظلات المرفوعة وأغطية الطّاولات البيضاء وزجاجات النّبيذ الرّخيصة على الطّاولة لإغراء الزّبائن، والنّادل قاسي الملامح الذي أصابه الضجر.

كان فمها جافّاً والهواء قد كَشف ضحالة رئتيها لأنّ حقيقة وجودها في ذلك المكان كانت تسيطر عليها. كانت ترتعش من

اندفاع الخوف الغريب، وأحسّت بشعور دافئ رطب وحارق عندما أدركت أنها تبوّلت على نفسها. ضغطتْ خدّها على التراب، وكانت مقدّمة الخوذة تقضم اذنها، ومع أنها كانت خوذة رجل صغير لكنها كانت كبيرةً جداً بالنسبة لها. وهناك الرّائحةُ الحادّةُ للعشب المحروق الممتزج برائحة البارود، والرّائحة الحلوة نوعاً ما لبولها الّتي جعلتها تخجل من نفسها.

لم تكن قد تأهبت لعمل أي شيء بسبب تفاهة الحدث، واستبد بها الملل لحظة تتبع الأخرى. ففي فكرها، نعم، كان هناك اناس يحاولون قتلهم، نعم ممكن أن يموت رجالٌ امريكيّون لكن كلّ هذه الأمور كانت تخصّ التّلفاز. كانت منبطحةً على الأرض يخزها العشب الميّت، وفكرة أنها هي نفسها يمكن أن تكون هدفاً لطلقات الرّصاص أصبحت فكرةً حقيقيّة. لكنّها كانت مستلقيةً هناك طوال الوقت يرعبها الإحراج من فكرة أنها بللت نفسها، فحلّت المشكلة بصبّ الماء من القربة على أجزاء من سروالها.

مضت دقائقُ، وسمعت صرخةً أمامها؛ لقد أصيب أحد الجنود في الفخذ فزحفت هيلين إلى المجموعة بينما همّ الطبيب المسعف بتضميد جراح الجنديّ وأعطاه حقنةً سريعةً من المورفين. كانت حركتها الخفيفة أفضل من الشّلل، وكان الجنديّ مستلقياً على ظهره وعيناه مفتوحتان على اتّساعهما وقد أخذ يهذي.

قال الطبيب مرتجفاً: «هو بخير، يعاني من توتر عصبي على الأغلب، لا بد أنها أوّل مرّة يشارك بها في الحرب».

التوت شفاه الجنديّ ساخراً: «إنّهم يقولون ذلك لأيّ أحد لم يمت بعد».

لمست هيلين يد الجنديّ الصبي وسألته: «ما اسمك؟».

«كورت».

قال الطبيب: «اخرس يا كورت علينا أن نسمّيك يلو».

توقّف إطلاق النّار وبعد نصف ساعة أخرى اجتمعت الحملة مع بعضها منتظرةً على طريق طينيّ مفتوح طائرة الهيلوكوبتر لإخلاء الجريح. جفّ الطّريقُ الوحليّ السّميك وأصبح قاسياً ومظلماً، إضافةً إلى الإعياء الذي حل بهم في الهواء الحارق، حتّى سروال هيلين الغامق لم يلاحظه أحد.

خلع الجنود ستراتهم الواقية من الرّصاص ممّا يخالف التّعليمات ودخّنوا السّجائر وخلعوا جواربهم وهم ينتظرون.

انضمّت هيلين إلى مجموعة جالسة تحت شجرة. خلعت خوذتها بذعر، وأراحها أنّ المواجهةَ انتهت وأدركت أنها لم تلتقط أيّة صورة، وأنها في الواقع نسيت أمر الكاميرات كلّها.

وكان ممّا ندمت عليه لسنوات أنّها لم تلتقط صورةً لدارو وهو في المستنقع. بقيت تلك الصّورة الوحيدة محفورة في ذهنها؛ ربّما لأنّها لم تملك الفيلم الخاصّ بها لتعود إليه لاحقاً، فحالما يتمّ التقاط الصّورة يتم إفراغ التجربة من الشحنة التي تعيش فيها.

كان كورت يتحدّث ويقول النّكت بصوت عال، فطلب إليه المقدم (شافر) أن يخفض صوته: «ما من داعٍ للاحتفال بذهابك إلى المشفى».

قال كورت من خلف ظهره: «بالطّبع هناك داع».

قرفص دارو بضع خطوات قريباً من هيلينَ وصوّرها وقال: «لم يكن ذلك حدثاً كبيراً، ما رأيك يا ملكة حفل التّخرج؟».

مسحت جبينها وابتسمت ابتسامةً متجهمةً وقالت: «لا بأس به».

عرفت من الطّريقة الّتي نظر بها إليها أنّه أحسّ بأنها متجمّدة.

«حماس أكثر ممّا توقّعنا، الأمر واضحٌ هكذا؛ حتّى لا يحدث مرّة أخرى أو يتكرر من جديد، انتهى درس اليوم، سافري عائدةً من هذه الرّحلة».

«لا».

إذا غادَرَت الآن فستكون خاوية اليدين دون أيّة صورة التقطتها، وستكون خاطرت بكلّ شيءٍ من أجل لا شيء.

«لا يوجد أحد في صفّ الأشجار، وهذا يعني أنّه من المحتمل أنّهم تراجعوا إلى القرية لينتظرونا هناك، لم يعد الأمر يتعلّق بأمر الأشجار الآمنة».

«أستطيع تحمّل ذلك».

«يكفي هذا اليوم. إنني أناشدك. لكنّ شافر سيصدر إليك الأمر».

أعدّت هيلين نفسها بينما علت المروحيّة وارتفعت، وزحفت مثل سرطان البحر على الأرض المعدنيّة المموّجة مقتربةً من كورت ومبتعدةً عن باقي الرّجال، بدا كورت أصغر عمراً، بعينيه الزرقاوين الصّافيتين المتّسعتين من أثر المورفين، وبشفتيه المحمرّتين كشفاه طفل.

«يبدو أنّ لدينا أنا وأنت بطاقة خروج من هنا».

صرخ في أذنها وقال: «ألسنا أذكياء؟».

«لن تصدّق ماذا فعلت فقط لكي أصل إلى هنا».

«ماذا دهاك؟».

امتعضت وسألته: «من أين أنت؟».

«فيلادلفيا».

«أنا من جنوب كاليفورنيا».

«عندما أخرج من هنا سوف أذهب مباشرةً إلى شاطئ (هرموزا) وأتعلّم ركوب الأمواج».

«كان أخي يذهب إلى هناك طول الوقت».

«هل هو أمر شيق؟».

«إنّها عاصمة ركوب الأمواج».

فكّرت بالمياه على رصيف الميناء هناك في وطنها، كيف لم تحتمل في أحد الأيّام جلوسها على الشّاطئ مع كلّ صديقاتها؟ حيث استعارت قارباً من مايكل وأصدقائه وجدّفت نحو الأمواج العاتية. تعثّرت خائفةً أثناء ركوب الأمواج وارتطمت بالقاع الرّمليّ مرّة بعد أخرى لكنّها لم تتوقّف عن المحاولة. وفي أوّل مرّة وقفت على اللّوح ورأت الشّاطئ أمامها شعرت أنّها لا تقهر. لقد حدث كلّ شيء بسرعة خلال إطلاق النّار، وهي الآن تحس بالفشل.

قال كورت: «لا أستطيع الانتظار».

«هل تريدني أن أصوّرك؟ سأرسل الصّور إليك».

«حسناً».

التقطت دفتر ملاحظاتها وسجّلت رقمه العسكريّ بينما أصبح هو أكثر هدوءاً.

«أتعدينني أن ترسليها؟ ربّما إلى والدي في حال لم أكن موجوداً».

قالت هيلين بخفّة مدّعيةً أنّها لم تسمع كلماته الأخيرة: «إذا كانت في هذا المدوّنة فستحصل عليها وسيرسلونها إلى مكان إصدار أوراقك المحلّية وستكون بطلاً في الوطن».

«اللّعنة على النّاس في الوطن. سوف يتمّ تضميد هذا الجرح وسأعود إلى الضّياع خلال عدّة أسابيع، لقد وعدت نفسي أنّي

ســأخرج واقتل عدوّاً واحداً على الأقــلّ قبل أن أغادر هذا المكان».
استلقى بظهره إلى الخلف وبقيا صامتين طول طريق العودة.

عندما عادت إلى الفندق في تلك اللّيلة أخذت حمّاماً طويلاً دافئاً. كان أوّل ما فعلته بعد أن عادت من الشــقّة في (تشــولون) هو أن تلقي نسخة كتاب (الأمريكيّ الهادئ) في صندوق القمامة، لكــنّ خادم الغرفة الّذي كان ولــداً نحيل الكتفين بأهداب طويلة كأهــداب فتاة أخرجه مــن الصندوق وأعاده إلــى الطّاولةَ دون أنَ يســتوعب أنّ كتابــاً بحالة ممتــازة يمكن إلقاؤه بهذا الشــكل، ثمّ طرق الباب وســلّمها رســالَةً من روبــرت؛ أنّ مجموعةً منهم كانوا يدعونها لتناول الغداء في غرفة الطعام في الفندق. لن تستطيع مواجهتهــم في تلك اللّيلة خاصةً بعــد الكارثة التي حدثت بعد الظّهر. نظرت إلى الولد: «لقد انتهيت من الكتاب، هل تريده؟».

أشار بيده وصعقتها كياسة حركته: «أتبيعينه؟».

قالت: «بعه أنت واحتفظ بالمال».

نظر إلى الكتاب بتأن وامتعض امتعاضةً رقيقةً.

«لقــد غيــرت رأيي، اتركه هنــا اللّيلة وخذه فــي الصّباح». ومع أنهــا قرأتــه اثنتــي عشــرة مــرةً على الأقــلّ تاقــت لأن تضيع بين ســطوره اللّيلــة وترتــاح فــي تضمينات (فاولــر) أو بــراءة (بايل)، أرادت أن توازن غدر الحياة أو أمانها بضمانات وجدتها في كتاب. لقــد كانت دوماً قارئةً متعطّشــةً لكن عادة القَــراءة لديها عندما أصبحــت بالغــةً تغيّرت، وهي لا تعترف بأنها بدأت تفهم كتاباً إلا بعد أن تقرأه لعدّة مرّات.

آلمهــا رأســها حين تذكرت أنها كانت مســتلقيةً في حالة شــبه شــلل فــي الحقل قبل وقت قصير في ذلــك اليوم، وهي الآن تقف في تلك الغرفة في اللّيلة نفســها، ولم يكن بالإمكان أن يتناسب

الجزآن مع بعضهما. لبست سترةً فضفاضةً بلون أصفر شاحب، في البداية لبست حذاءً مريحاً بلا كعب لكنّها بدّلته إلى حذاء رياضيّ عسكري. كان من المستحيل أن تكون وحيدةً في ليلة كتلك حتّى لو كان معنى ذلك الانضمام إلى روبرت وذاك الحشد المتناقض. ما يشفع لها أنّ دارو كان الوحيد الّذي شاهد فشلها. صبّت لنفسها كأساً من الماء وارتجفت يدها وهي ترفعه إلى شفتيها. أصدرت مروحةُ السقف قديمة الطّراز صوتاً فوق رأسها. وحدّقت إلى مفرش السّرير الرّث وتذكّرت ضوء الشّمس على الحقول الّذي جعل الرؤية بقوّة شعاع الشّمس المنهبة مستحيلةً، واللّون الوحيد الواضح الّذي استطاعت تذكّره كان لون الدم الأحمر لفخذ الجنديّ، ورأي دارو بالطّبع أنّه مهما بلغت المجموعة الّتي ذهبت معها إلى الميدان كان الفرد يذهب وحيداً يداً بيد مع خوفه.

قرّر مايكل أن يتبع خطا والده وأن يتفوّق عليه إذا تمكّن من ذلك، تخرّج بدرجة شرف وكان باستطاعته أن يفعل أيّ شيء يريده لكنّه أراد فقط أن يكون في مجموعة النّخبة لأنّ والده لم يكن فيها. إن والدها سيكون بالطّبع رافضاً لما تفعله الآن إلا إذا نجحت فعلياً، لكنّ مايكل سيكون مستمتعاً بالطّبع، ولن تفاجئه محاولة أخته الكبيرة الدّائمة للّحاق بركب النّجاح.

شربت كأس الماء وصبّت كأساً أخرى مع إحساسها بالذّل الحقير لأنّها لم تلتقط حتّى صورةً واحدةً. ابتلعت كأس الماء الثّاني بسرعة كبيرة فسال على ذقنها إلى سترتها فاضطرّت أن تبدل ملابسَها مرّةً ثانيةً. وعندما وصلت أخيراً إلى غرفة الطّعام في الفندق لم تستطع أن تخفي خيبة أملها من أنّ دارو لم يكن موجوداً هناك.

«كيف كانت رحلتك البكر إلى الخارج يا حبيبتي؟» قال (إد) الّذي كان شعره ما زال يبدو مثل القشّ منذ اللّيلة الماضية.

لم تقل شيئاً.

قال غاري: «إنّه دوماً عمل شاق في المرّات الأولى».

قال إد ضاحكاً: «ربّما تستطيعين إحضار فيلم في المرّة القادمة».

قال روبرت: «لستَ بحاجة إلى فيلم يا إد فالجميع يعرف ما يدور بخلد صاحبتك».

انفجرت الطّاولة بالضّحك. أكلت هيلين بسرعة دون أن تتذوّق طعامها ثمّ استأذنت بالانصراف. هل عرفوا أنّها لم تلفّ على وكالات الأنباء لتبيع صورها أم أنّ دارو أخبرهم؟

لحق بها روبرت وأوقفها في ردهة الفندق. كانت قد خرجت مع دارو وعادت دون صور وكان يأمل أنّ الإهانة من جرّاء ذلك ستعيد له اليد العليا. سيكون هناك في الوقت المناسب عندما تريد أن تتمسّك بذراع رجل، فقرّر أن يدّعي أنّ هزيمته الّتي حصلت في اللّيلة الماضية لم تحدث.

«هل أنت بخير؟».

«كلّ ما في الأمر أنّي بحاجة للنّوم. لقد أخفقت». احتاجت أشياءً كثيرةً، والحديث عمّا احتاجت إليه بالكلمات بدا غير واف بالغرض.

«هذا ليس مكان امرأة، أنا ممتنٌّ أنّك عدت سالمةً، سأطمئنّ عليك في الصّباح».

ارتاحت أن تكون بعيدةً، قبّلته على خدّه فابتعد قليلاً جافلاً من الحركة ثمّ اقترب أكثر وقال: «هل نحتسي الشّراب؟».

قالت: «أحتاج أن أرتاح».

عاد روبرت إلى المطعم، وقف عند المدخل ليشعل سيجارةً. لم يظنّ أنها من النّوع الّذي يغرم برجل مثل دارو فعادةً ما تكون نساؤه من النّوع الّذي لا يستطيع أن يطلب الكثير لسبب أو لآخر. وبذكائه استطاع أن يخمّن نوع النّساء اللّواتي نبذهنّ دارو، وكان الطوق الذّهبي على إصبعه نوعاً من الوقاية من الارتباط بالأخريات. شاهد هيلين في ردهة الفندق تبحث في حقيبتها. كان سيأخذها إلى شارع (بوربون)، وكانا سيضحكان ويرقصان طوال اللّيل.

كانت تعجبه لأنها كانت تحقّق له صورة إمكانيّة بناء ذاك البيت في خياله وملئه بالأطفال، لكنّ هيلين لم تتحرّك باتّجاه المصعد بل غادرت الفندق وأشارت لسيكلو منتظر أمام الفندق. بالطّبع ظنّ أنّه من الممكن أن يكون مخطئاً.

في مكان اللّقاء في شارع الأوعية المطليّة وفي شارع الحرير وجدت هيلين المدخل الهلاليّ للزّقاق، كان لا يزال مبتلاً من المطر فعادت في طريقها كأنّها تعود إلى الوقت الّذي كان قبل فشلها في ذاك اليوم. كانت متهوّرةً، ركضت خلال الماء إلى مدخل الزّقاق الّذي كان بلون الحبر بينما وقف الرّجال في الزّاوية وحدّقوا بها وهي تركض في جوٍّ متنافر من روائح البخور والبهارات الّتي لم تستطع تسميتها. مرّت بجانب محالّ كانت تبيع الخيوط فقط. والّذي بدا لها غريباً من قبل بدا لها الآن عادياً فحسب، نحن نتماثل مع الإحساس بالراحة لوجود الأشياء المألوفة. كان تأثير انعدام الهواء في الأبنية يتجمّع مرّة أخرى، والأضواء الخافتة أمام المحالّ والظّلام وقرب المحالِّ من بعضها كان إحساساً خانقاً بالنّسبة لها.

مرّت خلال الممرّ الغامض للطّريق حتّى رأت مبنىً أصفر يتدرّج باتجاه واحد، وكان مظلماً كقميص ملطّخ بالعرق.

وعندما رفعت بصرها رأت ضوء ظلّ المصباح في النّافذة، والثّقل الّذي كان على صدرها أصبح أخفّ فأخفّ على الرّغم من غضبها لأنّها أرادت أن تنسى اليوم الّذي فتحت فيه الباب المطلي دون أن تتمكّن من رؤية الطواويس والنّمور المرسومة عليه، وهي تستشعر طريقها على الدّرج الأسود الّذي يئنّ. وتصدر عنه رائحة خشب الأرز ورائحة السّمك.

وبينما كانت تقرع الباب سمعت صوت موسيقى الجاز، وصوتاً عالياً لضحك أنثويّ متقطّع جعلها تشعر أنّها غبيةٌ، فاستدارت لتتمكّن منَ الهرب قبل أن يأتي أحدٌ، لكن الباب فُتح على مصراعيه وظهر دارو يحمل كأساً من الويسكي بيده.

«هيلين الّتي أطلقت ألف سفينة». ابتسم ومتعةُ الانتصار في عينيه بينما وقفت هي دون أن تستطيع الحراك. لقد كان غريباً بالنّسبة إليها.

نادى صوتٌ من الدّاخل: «مَن هناك؟».

قال دارو: «ادخلي». وأخذها من ذراعها وسحبها إلى الدّاخل حيث كان هناك هواء كثيف مثقل بالرّائحة العشبيّة للدّخان المخدّر.

«إنّها فتاتنا الصّحافية المقدامة الجديدة يا جاك».

لم يكن لها أن تفعل شيئاً آخر لكنّها تراجعت ولكمت دارو في وجهه بكلّ استطاعتها وهي تغلق عينيها عند نقطة التماس فلم تتمكّن من التأكّد ممّا فعلته. لقد طارت نظّارته وسال دمٌ من إحدى فتحات أنفه.

«ماذا دهاك يا هذه؟».

«أنت طلبت منّي أن أغادر فلم يكن لديّ أيّ خيار آخر والآن تعود لتخبر الجميع أنّي لم ألتقط أيّة صور».

«لم أفعل ذلك».

«الجميع يعرفون».

«الجميع يعرفون؛ لأنهم مهتمون بمشاهدتك تفشلين يا فتاتي». قال جاك.

كان جاك يجلس متربّعاً على وسادة كبيرة ملتفّ اليدين وبين أصابعه عقب سيجارة، وبجانبه امرأة فيتنامية تجلس على ركبتيها على إحدى الوسائد بوجهها العريض الممتلئ بحَبّ الشباب، غمزت المرأة بعينيها لهيلين التي لاحظت أحمر الشفاه البرتقاليّ الفاقع الذي لطّخ شفتيها.

«لقد تجاهلتني ولم تساعدني مطلقاً ولم تُرني أيّ شيء».

«لقد عاملتُك في الميدان كرجلٍ دون أيّ معاملةٍ خاصة. فقرّري ما تريدين».

قال جاك: «فهذا كلّه واضحٌ، فلنقم بتقديمنا بعضنا لبعض».

رفّت عيون دارو ومنديل يغطي أنفه وقال: «هذا..».

قال جاك: «الوقت يسرقنا..»

ربّت جاك على فخذ المرأة: «إنّه الوقت المناسب للاحتفال خذي يا هيلين دخّني أفضل منتجات كمبوديا».

قال دارو وهو يقودها إلى أحد الكراسي: «دعيني أصبّ لك شراباً، دعينا لا نفسد الأمور أكثر من مرة في اليوم الواحد».

«أنا آسفة إذا أخطأت».

ثمّ جلست وأشار جاك إلى قدميها وقال قبل أن ينفجر ضاحكاً: «ألم يخبرك أحدٌ ألا تلبسي حذاءً بكعب عالٍ في حقول الأرز».

نظرت إلى الأسفل ورأت حذاءها الجلديّ المدمر بينما ذهب دارو إلى الخزانة ليحضر منشفةً وجلس على الأرض

وخلع عنها حذاءها وفرك قدميها. لم يشرح أحدٌ كيفيّة التّعامل مع الخوف المتبقّي من الخطر الجسديّ، فقد شعرت هيلين أنّ عمرها خمس سنوات وبحاجة لذراع أحد ما تلتفّ حولها. كانت عيناه حمراوين وبدأتا بالانتفاخ. ودون أن تكون قادرةً على التّوقّف مدّت يدها ومرّرت أصابعها على خدّه. ولأقلّ الأسباب منطقيّة اختارته لأنّه لن يعتني بها مثل روبرت اللّطيف الّذي يمكن الاعتماد عليه.

قال جاك: «حسناً يا أصحاب سأترككم الآن لأنّه عليّ المغادرة».

قالت هيلين: «لست مضطرّاً للذّهاب».

«في الحقيقة علينا الذّهاب تعالي معنا».

لم يقل أحدٌ شيئاً.

نهض جاك وقال: «رجاءً لا تحاولوا إيقافي أراكم لاحقاً».

بقيت هيلين جالسةً وحيدةً على الكرسيّ ودارو على الأرض وهو ينظر إليها بثبات منتظراً.

«هل أنت بخير؟».

«لا لستَ بخير فقد تجمّدت اليوم ونسيت أنّ الكاميرا الملعونة كانت موجودةً».

لمس دارو عينه الّتي رفّت «عندما بدأت.. دعك من هذا إمّا أن تتغلّبي على خوفك وإمّا ألا تتغلّبي».

«أشعر بالإهانة».

«سأخبرك شيئاً.. بقدر ما كنت خائفةً اليوم ظننت أنّك ستعودين على أوّل طائرة إلى الوطن».

هزّت رأسها، ففكرة حمل فشلها كانت غير واردة: «لن أعود إلى الوطن».

«لماذا؟ هل لديك سجلّ إجراميّ أو شيءٌ من هذا القبيل؟».

ابتسمت: «هل سأنجح؟». وفاجأت نفسها بالهدوء ونبرة صوتها الخالية من أيّ عواطف.

«حاولي مرّة ثانيةً لتري ما سوف يحدث».

وقف دارو ولمس يدها وقادها إلى السّرير: «لقد أثرتِ قليلاً من الفضول، أتعلمين، من الأفضل لك ألا أحميكِ».

«لا أحدَ سيمنحني فرصةً الآنَ».

«من الأفضل دوماً التّغلب على التّوقعات البسيطة».

قالت: «أنا لا أحبّك، وليس باستطاعتي أن أحبّ شخصاً مثلك». قبّلت كتفه وصدره فوق قلبه. بعد كلّ مراوغة الأيام الماضية كانت الأشياء تتسرّب وتسيل من قبضتها، لقد شعرت أنّها تفعل الصّواب. كان جلده بارداً قليلاً تحت ملمس شفتيها، لم يكن هناك سحرٌ أو خفقان قلب، فقط شهوة صرفة. ومن المرجّح أنّه سيكسر قلبها على المدى الطّويل لكنّها لم تتوقّف ولم تتخلَّ عن تلك اللّحظة لتتجنّب ذلك الحدث المستقبليّ. لم تظنّ أنّه من الحقيقة أنّ النّساء يقعن في الحبّ دفعةً واحدةً لكن على مرّات متكرّرةٍ مثلما يتدرّب المرء كيف يصبح شجاعاً. هي لم تحبّه بعد.

لم يقل دارو شيئاً فقط قرّبها منه أكثر.

مال منجل القمر على زاوية الزّقاق الضيّق وأضاء تلك الغرفة العابرة والسّرير الآيل للسّقوط. مرّر دارو أصابعه على جانبي جسدها.

كان يعشقها على طريقته ويبني أسطورته الخاصّة الّتي تمثّلها هي، وإن لم تكن بالكاد تقاربها.

«هل تعلمين بما فكّرت حين رأيتك في المرّة الأولى على الغداء؟».

استدارت باتّجاهه وجسدها النّاعم مضاءٌ بمسحةٍ من ضوء القمر وقالت: «أخبرني».

«فكّرت أنّك امرأةٌ لم تعرف الحبّ يوماً وتساءلت لماذا؟ فقد كنت قادرةً على الحصول على أيّ رجل على تلك الطّاولة، فقد كان روبرت على استعداد للزّواج منك والاستقرار معك على حافّة النّهر».

أراد أن يقول شيئاً رومانسيّاً لكنّه فقد موهبة الرومانسيّة، إن كان قد امتلكها يوماً.

لقد فضّلت رقّة الكذب في تلك اللّيلة.

بعد أن غفت نهض دارو ولبس نظّارته وأشعل سيجارة ورفّت عيناه. الفضل لها فقد كان لها تأثيرٌ جيّد أمّا هو فكان رجلاً أراد دوماً الوصول إلى غاية ونهاية الأشياء وقصص النّاس ليفهم ويضع كلّ شيء خلفه ويتابع حياته بسلام. لقد كان كذلك منذ أن كان مراهقاً يعمل في غرف نيويورك المظلمة، عندما سمع للمرة الأولى بالأسماء السّاحرة مثل (بيرل هاربور) و(قمة سوريباتشي) و(تاراوا) الذين كان يتكلّم عنهم النّاس بنبرة خافتة كأنّهم يتكلّمون في كنيسة. هؤلاء الرّجال الّذين أتوا بذقون غير حليقة وملابس مجعّدةٍ وعيون متعبة، وتنبعث منهم رائحة الجلود وصورهم مشبعةٌ بالضّوء الأبيض القاسي كما لو أنّه ضوء مسرح، في صورهم شواطئ بيضاء تعمي الأبصار بالغيوم الشّفافة المتلاطمة تنشر الفيء على أشجار النّخيل وجنوع جوز الهند المقتلعة، وتنشر الفيء على معدّات الجنود وعلى لباسهم العسكريّ الموحّد ممّا أعطاهم كثافة النّصب التّذكاريّة، كان يجد نفسه دائماً يبحث في السّطح عن الخطر. والعديد من هؤلاء الرّجال كانوا جنوداً في الماضي يتوقون إلى حرارة المعركة.

كان قد فشل في اجتياز الاختبارات الجسديّة بسبب نظاراته وعموده الفقري الملتوي. والصّور كانت إسهامه الوحيد في عالم الحرب هذا، كجواز سفر يتيح له أن يكون في مركز أهمّ قصّةٍ في العالم في أيّ وقت محدّد.

كانت هيلينَ واقفةً عند نهاية الطّاولة في المطعم جافلةً من الرّياح الموسميّة في الخارج وتبدو كشبح في ثوبها الأزرق الغامق. سخيفةً خرقاء متسامية، تترك آثاراً أقدام مبلّلةٍ على الأرض بالرّغم من المناشف الّتي أعطاها إيّاها النّادل.

حتّى بعد ممارسة الحب تجنّبته، اختفت تحت حواف أصابعه. أثبتت هذه اللّيلة ما اللّغز الّذي تبقّى منها. هي امرأةٌ لم تكره ما فعله ولم تحسده على هواجسه. وفي الحقيقة ربّما كانت هواجسها أكبر لأنّها كانت أكثر عناداً. بعد كلّ العلاقات الّتي عاشها خلال سنوات زواجه الأربع كانت تلك هي المرّة الأولى الّتي نسي فيها أن يشعر بالذّنب.

استيقظت هيلين عند الفجر منقوعةً بالعرق وكابوسٌ يقف في حلقها حتى تستطيع بالكاد أن تبلع ريقها عندما رأت الحقيقة الّتي تواجهها وهي وجود دارو في السّرير إلى جانبها. وهو خطأ ارتكبته لأنّها لم تُرد أن تكون وحيدةً تلك اللّيلة. وبعد أن هدأ الكابوس داخلها خلّف وراءه نبضاً في صدغيها وكان كابوسها أنّها رأت (كورت) من فيلادلفيا هو و(مايكل) الّذي كان على طائرة الإخلاء والجرح الصّغير في رجله أصبح جرحاً قاتلاً، والألوان الزّرقاء والحمراء والأرجوانيّة الّتي تسيل من أعضائه الدّاخليّة وهي مطروحةٌ على الأرض المموّجة للمروحيّة محاولةً بشكل حرَفيّ الإبقاء على أخيها قطعةً واحدةً دون تمزق. ثمّ أصبَحوا الآن على

الأرض الّتي خلف السّاتر التّرابي. اللّون الأزرق الشّاحب في عيون مايكل سهّل تمييزه، لكن بياضهما كان مصفراً من اليرقان ومعرّقاً بالدّم. وكان وجهه عظميّاً ويداه مكسوّتين بالتّراب وتحت أظفاره لون أسود، وكان يضغطها إلى الأرض كأنّه يدفنها ووجهها في الطّين، والخوذة تجرح أذنها وهي غير قادرة على التنفّس والبول يسيل حارّاً من بين قدميها.

في ضوء الفجر النّاعم نهضت وتسلّلت إلى الحمّام وأغلقت الباب ووقفت تحت ماء الدّش الفاتر الّذي يقطر عليها لتغسل عنها حقيقة وجود دارو عليها، وكان الماء ينزل بلون الصّدأ عند قدميها. غضب مايكل من فكرة أنّها تطارده؛ لأنّها دخلت حربه، وفشلها كان ضدّها هذا الصّباح أيضاً. ربّما عليها الاستسلام والعودة إلى وطنها كاليفورنيا وأن تقبل الحياة الصّغيرة المعروضة عليها وتُعلم الجميع أنّ ما جرى كان مجرّد إشارة كبيرة مُضلّلة. مرّرت منشفةً على حلقها وشعرت بجلدها نَاعماً ومَحروقاً من الشّمس. وضعت المنشفة بين قدميها. كان للماء رائحةٌ معدنيّةٌ كالدّواء. أرادت أن تهرب إلى مقهىً في شارع هادئ وتشرب القهوة وحدها وتفكّر، هل عليها العودة إلى الوطن وهي تجرّ أذيال الهزيمة؟ آخر جزء من الحلم كان أنّها هي ومايكل مستلقيان بشكل يصعب وصفه على الأرض بجانب المروحيّة، ومجموعة من الأولاد الفيتناميّين يقتربون منهما ويدورون حولهما ويقتربون ويدورون، ويدورون ويلمسونهما، وعندما حاولت التّكلّم معهم أداروا ظهورهم إليها وبدأت الصّخور تقع.

عندما فتحت باب الحمّام كان شعرها مبللاً ومنشفةٌ ملفوفةٌ حول جسمها الرّطب وكان دارو جالساً في السّرير: «الجميع كانوا

محقّين بشأنك أنت كحوريّة، دائماً يقطر منك الماء عندما أراك».

بعد أن غلبهاَ إرباك اللّحظة تصنّعت الاحتشام وقالت: «أحتاج أن أنظّف أسناني».

«هناك فرشاةٌ جديدةٌ في الدّرج عقّميها بالويسكي فقد نفدت من عندي المياه المعلّبة».

هزّت رأسها وأمسكت ملابسها وعادت إلى الحمّام، وحالما ارتدت ملابسها خرجت وتوجّهت إلى الباب وقالت: «أريد أن أذهب».

انحنى إلى الأدراج الصّغيرة بجانب السّرير ورمى إليها بالمفتاح: «سيبقى الباب مفتوحاً دوماً إذاً».

ورغم سعادتها بأنّها هربت كانت لا تزال غير مستعدة لأن تعود إلى غرفتها. عندما أنزلتها السّيارة عند الفندق مشت عبر الطّرقات في البلدة وعلى طرف النّهر، كانت متعبةً تغمرها أصوات الضّجيج والحركة والنّاس. كان المتسوّلون يسدّون الشّوارع وجنود سابقون مقطوعو الأوصال ووجوههم مغلقة ومتجهّمة يتسكّعون عند الأبواب والمداخل والجدران. انتصبت المدينة وهي مليئةٌ بالأولاد القذرين والحيوانات المتضوّرة جوعاً. أفقدها التّوتر في تلك الأجواء أعصابها. وحتّى الجهد الّذي بذلته لاستيعابه بدا محطّماً.

تاقت للعودة إلى الوطن وأن تكون هادئةً ونظيفةً وتغلق السّتائر وتستلقي في جوّ شبه مظلم لكنّها لم تمتلك القدرة على البقاء وحيدةً بعد.

وأصبحت صور الوطن تلحّ عليها أكثر تملؤها بالتّوق أكثر فأكثر إلى الشّوارع العريضة المحاذية للشّاطئ والمروج الخضراء المليئة بالطّحالب وطيور البجع تطير عند المنحدرات. عند منطقة (دونغ هاي با ترونغ) كان الباعة المؤقّتون يبيعون المياه

الغازيّة بالزّجاجات المليئة بالغبار موضوعةً في صناديق من الثّلج المطحون موضوعةً في ظلال الشّارع.

كان منظر الصناديق مغرياً مع اشتداد الحرّ لكنّها خافت من قصص الزّجاج المطحون الّذي تضعه العصابات في المشروبات.

بعد أن تابعت المشي لوقت أطول نسيت أن تنظر إلى الإشارات الدّالة على الشّوارع الّتي كان أغلبها غير مفهوم على أيّة حال. تسكّعت لمدّة ساعة في المتاهة ثمّ وجدت نفسها عائدةً إلى مطعم (تو دو) وهي تشعرَ بالسّعادة أنّها عادت إلى مكانٍ مألوف. وبينما اجتازت صفّاً من المحالّ لفت نظرها غطاء سرير جميل أخضر بلون النّعناع في نافذة أحد المحالّ. حيث أضاء القماشَ النّاعم ظلام المحلّ. كانت هيلين متأكّدةً أنّها إذا لمسته فسيكون مثل الخطو إلى مرج نديّ في هدوء صباحٍ باكرٍ في الوطن.

دخلت لتسأل عن ثمنه.

بالكاد نظرت إليها المرأة الّتي كانت خلف الطّاولة وهي غارقةٌ في دفتر الحسابات. امرأة تملك شعراً أشقر غامقاً ملفوفاً على شكل كعكة وفيه عودان مطليّان بالأسود أشبه بالأسلحة لتثبيته في مكانه. كان وجهها شاحباً وجافّاً ومليئاً ببودرة التّجميل وشفاه مرسومةٌ باللّون القرمزيّ. كان المحلّ هادئاً جداً للحظة لدرجة أنّ هيلين استطاعت أن تسمع أزيز ذبابة عند النّافذة ونسيت إن كانت سألت عن ثمن الغطاء أم لا. ثمّ تكلّمت المرأة بلكنة فرنسيّة: «هذه قطعةٌ غاليةٌ فهي من الحرير المطرّز من هونغ كونغ».

تجاهلت وجود هيلين مرّة أخرى وهي تكشط العواميد الرّقميّة الملطّخة بالحبر بقلم حبر قديم. بعد لحظة مدّت يدها تحت المكتب وأحضرت ضرّابة ذبابٍ كبيرةً ضربتها باتّجاه النّافذة خلفها. فتحوّل المحلّ إلى الصّمتَ المطبق.

استدارت هيلين وجفلت عند رؤية امرأتين فيتناميّتين جالستين على كراس سوداء عالية مثبتة في الأرض. ولم تنظر أيّ منهما للأعلى أو تُبطئ عملها أو تتوقف عن الحياكة.

ومع أنّ وجهيهما كانا مليئين بخطوط عميقة لكنّهما رفعتا شعرهما بطريقة مماثلة تماماً على شكل كعكة مشدودة بلون أسود فاحم. كانتا ترتديان ثوبين أسودين حريريّين مثاليّين كأنّهما منتقيان من مجلّة «فوغ» الباريسية قبل أربعين سنة، فهما ضيّقان من الأعلى ومنسدلان وواسعان من الأسفل. راساهما محنيّان وتطرّزان بأدقّ وأصغر سنّارة على قماش الحرير. كانتا منكبّتين على عملهما في غاية الصّمت لدرجة انّ هيلين لم تلاحظ وجودهما في بداية دخولها المحلّ. كانت كلٌّ منهما جالسةً على كرسيّ على أطراف باب غرفة العرض كأنّهما غلاف كتاب في متحف.

عندما استدارت هيلين مبتعدةً بدأت إحداهما الّتي كانت اكبر سناً بالثرثرة بصوت منخفض بالفرنسيّة مع الأخرى. لم تستطع هيلين فهمها حتّى لو تكلّمتا بالفيتناميّة. فأيّ حدث مهمّ يمكنُ أن يحدث ليحرّك المحادثة في ذاك القبر غير ولوجها إلى ذلك المحل؟

استدارت إلى المرأة الفرنسيّة واستفزّها تجاهلها لها: «سآخذه».

نظرت إليها المرأة الفرنسيّة وحواجبها منتصبةٌ: «رائع، سألفّه لك بعقدة كبيرة، أنا المالكة (آنوك)».

استندَت هيلَين إلى الطّاولة أمامها وقد أصابها دوار من شدة الحرارة وعدم الإفطار. كانت الخيّاطتان المنكبّتان على ذاتيهما مثل تمثالين لأبي الهول غافلتين عما يجري حولهما. نظرت

إلى الأسفل ورأت على كنزتها بقع عرق هلاليّة تحت إبطيها وما أزعجها أكثر من ذلك حذاؤها الّذي كان قد أفسده الماء. لاحظت المرأة الفرنسيّة كلّ ذلك دون شكّ وربّما كان ذلك موضوع حديث الخيّاطتين أيضاً. وعندما استدارت أحسّت بدفء لزج بين قدميها وأدركت أنّها نسيت الوقت الذي يحدث فيه ذلك من كل شّهر. ببساطة فكلّ ما يجري كان كثيراً على تحمّلها وبدأت تبكي ممّا أزعج كبرياءها أكثر.

«أحتاج أن أستخدم حمّامك. لديّ مشكلة».

بدأت آنوك تخمّن كأنها كانت تجتاز امتحاناً ما. كان من الممكن أن تكون الخياطتان عدوّتين لها بسهولة، لكنّ شيئاً ما حرّك آنوك لأن تكون صديقة لهيلين: «تعالي دعيني أعتنِ بك».

شعرت هيلين بالخجل عندما عادت إلى المعرض.

قالت آنوك: «اجلسي سأحضر لك بعض الماء».

«الحرارة..». تمتمت هيلين بينما أخذت كأس الماء.

كانت هيلين متأنّقة بشكل كامل لا يشوبها عيبٌ كأنّها في أحد محالّ شارع الشّانزيليزيه. حدّقت هيلين في ثوبها الحريريّ الّذي كان بلون الدّراق النّاعم والياقة الصينيّة. نظرت آنوك إلى سروال هيلين الفضفاض وقرّرت شيئاً وابتسمت: «لديّ قميص أسود يناسب مقاسك، استعيريه منّي وهو أخفّ ممّا ترتدينه الآن».

قالت هيلين: «أنا آسفة. من أين حصلت على ذاك الثوب؟ أنا لا أملك أشياء جيّدة».

«وقعت في دوّامة اجتماعيّة غير متوقّعة أليس كذلك؟ لقد صُنع الثّوب هنا».

شعرتْ هيلين بالإحراج والانكسار مثلما حدث معها في الأيّام الماضية وقالت: «لقد اشتريت كلّ الأشياء الخطأ. أعني أنّ هذه منطقة حرب».

«هناك خدعٌ ترتبط بالعيش في المدارات الاستوائية».

«حقّاً؟» شعرت هيلين بالرّاحة لوجود امرأةٍ أخرى بإمكانها الكلام معها.

«انظري إلى الفيتناميّات». أشارت آنوك برأسها إلى الخيّاطتين: «تتحرّكان ببطء مثل الفرنسيين، عندما تمشين في الشّارع تستطيعين تمييز الأمريكان بسهولةٍ لأنّهم يهرولون».

«لم ألاحظ ذلك».

أوقعت إحدى الخيّاطتين الفيتناميّتين لفّة خيط تدحرجت حتّى وصلت تحت الكرسيّ. فوضعت جانباً القطعة الّتي كانت تعمل بها بحذر ووقفت وأمسكت تنّورتها بيدٍ واحدةٍ وخشخش القماش للمستَها.

لاحظت هيلين أنّها كانت ترتدي حذاءً أسود أنيقاً بأزرار تصل إلى كاحلها كالّذي كانت ترتديه النساء عند بداية القرن. كانت القطعة الّتي تعمل عليها من الحرير وهي صورةٌ لحفلة قديمة لأناس يسكرون تضمّ أفراداً جالسين إلى طاولة وراقصات عاريات يلفّون حول المكان. كانت التّفاصيل دقيقةً جدّاً لدرجة أنّها لاحظت الخيط الأحمر الّذي يشكّل الحجر الرّوبي في آذان الرّاقصات.

ضحكت آنوك وقالت: «هذا صحيحٌ، لن تستطيعي الصّمود هنا إلا بهذه الطّريقة، سينهكك المكان. أنا هنا منذ خمسةَ عشرَ عاماً، القليل من النّساء الغربيّات استطعن الصّمود، فهو فنٌّ يجب أن تتقنيه ولا يمكن طلب المساعدة».

«أنا في حال سيّئة لذا أرجوك..».

كانت آنوك جذّابةً على الطّريقة الفيتناميّة، فرداؤها كان بسيطاً وشعرها مربوطاً إلى الخلف ومساحيقها براقة. ويبدو أنّها بذلت جهداً دقيقاً لتبدو طبيعيّة جداً.

«الدّرس الأوّل، تحرّكي ببطء، الدّرس الثّاني، جادلي على أيّ شيء. فقد دفعت ضعفَ قيمة غطاء السّرير ذاك حتّى إنّك لم تكتشفي الأمر، فقد كان يمكن أن يشتري لك ثوباً كالّذي أرتديه، ماذا تعملين يا هيلين؟».

«أنا مصوّرة حرّة».

عبست آنوك: «الدّرس الثّالث، فيتنام هي عالم الرّجال وعلينا أن نضع قواعدنا الخاصّة لكنّ العائق هنا دوماً هم الرّجال».

أغلقت هيلين عينيها للحظة وهي تتذكّر مصيبة دارو: «أنا هنا منذ أسبوعين وارتكبت كلّ تلكَ الأخطاء».

«الوقت ظُهْرُ الآن، وغداءُ جيّد هو ما أنت بحاجة إليه».

أخذتها آنوك إلى مكانها المفضّل، حانة صغيرة فيها طاولاتٌ مصبوغةٌ وكراس موضوعةٌ في الحديقة الرّيفيّة المفروشة بالحصى ونبات البازلاء. كان الهواء ثقيلاً بين جدران المبنى، ورائحة الأزهار الاستوائيّة اللّحميّة حولهما جعلت هيلين تشعر بدوار. اختبأت تحت ظلّ شجرة موز وشربت كأساً بعد آخر من النّبيذ الأبيض البارد الشّاحب كالماء.

ناقشتا خلال تناولهما الطّبق الرئيسيّ المؤلّف من سمك مقليّ وخضراوات مقطّعة، وسائلَ البقاء والحفاظ على النّفسَ كامرأة غربيّة في سايغون، وكيفيّة الحصول على المنتجات الخاصّة بالنّساء، وتكلّمتا عن النّقص الدّائم لبخّاخ الشّعر، وعن المكان الّذي يمكن لها أن تصفّف فيه شعرها أو تقصّه،

ومن أين تشتري ملابسها، وأين يمكنها الذهاب وحدها بأمان، وعن الحضارة الموجودة وكيفيّة التّعامل مع عدد الجنود الكبير الموجود حولهما.

قدّموا لهما فنجاناً صغيراً من الإسبريسو وحبّة مانجو مقطّعة وأرزاً لزجاً، سألت هيلين عن الخيّاطتين: «هل تعملان لذيك بدوام كامل؟».

«السيّدةَ توانَ والسيدة نهو أختان وكانتا تعملان عند زوجين فرنسيّين كانا يملكان مزرعةً شمال سايغون في الثّلاثينيّات والأربعينيّات. كانت الأختان تخيطان ملابس تلك السيّدة الفرنسيّة بشكل ممتاز فكان أصدقاؤها يطلبون الأثواب منهما. كانت الأختان تضعان الحرير على ظهر القطع كلّها في ذاك الوقت».

«وكان ذلك قبل أن أصل هنا مع زوجي. أما زوجا الأختين فقد كانا في حفل مقام في مزرعة مجاورة حيث قتلهما شيوعيّو فيتام، لا لأهميّتهما السياسيّة، فقط لسوء حظّهما».

تذكّرت أن دارو حذّرها ألا تسأل ماذا حدث لشخصٍ ما، قالت: «يا للفظاعة يا لها من مأساة».

«في الحقيقة هذا أمرٌ وارد الحدوث، على أيّة حال أرادت الأختان أن تتابعا العمل في الحياكة لكنّهما لم تريدا أن تفتحا محلّهما الخاصّ لتجنّب التّعامل المباشر مع الأجانب، التقينا بعد ذلك بفترة قصيرة».

«إذاً كم كان عمر..».

قهقهت آنوك: «السيّدتان؟ إنّهما خالدتان. العجوزان الثّرثارتان الجالستان على كرسيّهما. تعرفان كلّ ما يحدث في المدينة مع أنّهما لا تغادران المحلّ أبداً، وبالكاد تتكلّمان معك، ومع ذلك تعرفان كلّ شيءٍ عنك».

أشعلت آنوك سيجارةً بينما مرّ بمحاذاة طاولتهما شابٌ فيتناميّ في أواخر العشرينيّات من عمره يرتدي بزّة غالية الثمن، فنفخت الدّخان من بين شفتيها وقالت: «هذه البزّة جميلةٌ جدّاً لا بدّ أنّها وصلت للتّو من باريس».

ضاقت عيناها بينما كانت تراقب هيكل الشّاب المبتعد وقالت: «الفيتناميّون الأثرياء في كل مكان، هو ابن أحد قادة جيش فيتنام الجنوبيّ، لن تري ترفاً كهذا وفساداً في نفس الوقت، لا يستطيعون منع أنفسهم، لقد جمعوا ثرواتهم بمساعدة الفرنسيّين ومن دماء شعبهم. إنّهم ملعونون».

قالت هيلين: «تتحدّثين كالثّوار».

ضحكت آنوك بصوت عميق صادر من حلقها وارتدّ رأسها للخلف وبان عنقها الأبيض الجميل: «أبداً، أحبّ الحياة المترفة العالية المستوى، وإذا عرفت كيف تتصرّفين يمكن أن تقدّم لك سايغون أفضل حياة».

«لهذا بقيت؟».

«لقد تذوّقت طعم الحريّة. بقينا على أمل أن يطول الأمر أكثر، ستضع الأختان الخيّاطتان الآن الحرير على كتف الأمريكان بعد الفرنسيّين لكنّهما ستبقيان هنا بعد أن يتمّ إبعادنا جميعاً».

«ذهبتُ في مهمّتي الأولى في الميدان يوم أمس ونسيت أن أصوّر أيّة صورة بكاميرتي، كنت مرعوبةً جدّاً». أطلقت كلماتها بسرعة.

«كنتُ مرعوبةً لدرجة أنّي نمت مع رجل البارحة ولم يكن عليّ فعل ذلك. يرعبني البقاء ويرعبني الرّحيل».

حدّقتْ فيها آنوك للحظة وقالت: «يبدو أنّي أصبحت صديقتك في الوقت المناسب».

خافت في البداية أنّها بدأت علاقةً مع دارو لم تكن متأكدةً إن أرادت أن تُكملها أم لا، فارتاحت عندما لم تسمع خبراً عنه. وبعد عدّة أيّام من عدم سماع أيّ خبرٍ أدركت أنّه قد طردها من حياته دون أن تعرف بذلك.

عانت في شقّ طريقها وحيدةً في سايغون وهي تتجنّب روبرت لشعورها بالحرج منه. وعندما عادت إلى فندقها تجنّبت طاولة الاستقبال لخوفها من وصول رسالة من دارو ولخوفها أكثر من عدم وصول رسالة، نفد صبرُها وبدَت عابسةً عند باب المصعد بانتظار أحد خادِمي الفندق أن يأتي إليها برسالة. رسالةٌ مهمّةٌ من مستر دارو يقول: الأمر طارئ. لكن لم تصلَ كلمةٌ واحدةٌ. خطر ببالها أنّ الدّرج المحاذي لسريره يمكن أن يكون مليئاً بالمفاتيح معتمداً على حقيقة أنّها لن تُستخدم. لكنّها استخدمت مفتاحاً بعجلة محاولةً أن تخفي حقيقة أنّ ما حصل اللّيلة الماضية كان خَطأً. فرشت غطاء السّرير الّذي اشترته من آنوك ورتّبت سريرها به. يبدو ذلك تخبّطاً فظيعاً آخر.

بعد مرور أسبوع اكتشفت هيلين من خادم الفندق أنّ دارو كان خارجاً في مهمّةٌ ثمّ عاد. وكان ذاك جواباً لها عن سبب عدم تواصله معها. لم يكلّف نفسه أن يخبرها عن الرّحلة لكنّها استطاعت أن تسامحه على ذلك وهي تشعر بالراحة. لا بد أنه في غرفته في الفندق. غيّرت ملابسها بسرعة وارتدت ثوب كتّان ومشطت شعرها وزيّنت شفتيها باللّون الزّهري الفاتح الّذي أعطتها إيّاه آنوك. أجبرت نفسها على المشي إلى غرفته، لا الرّكض.

دقّت الباب وأجاب بصوت شارد: «ادخل».

كان ضوء الشّمس يضربُ في النوافذ المغبرّة غير الشفّافة بسبب الشريط اللاصق المستخدم ليحفظها من التّحطم بسبب القنابل. وكانت تفوح من المكان رائحة التّعب والغبار المكوّم على الأرض ودخان السّجائر القديم. وانتابتها الأحاسيس اليائسة الّتي سلّت نفسها منها منذ قليل وأحسّت بحماقتها من جديد.

أحنى لين رأسه عند دخولها بينما كان جالساً على كرسيّ قريب من النّافذة يفحص بعض أوراق الاتّصال بعدسة مكبّرة.

لَم يتحرّك دارو باتّجاهها بل بقي بجانب طاولة مليئة بالمعدّات بينما كان وجهه محنياً وعيناه غير مرئيتين بسببَ ضوء الشّمس الضّارب على نظّارته.

وقفتُ في منتصف الغرفة تلاعب قماشةَ ثوبها الخشنة بأصابعها وتبحث عن سبب لوجودها وتلعن نفسها لمجيئها إلى هذا المكان. أخيراً قالت: «سَمعت بعودتك».

قال دارو: «لقد عدت البارحة». متابعاً إفراغ الكاميرات من حقيبة ملطّخة بالوحل.

«لقدَ أمضيتَ السّنة الماضية محاولاً تطوير الكاميرات».

«ها!».

لاحظت الارتجافَ في يديه مرةً أخرى بينما كان يرفع معدّاته. كانتَ تجعل من نفسها أضحوكة، ولحظاتٌ أخرى تمرّ، لقد كرهتْ أن تكون واحدة من تلك النّساء تصرّ أنّ ليلةً قضتها مع رجل سويّاً كانت يمكن أن تعني له شيئاً.

قال دارو: «تذكرين لين».

نهض لين وأومأ برأسه تحيّةً لها وتحرّك عابراً الغرفة ليصافحها. بدا كأنّها تلقاه للمرّة الأولى بعد أن أعماها الألم. وقف وأخذ يدها بشكلٍ أخرق ولاحظت دون تفكير الجلد

المخـدوش عنـد معصمـه. ماذا كان يعمـل قبل أن يصبـح معاون مصـوّر؟ خطـر لها أنّه ربّمـا لا ينبغي على امـرأةٍ مصافحة رجلٍ فيتناميّ.

«وضعت بعض الأشـياء في الشّقة فقط لأقول لك شكراً على اصطحابي ذلك اليوم». أيّتها الحمقاء الغبيّة فقط اخرجي من هنا.

«رأيتها». أشعل دارو سيجارةً وقدّم لها واحدةً.

«هل كان غطاء السرير جيّداً؟ لقد اشتريت واحداً لغرفتي في الفندق، فالموجود قبل ذلك كان يبعث على الاكتئاب وفكّرت لمَ لا أحصل على اثنين بذات السّـعر». لم تسـتطع التّوقف عن الكلام وبـدت سـخيفةً، عليها أن تموت في تلـك اللّحظة في ذلك المكان لذلّها وخطأ حكمها على الأمر.

عمّ الصّمت الغرفة بينما تركها تشنق نفسها.

«كان ذلـك جيّـداً يـا لـين، هل يمكـن أن تمنحنا لحظـةً على انفراد».

«بالتّأكيـد» انحنـى لين درجـة أدنى من انحنائه فـي أوّل مرة، دون أن ينظر مباشرةً إلى عينيها وغادر بسرعة.

شـعرت أنّها مطوقةٌ عندما أغلق الباب خلفَه، أرادت أن تخرج هـي أيضاً بـدلاً من البقاء والاسـتماع إلى ما كان سـيحدث بعد ذلـك. أغلق القفـل بنعومة بالغة لدرجة أنّه لم يكن من السـهل تمييز ذهابه إلا من صوت خُطاه المتوارية عبر الممرّ.

مشـت إلـى الطّاولـة بجانـب النّافذة، وشـدّ عزمهـا أنّها رأت صورتها فوق صور ومطبوعات على الطّاولة.

قال دارو: «دعينَي أسألك عَن شيءٍ واحدٍ».

«ماذا؟».

«هل أتيت إلى النّصف الآخر من العالم لتقيمي علاقةً مع رجل متزوّج؟».

ضغطت أصابعها على الطّاولة وحدّقت في صورتها بينما حاولت أن تستجمع أفكارها وترتّب وجهها لتخرج من الغرفة التقطت صورتها وسحقتها بين يديها.

قال دارو: «لا تسيئي فهمي، لقد قضيت وقتاً رائعاً لكنّي أفكر بك فقط».

استدارت ونظرت إليه: «لقد خدعتني».

«ماذا؟ ألم تقولي إنّك لن تحبّي شخصاً مثلي أبداً؟ فما الأمر الآن؟ يا سيّدة الحب المحكوم عليه بالفشل».

«أنت نذلٌ من الدّرجة الأولى».

جلس دارو على السرير متربّعاً وأخذ سحبةً طويلةً من سيجارته: «الحقيقة الحزينة يا حبيبتي هيلين أنّني لا أستطيع إنقاذك».

أغلقت الباب خلفها وكرهت نفسها لأنّها زيّفت الأمور لكنّها كانت ممتنّةً أنّها غادرت قبل أن تبكي. الرّاحة كانت أكبر من العار فقد كان هناك متّسعٌ من الوقت لذلك لاحقاً. كان على حقّ فلم يكن ذلك ما أتت لأجله.

في الممرّ المظلم استندت إلى جدار وهي تشعر بالقرف من سخف الثّوب وأحمر الشّفاه. صفعت فَمها بظهر يدها. وقعت الصّورة المسحوقة على الأرض وعندما نظرت إلى الأعلى كان لين واقفاً هناك وانحنى ليلتقط صورتها وحاول إصلاحها على ركبته وأعطاها إيّاها.

(5)
الأسلحة المفتوحة

بقيت حقائبها محزومةً في كومة أنيقة في منتصف غرفة الفندق لكن الأيام مرّت يوماً بعد آخرٍ وهيلينَ لم تغادر بعد.

لم تستطع مواجهة عودتها إلى الوطن كفاشلة، كان مزاجها عميقاً جداً لدرجة أنّها لم تستطع إدراكه. كانت أمّها قد تزوّجت مرّة أخرى بعد عام من وفاة والدها، وقد كان اختيارها صديقاً مقرّباً من العائلة كان قد أصبح أرملَ أيضاً مثلما كان وضع والدتها. عندما بكت هيلين قبل العرس بسبب الغيرة والخوف والخيانة جلست معها أمّها وأعطتها «محاضرةً». لم تبدأ المحاضرة بتوصيفات للحالة إلى مستوى الحقيقة البدَهيّة العالميّة أنّ الفشل لم يكنْ خياراً متاحاً أبداً على الإطلاق. بل اكتفت بالقول: «سيكون هذا الرّجل زوجاً جيّداً وأباً جيّداً لكليكما، انتهى الموضوع».

عندما كانت هيلين ومايكل مراهقين كانا يختبئان على الشّاطئ ويدخّنان الحشيشة ويشربان الخمر مع أصدقائهما ويرسمان أمّهما وواقعيّتها المتجهّمة بشكل كاريكاتيري، وكيف دفنت الزّوج الثاني بعد عشر سنوات وأعلَنت أنّها انتهت من التّعامل مع الرّجال: «الفشل ليس خياراً متاحاً. ربّما أخبرته هذا في السّرير»، قالت هيلين ذلك وهي متحمّسةٌ لثورتها.

كانت هناك صديقةٌ لها وهي (ريبا) ذات الشعر الأحمر المجعّد والّتي كانت تكنّ مشاعر خاصّة تجاه مايكل، ضحكت كثيراً لدرجة أنّها انقلبت على ظهرها وخرج المشروب من أنفها عندما رأت الرّسم الّذي رُسم لأمّهم: «إنها تبدو كأنّها وحش».

أجابت هيلين: «كلا هذه هي طريقتها فقط». لم يخطر ببالها أنّ شيئاً ما كان خطأً في تلك المطالبات.

خلال جهدها لتثبت أنّها تستطيع المقاومة والحياة في سايغون وتستطيع تأدية عملها دون مساعدة دارو، أقامت صداقات مع عدّة صحافيّين في البلدة وحضرت اجتماعات رسميّة، واستقلّت سيّارات الرّينو البيضاء والزّرقاء المهترئة إلى (تان سون نهات) لتصوّر الجنود الأمريكان والفيتناميّين العائدين من العمليّات. وانضمّت هي وروبرت إلى العمليّات العسكريّة الرّسميّة الّتي أقلّت الصّحافيّين في طائرات من نوع (سي 130) ليكتبوا ويلتقطوا الصّور لأراض صخريّةً مغمورة وجنود موتى لعدة ساعات بعد المعركة. كان روبرت راضياً بإنجاز عمله وكتابة القصص، لكنّها وجدت العمليّة محبطةً لأنّ صورها لم تكن مختلفة عن صور عشرات الصّحافيّين الّذين كانوا يبيعون صورهم بقيمة خمسة عشر دولاراً للصّورة الواحدة.

كان الصّحافيّون قد شكّلوا صحبة غير أخوية وهم في الميدان يتشاجرون ويتناقشون فيما بينهم ويستشعرون عدم سهولة الوضع. لم يستوعبوا شناعة أن يثبوا على مأساة بعيون جائعة ليخطفوها كفريسة، ويصنعون مجدهم بذلك، حتّى من كانوا أكثرهم شفقة كانوا يقولون: «لديّ صورةٌ مذهلةٌ لجنديّ ميّت أو امرأة أو طفل. فيها استدرارٌ للدّموع». وبعدها كان يتمّ التقاط الأفلام، كانوا يجلسون في الطّائرة العائدة يشعرون بنوع من

الخـزي الّـذي يلي الجمـاع المحـرّم، ولا يجرؤون أن ينظـروا إلى عيون بعضهم.

كانوا في الّلحظة الرّاهنة مزدَرين من قبل الجنود والضّحايا وحتّـى من قبل أنفسـهم. وفي خضم المأسـاة الواقعيّة لم يكونوا حقيقيّين، نسـورٌ كلّ همّهم الحصول على ما يريدونه. وفي أسـوأ لحظاتهم كان كلٌّ منهم يخاف أن يكون هوليوديّاً بشـعاً. التّفكير بالمسـتقبل هو فقط ما يمكن أن يعيد إليهـم كرامتهم وإمكانهم أن يكونـوا أبطالاً مشـكوكاً في بطولتهم. انتهـت اللّحظة وكانت ستضيع لكن الّذي صوّرها بفيلم أعطاها موضوعاً وأتاح للمصوّر نوعاً من الخلود.

أرسـلتها الشبكاتُ لتغطية قصص إنسـانيّة، مشاف، وأعمال خيريّـة وأيتـام وأرامل، لكنّهـا عندماً كانت تفتـح الجرِيدة وترى الطّلقات القتاليّة لدارو والآخرين، كانت تعرف أنّها مهملةٌ جانباً. كانـت حقيقة الحرب موجودةً في كلّ مكان فالمعركة والقتال كانا جزءاً من كلّ، لكنّ حقيقتها هي كانت تأتيَ من خارج الميدان. كان فشـلها فـي الميدان جزءاً من سـجلّها العامّ ولـم تعرف كيف تبدأ من جديد.

مضـى شـهرٌ آخـر وأصبحـت فـي حالة قلـق أكثـر، لا تغطي سـوى القشـور في الأرض والحرب، وتعود إلى سـريرها الآمن كلّ ليلة. كان الصحافيّون راضين عن مستواهم كعلماء الآثار الّذين يجمَعـون أجزاء على بعضها ويحاولون أن يحزروا حقيقة شـيءٍ مـا اختفى منذ زمن بعيد. شـعرت بأنّها مزيّفـةٌ. تابعت الذّهاب إلـى الرّحـلات الّتيَ تلي المَعارك مع روبرت رغم كون الأمر يشـكّل إحراجـاً بالنّسـبة لكليهمـا فـي رأيها، كانـت كلّ ليلـة تحتاج أن تحتسي المشروب في بار فندق الكونتيننتال.

وكانت تحاول أن تشرح عدم رضاها على الغداء مع روبرت. منذ تلك اللّيلة الّتي غادرت فيها مع دارو بقي روبرت بعيداً كأنّه كان يضمر بعض السّخرية، كأنّه كان الوحيد المطّلع على الأمر. فهمت أنّها كانت بحاجة لأن تحفظ ماء وجهها. لقد تصرّفت بشكل سيئ وكان من المحتمل عدم وجود شيء بالإمكان فعله لإصلاح الموقف. بالظّاهر كانا لا يزالان يتمازحان ويتغازلان لكنّ كليهما أدرك أنّ الأمور تغيّرت بينهما.

قالت: «هل يكفي ذلك؟ أشعر أنّ هذه الصّور لا تكفي».

استهجن روبرت ذلك وشعر بالملل والخيبة. مرّت بباله فكرةٌ قاسيةٌ وهي أنّ الممرّضات لم يكنّ يحضرْنَ عملهنّ معهنّ خارج مكان العمل.

«أنت جادةٌ زيادة عن اللّزوم».

قالت: «آسفة». بعد أن أدركت خطأها بأنها تسرّ له بمكنوناتها فغيّرت الموضوع بطلب مشروب آخر. لكنّها لم تستطع خداعه.

«الطّريقة الوحيدة للحصول على الصّورة الّتي تريدينها هي الاقتراب كثيراً منها لتصبحي جزءاً منها».

لكن بدل أن تغير رأيها، أوحت لها كلماته بفكرة. فأصبحت تذهب إلى القواعد الجوّية لتكتب القصص، وإلى القنوات الرّسميّة لترى ما يحدث حقيقةً، كانت تركب وحيدةً في المروحيّات النّاقلة للذّخائر والمؤن إلى مخازن الأسلحة البعيدة. وبما أنّه لم يكن هناك قصّة ظاهريّة أو قتال لم يكن هناك تحديدٌ لتحرّكاتها أيضاً. وكلّما أمكنها ذلك كانت تحاول أن تزور القوّات الخاصّة في مخيّماتها آملة أن تلتقي بأحد ما يعرف شيئاً عن أخيها. كان هناك رجالٌ في البؤر الاستيطانيّة أنصاف عراة في القيظ وأجسادهم مغطّاة بالغبار الّذي لا مفرّ منه

والأوساخ الّتي سبّبت ظهور بثور صغيرة على الجلد والعيون المتّسعة بسبب الانعزال والتّهديد بالخطر.

رفض البعض التّكلّم معها وبكلّ بساطة تفرّجوا عليها من أطراف المخيّم ككلاب وحشيّة لكنّ معظمهم كانوا سعداء بالصحبة. جلست وشاركتهم تدخين السّجائر والتقطت لهم الصّور وتكلّمت معهم بينما كانت المروحيّة تفرغ حمولتها. ثرثرت معهم بأكثر الأسئلة تفاهةً مثل: ما اسمك؟ من أين أنت؟ منذ متى وأنت هنا؟ استطاعت أن تحصل على قدر يسير ممّا أرادت الحصول عليه.

في إحدى قاعدات الهبوط المرتفعة على التّلال قرّر الطيّار أن يبقى لليلة؛ ولأنّها كانت سعيدةً بذلك لم تتذكر أنّ ذلك كان ضدّ القوانين بالنّسبة لها كامرأة أن تقضي اللّيلة خارجاً في الميدان. داخل الملجأ الرّمليّ والهيكلَ الخشبيّ، مع رائحة سهلة التّمييز للحظيرة الفوّاحة بالمارجوانا، تمّ تعريف هيلين على ضابط سابق في القوّات الخاصّة وهو (فرانك ماك كراي) الّذي كان يرتدي مئزراً ويطبخ (التّشيلي) في قدر على نار مؤقّتة في حفرة. كان في سنّ الخامسة والأربعين، أكبر نوعاً ما من الرّجال الآخرين، ويختلف عنهم في أنّه كان في وطنه ومنزله هناك. كان قد عاش في فيتنام لأكثر من سبع سنوات ويتحدّث اللّغة بطلاقة ويعيش في القرى.

وعندما جلسوا إلى الغداء جميعاً بمن فيهم العديد من الجنود، الطيّار وهيلين، كان فرانك هادئاً في البداية يحتسي الجعة زجاجةً بعد أخرى في عدّة جرعات ويثني عليها. كان على طبق التّشيلي طبقةٌ رقيقةٌ من زيت البرتقال وقد أحرق شفتيها الفلفلُ الفيتناميّ الحارّ وأشعرها بالخدر. عندما أثنت

عليـه هيلين ثم اسـتأذنت منهم لثوان احمرّ وجهه من السّـعادة وأخـرج زجاجة نبيذ كان محتفظـاً بها وقال: «كنت محتفظاً بها لشواء لحم الخنزير لكن لنفتحها». نظر إلى كاميراتها: «جميل، كان لـديّ كاميرا جيّـدة من نوع (نيكون) لكنّي أسـقطتها. والآن أفتقـد الأيّـام الّتـي كنت ألتقط فيهـا الصّور. أصبحوا يرسـلون الصّحافيّات من النّساء الآن؟».

قالت: «ليس الأمر بإرادتهم فهم لم يرسلوني، أنا تسلّلتُ إلى هنا بنفسي».

«منذ متى وأنت في البلد؟».

«منذ شهرين».

«شـهرين، يـاه يـا عزيزتـي» أشـعل سـيجارةً واتّـكأ على ظهر كرسـيّه وكنزته البيضـاء ملطخةٌ ببقع التّشـيلي الحمراء: «لقد أتيت متأخّرةً».

«كيف ذلك؟» غطّت لسـعة حرارة التشـيلي جبهتها بقطرات العرق فمسحته بمنديل. كان خوفها أنّها قد افتقدت مسبقاً أكبر جزءٍ من الحرب. بدأت معدتها تتقلب بعنف.

«لقد انتهت الأيّام الفائتة الجيّدة».

قال أحد الجنود: «لا، ليس هذا بجديد».

«أترين؟ نحـن فقـط نتعلّم كيف نقـوم بأعمال هنـا، لكنّهم خرّبوا كلّ شـيءٍ فمن الأسـهل إرسـال الجنود إليّ، ومن الأسـهل إلقاء المال على القادة الفاسـدين الّذين سـيلعبون اللّعبة معنا. أسهل علينا الاستيلاء على كلّ شيء».

«هل كنت تعرف أخي مايكل آدامز؟ كان هنا منذ سنتين ومات العـام الماضي في منطقة سـهل القصب». ارتفعـت بقبقةٌ عميقةٌ من معدتها وندمت على تناولها الطّبق الثّاني من التشيلي.

«لم يمرّ عليّ اسمه. من كان قائده؟».

«أظنّه كان الكابتن واغنر في مشروع الدّلتا».

«إنّه عالمٌ صغيرٌ هنا، لم يتسنّ لي لقاؤه للأسف». ابتسم فرانك بينما دمعت عينا هيلين وخرج منها تجشؤ: «لستُ معتادةً على الطبخ المنزليّ الجيّد».

نهض الطيّار شاعراً بالملل وأشار على الآخرين ليذهبوا إلى طاولة أخرى ويلعبوا البوكر.

شَعرت هيلين كأنّها ستنفجر: «كان التّقرير عاماً وقال إنّه مات موتاً بطوليّاً وما شابه».

نظر فرانك إلى السّقف ونفخ دوائر من الدّخان: «حكومتنا تحب التظاهر فحسب، فكلّ ذاك الهراء منذ سنوات مضت يتعلّق بأنهم منحوا (ديم) لقب وينستون تشرتشل لشمال شرق آسيا. هل تمرّد الإنجليز على تشرشل؟ هل قتل أو سجن معارضيه؟ كان كلّ ذلك حملة إعلاميّة من مجلة لايف. ربّما خدعنا ديم».

هزّ فرانك رأسه بنعومة في البداية ثمّ بقوّة أكبر: «لا لا لا لا، الجميع عرف أنّه محتال مُنذ وقت الهروب. ولهذا اختاروه».

وقفت وقالت: «لماذا إذاً؟»، ممسكةً بأحشائها كان عليها أن تركض إلى المرحاض الخارجيّ في الظّلام.

«أنت ذاهبةٌ الآن!»، ضارباً أرجل الكرسيّ الأربع على الأرض وضارباً يديه ببعضهما قائلاً: «ابدئي بالتّفكير كمراسلة صحافيّة وفكّري بالطرف الذي تنتمين إليه أيضاً. لماذا أنت غير راَضية عن الهراء الّذي أخبروك به عن أخيك؟ بدأ بعض أصدقائي البَحث ولم يقدّر أحدٌ عملهم. لقد مُنعت مقالاتهم لأنّها لم تعُد قابلةً للتّصديق. وتمّت إعادتهم إلى الولايات المتّحدة ومنعت عنهم تأشيرات الدّخول وإذن المرور العسكريّ. وجلّ ما أبهرني هو قوة

عزم العدوّ إن لم يكن شيءٌ آخرُ، لا أستطيع أن أعدّ كراهيّتهم لنا كراهية شخصيّة».

«لست إذاً من أولئك المجانين المؤمنين بنظريّة المؤامرة؟».

صرخَ أثناء خروجه: «تذكّري فقط، عندما يوجد دخانٌ يوجد عادةً حزمةٌ قريبةٌ من الماريجوانا».

تلمّست طريقها في الظّلام ولم تعرف أيّها كان أسوأ، ألمُ معدتها أم خوفُها من طلقات أحد القنّاصين. عندما عادت تكلّموا لعدّة ساعات أخرى خلال اللّيل، وكان فرانك متخماً بالمعلومات لدرجة أنّ هيلين تمنّت لو كان لديها مسجّل؛ لأنّها لم تستطع استيعاب هذا الكمّ دفعةً واحدةً. وأخيراً وقف وتمدّد: «وداعاً يا عزيزتي سأكون خارجاً في الغد في دوريّة لخمسة أيام».

قالت: «خذني معك».

«مستحيل يا فتاتي الصّغيرة». ثم مال مقترباً إلى أذن هيلين. وشمّت رائحة التّشيلي والجعة من أنفاسه: «يريدونك أن تكوني جزءاً من فيلمهم السينمائي، لا تنسي ذلك أبداً».

احمرّ وجهها، فقد كانت الفتاة الّتي تملك نسخةً من كتاب (الأمريكيّ الهادئ) تحت سريرها وقالت: «أرجوك اسمح لي بالذّهاب معك».

ذهب إلى زاوية من الغرفة وعادة بسوار مطرّز صغير، وطلب منها أن تمدّ معصمها: «خذي هذا، إنّه من النّاس الطيّبين في المزارع، لقد أصبحت واحدةً منّا الآن».

«هذا يعني أنّك ترفض اصطحابي».

«هل أستطيع أن أطلب منك معروفاً؟ هل تسمحين أن أستنشق رائحة شعرك؟» قال فرانك.

أومأت بهمساتٍ خفيفةٍ وأحست بقبلة خاطفةٍ على خدّها.

«أريد أن أعرف ما يحدث فعلاً».

استنشق رائحة شعرها بعمق: «أعشق الشّعر الجميل». تنهّد وقال: «لن أعترف أنّي أخبرتك بذلك، هديّتي الصّغيرة لك لتنامي جيّداً اللّيلة. لم أعرف أخاك لكنّي كنت أعرف أن وحدة (واغنر) كانت تذهب لتغتال بعض شيوخ القبائل المحلّيّين عند حدود لاوس. لقد تمّ إسقاطهم في حفرة الطّين هذه ولم يعرفوا أنّ المنطقة الجافّة على الخريطة أصبحت بحيرةً في الوقت الخاطئ من السّنة، وكانت ثقيلةً وسميكةً كالرّمال المتحرّكة، وكانت صدمةً لهم عندما بدأت النيران تطلق عليهم فأدركوا أنّه كمينٌ وأنهم ضحايا سهلة، وكان قد تمّ إنزال الوحدة بأكملها من الطّائرة وهم يبكون من العار، مهازل كهذه لا تحدث معنا».

قالت: «خذني معك غداً».

«لن أخبر أحداً، سأصحو في السّاعة الخامسة».

لكنّها عندما صحت في السّاعة الخامسة في الصّباح التّالي كان ماك كري قد غادر مسبقاً.

سألت محاولةً ألا تظهر خيبتها: «بماذا هو متورّط إذاً؟».

أجاب أحد الجنود ضاحكاً: «الأفضل أن تسألي بماذا هو غير متورّط؟ فرانك وأساليبه».

أعطت الجنديّ إحدى كاميرات (اللايكا) الخاصة بها وقالت: «أخبره أنّه مدينٌ لي، أخبره أن يستخدمها ويعود إليّ بالصّور».

كان فرانك على حقّ من جهة واحدة. لقد حرّرتها معرفة معلومات عن موت مايكل كأسوأ حقيقة تمر بها. مع أنّ الأمر كان مرعباً كأيّ شيء يمكن أن تتخيّله، لم تضطرّ أن تتخيّل ما الذي يمكن أن يحدث بعد ذلك، لكن كانت لا تزال غير راغبة في الرّحيل مثل ذي قبل، فاللّغز الّذي جعل رجالاً مثل

مايـكل ماك كري يرغبـون بالمخاطرة بكلّ شـيءٍ كان أكبر من موت مايكل.

ركبت مع طيّاري المروحيّة عالياً فوق أراضي الدّلتا جنوب سايغون وهي تتبّع حقول الأرز اللانهائيّة الّتي كانت تنعكس عليهم من فوق كأجـزاء مـرآة مكسـورة. الخضـرة باهتـة اللـون للأدغـال المخنوقة، والأوتار الممتدّة للأشـجار الاستوائيّة عند المستنقعات الّتي يتعاكس لونهـا مع اللّـون الأخضر الفاتح لنباتات الأرز الجديدة، وتبين بكارة تلـك الأراضي وجود علامات على ندرة البشـر والتّجمعات الصّغيرة للسّـقوف المبنيّة بالقشّ، وبعض الأسـقف المبنيّة بالقرميد الأحمر. بدت الأرض من فوق فارغةً وتنعم بالسّلام والفلاحون كانوا منحنين في الحقول والبساتين.

جلسـت مثـل سـائحة محاطة بالأنهـار الّتي تتحـرّك ببطء ويكثافـة كالعـروق الّتـي تَنبـض بالحياة فـي الأراضـي الّتي منَ حولهـا، اسـتعبدتها تلـك الأنهـار ذات اللّـون البنـيّ الأحمـر أو الأخضر المتّسخ.

شـعرت بالأمـان وهـي تنظرُ مـن مكان عـال يحميهـا معدن الطّائـرة وسـرعة تحرّكهـا وثقتهـا بالطيّاريـن الّذيـن يقودونها والّذيـن طمأنتُهـا ثقتهم بأنفسـهم. العديد منهـم كان بعمرها وبعضهم بعمر أخيها.

خرجـت في جـولات روتينيّة عديدة ومـن دون عقود. حقيقة الحـرب فـي كلّ مـن القتـال والتّصويـر، هنـاك كانت امتـداداتٌ عظيمةٌ للا شـيء، الملل وبقاء شـيءٍ واحد فقط للتّفكير به وهو الأرض نفسـها الّتـي أحضرتهم إلى هنا. ظلت لفتـرة ما راضيةً بالتّواصـل مع اللّغـز يحيرها. لكن حالما اسـتراحت إلى حقيقة عدم حدوث شيءٍ مهمٍّ، بدأ الفضول يلح عليها مرّةً ثانيةً.

في كلّ مهمّة كانت تسـأل الجنود عمّا رأَوه في فيتنام، وكانت أجوبتهم تصدمهَا بشكل غريب.

فـي الأغلـب كانت عَوالمهـمَ مغلقـةً بالقبو والسـلك المحيط بهـم وكانوا محدوديـن بكماليّات حصص الطّعـام والمياه الغازيّة والسـجائر. يعيشـون فـي عالـم محـدود بأسـلحتهم وآليّاتهـم وسلسـلة الأوامـر. لـذا طبقـاً للَمنطق الأَساسـيّ لم يكـن مهمّاً فـي أيّ بلـد يقاتلون، كانوا محصّنين ضدّ كلّ شـيء إلا الحقائق الأساسيّة للَتّضاريس والطّقس. لم تكن فيتنام غامضةً بالنّسبة لهـم ولا بالنّسـبة لـلأرض أو التّاريـخ أو الوجـوه الصّفـراء. لـم يكن اكتشـاف سـرّ المكان شيئاً أساسـيّاً. واللّغز الّذي يربطهم هو حفاظهـم علـى حياتهم في ذاك المكان، وجمـال وغموض المعركة والفشل اللامع للموت. كانت فيتنام بالنّسبة لهم بشكل أو بآخر مثل الأشـياء الّتي يشـترونها في أوقات الاسـترخاء والَراحة في بارات وشوارع سايغون ودانانغ.

كانت الأمور تُختتم بشـكل عامّ وكأنها سر لا يستحقّ الكشف عنه. اسـتنتجت هيلين في نهاَية الأمر أنّ المجيء إلى فيتنام كان أفضل شيءٍ حدث لها.

أوّل مـرّة ركبـت هيلـين فيهـا آليّة حربيّة كانت جالسـةً خلف حامل البندَقية عند الباب المفتوح لجسـم الطّائرة والرّيح تعوي كإعصار في داخل السّفينة بينما أخذوا بالهبوط بشكل حلزونيّ. أمسـكتَ بالجدران الشـبكيّة كي لا تسـقط، لكنّ الشّـجَاعة الّتي اكتسـبتها من رحـلات النّقل كانـت كلّها قد تبخّـرت. لقد قامت بعمـل صفقات. إنّها لو خرجت سـالمةً من تلك الرّحلة فسـتكون نهاية وجودها هناك وسـتعود للوطن، أو على الأقلّ سـتبقى في سايغون وتغطّي حملات التطعيم.

أشار حامل البندقية بيده الكبيرة المغطّاة بقفاز إلى الأسفل، ورأت عدوّاً مقاتلاً يظهر من بين خطّ الأشجار. انحنى على ركبة واحدة وصوّب سلاحه الرّشاش المتحرّك إلى طائرتهم. سيكون الأمر معجزةً لو استطاع إنزال مروحيّته في مواجهة ذاك السّلاح. لم تستطع هيلين سماع صوت الطّلقات لكن ظهر في طرفي الطّائرة فتحات بحجم دوائر صغيرة، وتركت فراغات لشظايا ضوء الشّمس وقد بدت كعيونٍ غاضبة. لقد نجح في إصابتهم.

بعد أشهر من السّماع عن قدرة المراوغة عند العدوّ، بدا ذاك الرّجل الّذي يرتدي بيجامة سوداء وكأنه لا يرقى إلى ذاك المستوى. ومع أنّه كان يحاول قتلهم شعرت هيلين بالخوف عليه أكثر؛ خوف كان يسري في غريزتها لعدم تكافؤ المعركة.

كان الرّجل وحيداً مقرفصاً داخل العشب الطّويل المحترق والظّلال الممتدّة للمروحيّة الحربيّة تمرّ فوقه.

صوّرته هيلين وهو يصوّب النار نحوهم بينما أطلق الرّجل رصاصاته. كانوا تقريباً فوق الرّجل لذا أجبرته قوّة الطّلقات الأولى على القفز جيئةً وذهاباً كالرّيح. استمرّت هيلين بالتقاط الصّور حتّى انتهى الفيلم الّذي بحوزتها. بينما جلست على الأرض لتضع فيلماً آخر ويداها ترتجفان بشكل سيّئ لدرجة أنّها واجهت صعوبةً في فتح غطاء الكاميرا، ثم تلاشى الرجل إلى أشلاء بعد انهمار الرّصاص عليه.

عندما خرجت من الطّائرة بعد وصولهم المطار كان صوت الطّنين يملأ أذنيها من أثر أصوات المحرّكات فرفع الطيّار إبهامه مشجّعاً إيّاها ودعاها لتناول الجعة. كان يملك عيوناً ناعمةً ورطبةً وقال إنّ جمال البلد جعل العنف بشكلٍ خاصّ رهيباً كجرح

وجه امرأة جميلة. جلست في نادي الضّباط وقد يبّسها الخوف والعرق. واستمعت إلى الطيّار يتحدّث عن حبيبته الّتي تركها خلفه في الوطن متمنّياً أن يحظى بعمل في الخطوط الجويّة بعد انتهاء خدمته. لم يتحدّث أيٌّ منهما عن تعرّضهما لإطلاق النّار وعن العدوّ المقتول، ثم أخذ يستكمل كتابته في التّقرير العسكريّ. لم تفهم هيلين بعدُ أنّ أمر استحضار المستقبل كان واجب الأحياء وما كانوا مدينين به للأموات.

كذبت على نفسها وأخلّت بوعودها أن تعود للوطن أو على الأقلّ أن تبقى في سايغون بعد الرّحلة؛ لأنّ الحدث كلّه كان سرياليّاً يفوق الواقعيّة وغير متزن، لأنّ الصّور كانت بعيدةً جداً عن الرّجل وأظهرت الرّعب بشكل مصغّر كان يحمل معنىً فقط عندما يتمّ شرح الأمور. لم يكنّ بإمكانّ الصّور أن تكون مزيّنة للقصّة أو دليلاً عليها. كان يجب أن تبين تلك الصّور القصّة داخل إطارها، احتوت أفضل صورةٍ على حربٍ كاملةٍ داخل إطارٍ واحد.

أَصبحت ترسانتها من المؤن حاميةً لها. كانت تتفقّد كلّ غرض من أغراضها ثلاث مرّات؛ لأنّها اعتقدت أنّها من كان يحميَها ويبقيها آمنة إذا فقدت أيّاً من تلك الأغراض. حملت كاميرتين من نوع (لايكا) بحمّالات متقاطعة على كتفيها وحملت ثلاث عدسات بمقاسات 28 و35 و90 ميليمتر كانت قد اشترتها جميعاً منَ السّوق السّوداء، وحملت أيضاً أزياءها والأحذية الطّويلة المصنوعة من القماش. كانت آنوك قد أخذتها للتّسوق ثمّ لتناول الغداء، كأنّ ذلك كان أكثر الأشياء طبيعيّة في العالم ألا وهو الانغماس في التّسوق في أيام الحرب، كان سخيفاً ومريحاً.

حملت حقيبة فيلم عندما استقلّت المروحيّة لكن في الميدان كانت تُلصق لفافات الأفلام إلى أربطة الكاميرا، قدّرت الوزن بالأوقية ولم تحسب حمل الوزن الإضافيّ للسّلاح. والتنازل الوحيد الّذي قامت به لغرورها كان ارتداء أقراط أذنيها اللّؤلؤيّتين.

بعد أسبوعين فقط من اللّقاء وصلها خبر عن مقتل ماك كري وشعرت بحزن لا يتناسب مع الفترة الّتي عرفته فيها. ربّما كان ذاك أجله. لكنّه ذكّرها بجيل والدها. كان واضحاً أنّ لديهما أعمالاً غير منتهية مع بعضهما.

الطيّار الّذي قدّمها إليه سلّمها حقيبةً كان قد تركها لها ماك كري وكان فيها كاميرا وسكّين من نوع (كابار) في غمد جبليّ مطرّز. أخذت الكاميرا إلى غاري وسألته إن كان بإمكانه مساعدتها في عرض الفيلم.

كانت هناك لقطةٌ واحدةٌ وبقيّة الفيلم فارغة، وقد كانت لمولود حديث لا يزال ملطّخاً بالدّم والسائل المخاطي والحبل السرّي مقطوع بيدين بيضاوين كبيرتين. وفي الخلف دون تركيز عليها هناك امرأةٌ مستلقيةٌ على الأرض. هل هي الأم بدت تنعم بالسلام، بدت نائمةً، لكنّها كانت صورةً مقلقةً. أي أيد تلك؟ ولماذا يحدث ذلك في الخارج؟

قال غاري: «دعيني أشترها».

«إنّها ليست لي لأبيعها».

مشت مع روبرت بجانب أكشاك الكتب في سايغون وأخبرته عن موت ماك كراي فعبس. مرّ بجانبها شابّ مدنيّ أمريكيّ وحيّا روبرت.

قال: «اعذريني للحظة». وقف الرّجلان جانباً وتحدّثا بهدوء ورأساهما منحنيان.

تحرّكت هيلين باتّجاه الكتب متسائلةً عن صحّة وحقيقة الشّائعات الّتي تقول: إنّ روبرت ينقل معلومات إلى وكالة المخابرات المركزيّة في أمريكا. ربّما كان ذلك بسبب مشاعرها المجروحة بسبب اهتمامه المتراجع بها، والّذي كان لا بأس به، فما كان يفعله كان شأنه الخاص، لكنّها لم تحبّ أن يعكّر مهنة المراسل الصّحافيّ. كانت الطّاولة متراكمةً بأغلفة كتب ورقيّة معالجة باللّغة الإنجليزيّة والكثير منها كان فيها صَفحات ملتصقةٌ ببعضها ومتموّجة بسبب الرّطوبة. فتحت كتاباً وهو (الكبرياء والتحيّز) لـ (جين أوستن) حيث كانت صفحاته هشّة ومصفرّة. التّناقض الّذي أتى من قراءة (جين أوستن) في فيتنام جعلها تبتسم. «خمس سنتات» صاح الولد من خلف الطّاولة. فأومأت وأعطته النّقود.

بعد عدّة دقائق عاد روبرت وبدا عليه السّرور بشكل واضح لكنّه لم يقدّم أيّ شرح عن هويّة الرّجل. كان يمكن أن يكونَ مخبراً لديه، «لم أكنْ أعلم حتّى إن كان ماك كراي لا يزال موجوداً، لقد أصبح معادياً لجيش فيتنام الجنوبيّ. ضدّنا. لقد نسي إلى جانب من كان ينتمي، وأصرّ على العيش والأكل والنّوم هناك مع النّاس القبليّين».

«أليس ذلك ما يفترض أن تفعله القوّات الخاصّة؟».

قال روبرت: «انسي أمر ماك كراي. لقد كان عجوزاً مجنوناً مع أنّه كان يعرف أفضل منا كيف يربح الحرب».

قالت هيلين وهي تمتحن كلماتها مدركةً أنّها حقيقيّة: «لقد وثقت به، هو الّذي أتيت لأبحث عنه».

كانت هناك رسالةٌ في الفندق تخبرها أين تذهب لتستقلّ وسيلة نقلٍ وتصل إلى قريةٍ صغيرةٍ حيث تقام جنازة ماك كراي.

منذ أن كان يعمل في منطقة رسميّة خارج حدود الولايات المتّحدة كان موته وجنازته متكتّماً عليهما. لم تكن لتدعو روبرت، لقد آلمتها المسافة الجديدة بينهما. أسراره الخاصّة له والآن أسرارها هي.

في وقت بداية مراسم التّأبين كان قد حلّ الظّلام على القرية. هطل المطر على السّطح القصديريّ للمدرسة المفتوحة. ثقبت السّقف المعدنيّ هسهسة متواصلة وعالية أصابت هيلين بالإحباط. انتظرت في الغرفة الرّطبة البالية على مقعد خشن محدّقةً بالكفن المحاط بالشّموع والمصنوع من خشب الصّنوبر العادي. امتدّت دائرةُ اللّهب فقط إلى حيث أوراق الموز اللامعة الّتي ازدحمت لتشكّل جداراً في الغرفة. كان قد طلب منها أن تحضر نسخةً من صورته الأخيرة بنسخة من مقاس ثمانية بعشرة للمولود الجديد وضعتها بجانب الكفن. كان الجرح في داخلها شيئاً لا يقبله العقل، ومع ذلك لم تستطع السيطرة عليه. كان ماك كراي قد قتل بأسلحة أمريكيّة سرقها العدوّ، وجاء في وصيّته أنّه أرد أن يدفن في القرية الصّغيرة الّتي عاش فيها سنواته الأخيرة وأن توزع كلّ أمواله وممتلكاته على القرويّين.

عدّة رجال أتوا فرادى ومثنى ليلقوا التّحية ويقدّموا الاحترام إلى المتوفّى. لم يكن هؤلاء هم العسكريّين الّذين التقتهم حتّى الآن. فمعظمهم كانوا متقدمين في العمر مثل ماك كراي، ومثله أيضاً كانوا يرتدون ملابس جلد النّمر وقبّعات سوداء خاصّة بقسم النّخبة، وكانت هناك شارات على القبعات الخضراء مكتوب عليها (حرروا المقموعين).

كان معظمهم مصحوبين بأشخاص فيتناميّين يتحدّثون اللّغة الأصليّة بحرّيّة. وسمعت بعض أسماء البلدات وقواعد

الخيام المنصوبة مثل (لانغ في) و(آ لوي) و(دوك فو) و(بليي مي)، ودار الهمس من حولها بخصوص الأوامر العسكريّة ومجموعة الدّراسات والمراقبة في فيتنام وعلامة النّشاطات السريّة. عندما أتى رجلٌ بزيّ عسكريّ يتحدّث معها، كانت الكلمات الإنجليزيّة الصّدئة تتكوّن على شفتيه بتردّد، فكّرت بأبيها حينها وكيف كان سيشعر أنّه في وطنه في تلك المجموعة.

جاء صوت من خلفها جعلها تستدير. كان دارو واقفاً مع لين في المدخل يتحدّثان إلى ملازم في القوّات الخاصّة.

عندما رآها دارو حنى رأسه قليلاً ثمّ تقدّم وقال: «لمَ أنت هنا؟». كان قد أمل أن يسمع خبراً عن مغادرتها عائدةً إلى كاليفورنيا. أغضبه وجودها، فعندما ترحل سيكفّ عن رغبته بها.

«أنت تتعامل مع الأمر كأنّه حربك الخاصّة. أتعتقد أنّي أقحم نفسي في الجنازة؟».

تحوّل كلّ توقها إليه إلى كرهٍ فجأةً. ولم يعجبها ابتعاد لين ليمنحهما الخصوصيّة.

حدّق دارو إلى الكفن وهو يدلّك رقبته من الخلف. لقد وصلت هي إلى أبعد ممّا كان يظنّ. لم يستطع تخيّل أنّ ماك كراي قد أصبح صديقاً لها، وكان ذاك نوعاً من عدم النّضج كان يكرهه.

«كنّا أصدقاء جيّدين». قال ذلك روبرت.

قال: «كان فرانك جزءاً من الحرس القديم. هنا آخر من تبقى من الرّجال».

أشارت إلى الغمد المطرّز على حزامها وقالت: «لقد ترك لي هذا».

لم يتخل عنها فرانك إذاً. بالطّبع فقد كان إنساناً أيضاً. وقد راق له أيضاً الوجه الجميل.

«لا بدّ أنّه فكّر أنّك بحاجة للحماية».

نظرت حولها وقالت: «لقدَ تركت له كاميرتي». طريقة وحيدة لإنهاء الأمر. كأنّه قرأ أفكارها. مدّ دارو يده ووضعها على يدها. يداً غير متحيزة. تركتها ترتاح على يدها للحظة تدفّئ جلدها ثمّ سحبتها قبل أن تعتاد عليها. كانت ستبقى أكثر قليلاً؛ لأنّ فرانك كان قد أخذ طموحاتها على محمل الجدّ فلم ترد أن تخيّب ثقته بها.

أدركت هيلين مصدومةً أنّها بقيت حتّى حلول عيد الميلاد، كانت عطلةً مخزيةً وحزينةً في المناطق المداريّة حيث كان يتمّ تنظيم حفلة عشاء كبيرةً لكلّ الصحافيّين المنتشرين في البلد. وكان الوقت بعضَ الظّهر حارّاً وماطراً يتحوّل إلى لمسة برد خفيف مساءً ليصبح دلالةً على موسم جافّ، بينما انتظرتَ هيلينَ روبرت في رواق الفندق لم تستطع أن تشعر بأنّ الليلة هي عشيّة الميلاد.

كانت تتمّ استضافة الحفل في إحدى الفيلات الفرنسيّة المستأجرة قرب السّفارة. وعندما مشى روبرت وهيلين عابرين البوّابة المحفورة بعمق في الجدران العالية المحيط بالمجمع كانت الحديقة مزدحمةً بالنباتات النّامية بشكل كبيَر وأوراق ثقيلة ريّانة وأزهار مفرطة التّفتح قد بدأت بالذّبولَ، وحبّات من ثمار المانجا والبابايا متعفّنة كانت قد سقطت على الأرض من أعلى الأشجار، كان كلّ ذلك مضاءً بآلاف الشّموع الصّغيرة الّتي تضيء على الأرض. حيّاهم عند المدخل خدم فيتناميّون يرتدون معاطف بيضاء يحملون صواني فضيّة محمّلة بالشّمبانيا.

كان كلّ مجتمع المغتربين هناك، بعضهم أحضر عائلته. والأغلبيّة أحضروا صديقات فيتناميّات أشبه بالدّمى حيث كنّ يرتدين إمّا ملابس غربيّة متوهّجة وإمّا الكيمونو الرّزين. ضحكوا كالأطفال وتجعدت أنوفهم عند تذوق شراب البيض. كانت هيلين قد دعت صديقتها الفرنسيّة آنوك وأحضر روبرت صديقاً له ليكون مرافقها في السّهرة. جلس الأربعة على الأرائك وشربوا شراب البيض المخلوط بشراب الروم بينما كان فرانك سيناترا يغنّي على المسجل. تمّ حمل شجرة صنوبر بالمروحيّة من منطقة (دالات) معلّقة عليها أشياء من متاجر (بي إكس) مثل علك وسجائر وأقلام حمرة وأوراق لعب.

تمّ تقديم العشاء على طاولتين طويلتين عليهما أغطية قطنيّة طويلة أشبه بالسّفن. كان حول كلّ طاولة عشرون مقعداً بينما أكل البقيّة من خدمة البوفيه مباشرة وقد وضعوا صحونهم في أحضانهم. لحم الأضلاع والبطاطا المهروسة والبطاطا المحلاة كلّها أتت من هاواي مثقلة ومحمّلة بالحنين الكامل للماضي.

سأل أحد الموجودين على الطّاولة عن مكان دارو.

قال روبرت: «ربّما في أحد الجحور في المنطقة غير العسكريّة يسخّن بعض الأغذية بأعواد الكبريت». وانتشر الضحك في الطّاولة. خلال القصف ازداد الضحك. ضحك الجميع. ابتسمت هيلين ابتسامةً مشدودةً. هي لم تره منذ الجنازة. تابع روبرت: «المطر يجعلنا جميعاً نبدو بصورة سيّئة. خاصّة عندما يحصل دارو على غلاف مجلّة لايف الأسبوع القادم».

عاد الضّيوف إلى غرفة المعيشة بعد تناول الحلوى. قام مراسلٌ يرتدي ملابس بابا نويل بتوزيع الهدايا وكان معظمها

زجاجات من الويسكي والبراندي. قامت هيلين لتحضّر القهوة بينما دخل دارو المكان والطين متكتّل على ملابسه لدرجة أن الطويات العميقة المجعّدة هي فقط الّتي بقيت نظيفة. كان على جبهته عدّة خدوش طويلة دامية وبداية كدمة بنفسجيّة بنّية منتفخة تحت خدّه. كادت هيلين تضحك لأنّ ذلك بدا امتداداً لنكتة روبرت، رأى سخريّتها فاستدار دون أن يبدي اهتماماً بها.

صاح المضيف: «أين كنت يا دارو؟».

قال: «لديّ شيءٌ أعلنه». متوقّفاً ليسعل في كف يده. «قتل جاك اللّيلة، فقد تعرّضنا لكمين من دوريّة في سيارة جيب عند منطقة (غيا دنه)».

بعد أن تمّ إفساد المزاج العامّ للعطلة. وضع المضيف يده على ظهره وصبّ له مشروباً ثمّ ذهب إلى المطبخ.

قال روبرت: «لا تتوقف الحرب لفترة طويلة».

قالت آنوك وهي تشرب كأس براندي كاملةً دفعةً واحدةً: «لقد كان الأمر كذلك دوماً. أرض الحصار الدائم».

قالت هيلين: «لقد عرف جاك ذلك وقال إنّه لا يهمّ من ندعم ولا النّاس يهمهم ذلك، فلماذا نفعل ذلك؟». هي نفسها شعرت أنّها محاصرةٌ في فخّ وخائفةٌ ومرعوبةٌ من الخروج إلى الميدان ومرعوبةٌ أيضاً من الاستسلام والرّحيل.

«لدينا الخيار فلمَ لا نغادر؟».

لم يتكلّم أحدٌ.

قال روبرت قبل أن يذهب إلى المطبخ: «سأعود حالاً».

مالت آنوك إلى هيلين وقالت: «أهذا هو؟».

أومأت هيلين.

هزّت آنوك رأسها وقالت: «مسكينةٌ يا هيلين».

كانت الأضواء مطفأة في غرفة المعيشة فتم تمرير شموعٍ صغيرة بيضاء.

«ليلٌ صامتٌ من أجل ذكرى جاك».

نظرت هيلين إلى الوجوه حول الغرفة وإلى الدّيكورات المؤقّتة. وشعرت أنّها أقرب إلى النّاس الموجودين داخل الغرفة من قربها إلى من عرفتهم طيلة حياتها في وطنها. كان الأمر قد بدأ يتضح لتوّه، وهو اختفاء النّاس من حياتها. ليس فقط النّاس الّذين تحبّهم بل الّذين عرفتهم بشكل عابر وأيضاً الّذين عرفتهم بالشّكل فقط. كان عالمها المألوف يبتعد قطعةً قطعةً كلّ يوم.

بعد التّحلية قدّم النّاس الأعذار ليغادروا. لم يستطع أحد أن يرتدّ عن الأخبار أو يهملها. جاء روبرت وقال: إنّ عليهم العودة إلى الفندق قبل حظر التّجول. أومأت هيلين متمنّية أن يخرج دارو ويأخذها من جديد إلى تلك الشقّة الملتوية لكن ذلك الأمر انتهى بالطّبع.

أبقت هيلين الأضواء مطفأة في غرفتها بالفندق، وفتحت النّافذة الصّدئة بصعوبة لتدخل الهواء الجديد إلى الغرفة، كان الجميع في فيتنام يبقون النّوافذ مغلقةً ليمنعوا الحرارة والرّطوبة والحشرات التي تأتي من الخارج. كان الصّوت الوحيد بعد منتصف اللّيل هو صوت سيّارات الشّرطة تمر في الطّرقات الرّطبة. كان المراسلون من الذّكور لا يزالون يمتّعون أنفسهم داخل البارات وفي بيوت الدّعارة الّتي أغلقت أبوابها حتّى الفجر.

خلعت ملابسها، وعلّقت كلّ قطعة في مكانها بتعمد الشخص الثمل. كانت ستذهب في الصّباح إلى مقاطعة (بين كات) وتغطّي تقدّماً ستقوم به قوّات مشتركة. وستأكل حصص

الطعـام الخاصّـة بعيد الميـلاد مع الجنود. أحبطهـا التّفكير في جلوسها تحت الأشجار نصف المظلمة ذات اللون الأخضر.

كانـت المروحة السـقفيّة تصدر صريراً وهـي تدور في الغرفة وهي جالسة تدخّن وتشرب المياه المعبّأة لتوقف الدّوران الّذي في رأسها.

لقد اعتادت على شرب المياه بدرجة حرارة الغرفة. كانت آنوك تميّز وجود الأمريكان في الغرفة بسـبب إصرارهم على الحصول علـى الثّلـج. كان الثّلـج يصـدر رنينـاً داخـل الكؤوس. أيّ شـيء يسـاعدهم على نسـيان وجود الحرارة المجنونـة. كان الجيش قد تعاقد مع مصادر للتّزويد بالثّلج ليشبع حاجة الأمريكان النّهمة لمكعّبـات الثّلج والبوظة وأيّ شـيء مجمّـد. فأصبح الفيتناميّون الآن يشتهون هذه الأشياء المجمّدة. كانت هيلين قد أخذت صورةً بعـد أخـرى للأطفـال الفيتناميّين يأكلـون البوظـة، وكانت تتمّ طباعـة هـذه الصّور دوماً فقد أسـعدت القرّاء كمثـال عن عمليّة إضفاء الصورة الحضارية على ذلك المكان.

تاقـت هيلـين إلى ملجـأ غرفة دارو لكنّها أنكرت على نفسـها مُتَعَهـا الترفيَّـة. كان ذلـك حقيقيّـاً فالأسـرّة النّاعمـة والطّعام الغنيّ وحتّى مكعّبات الثّلج، كلّ هذه الأشياء كانت نوعاً من لعبة تمنعها من الإحسـاس بالأشـياء. بدأ نوعٌ مـن الفهم يصل إليها عندما جلسـت في مدرسـة ذات سـقف قصديريّ في جنازة ماك كراي، لكنّ ذلك الفهم كان سَريع الزّوال قبل أن تستمر فيه كثيراً.

قاطعـت أفكارَهـا دَقّةٌ ناعمةٌ على البـاب. وقفت بمكانها وهي تلعب بقلادتها ورأسها يفيض بالرّعب.

زاد الطّرق على الباب بإصرار أكبر.

قفـز قلبها بين أضلاعها. لو كانت الشّـرطة فلن يتمكّن أحد

مـن مسـاعدتها حتـى الصّبـاح. فقـد كانـت هناك إشـاعات عن اعتقال أناس واختفائهم.

قال داروً: «إنّه أنا افتحي من فضلك».

أمسكت برداء ولفّته حول نفسها وهي تفتح الباب. كان خادم غرفتها صاحب الرّموش الطّويلة مستلقياً على سجادته في آخر الرّواق. سـند نفسـه على كوعه ونظـر إليهما بابتسـامة ملتوية خبيثة أظهرت أسنانه البيضاء اللامعة.

دفعها دارو إلى الدّاخل أغلق الباب.

سـألته: «ما الأمر؟» لكن يديه أمسـكتا بكتفيها. كان قد أتى مباشرةً من الحفلة دون أن يغيّر ملابسه، وجلده لا يزال ملطّخاً بالطّين والعرق وذقنه غير محلوقة.

فـي حميميّتهما الأولى لا شـيء، كان ذلـك اعتياديّاً في وقت الحـرب وهـو هـذا النّوع مـن اللّقـاءات بـين النّاس للهـروب من الخوف لكنّهما الآن دخلا مكاناً خاصّاً بهما غير مرئيّ ولا يمكن وصفه. فكلماتٌ مثل الزّنا كانت صغيرةً ولا معنىً لها مقارنةً بما كان بينهما. عندما استيقظت فجراً كانت غرفتها فارغة.

أصبـح ذلك طقسـهما، وهـو وصوله إلى الغرفة ليـلاً أحياناً لممارسة الحبّ وأحياناً أخرى للنّوم فقط.

لا وعود، فعندما كانت لا تسـمع منه أو عنه لعدة أسـابيع لم يعد الأمر يزعجها. لقد فهمت، كانت الحرب تسـتهلك الجميع. تمّ إفـراغ حقائبهـا أخيـراً مـن قبـل خـادم الغرفـة الّـذي حمل الحقائب الفارغة إلى المخزن.

أحياناً كان يتبدل فيها متناهي الصّغر، شـيء ضعيف كجذر شـعرة ممتدّ في التّربة، كمرسـى لنبتة مغروسـة، فلـم تعد فكرة الرحيل واردة بعد ذلك.



(6)
(ها)
(التحضر، التغيّر)

بعد أشهر من الأوامر العسكريّة المزعجة حصلَت على إذن للخروج فَي مهمّات على الأرض للبحث والمسح. لم يكن العسكريون سعداء بوجود امرأة تنام وتقضي اللّيل في الميدان لكنّهم خضعوا لطلبها. تعلّمَت فنّ الصّراخ كما لو أنّها رقيبٌ برتبة مدرِّب؛ تطلق اللّعنات والشّتائم على الضبّاط عندما كانوا يمنعونها من المرور مدركين أنّ ذلك أعطاها ميزة مفاجئة للحصول على مطالبها. عرفوا أنّ أيّة امرأة بتلك القوّة تستطيع أن تخترق كلّ شيءٍ بنفسها. قدّموا لها اقتراحات عن المطالب والاعتراضات المتعبة للجنود بسبب النقص في خدمات الحمّامات والنقص في إشباع الشّهوة.

سألت هيلين: «ألا يمكن أن يكون الأمر أسوأ إن وقع ذلك النقص في نادي الضّباط، أليس كذلك؟».

انتشرت الضّحكات بين الجنود وتمّ السّماح لها بما أرادت. كانت تلك أيضاً خدعةً خدعت بها نفسها، مع علمها بأنّها إذا نجحت فسيكون الأمر مُهيناً لها إذا تراجعت عن الذّهاب. في البداية ومع جدّة التّجربة كانت هناك حالة هياج وشلل للأعصاب

لا يمكـن إنكارها. لكن حتّى مع ذلك لم يتوقّف الخوف. وأصعب شيء كان إعطاء معنىً لشيء بدا لا معنىً له.

استيقظت في السّاعة الثّالثة صباحاً، وبعد ساعتين كانت علـى متن مروحيّة مجلجلة في الظّلام. تمّ إنزالهم في منطقة (فونـغ دنـه) فـي الضّوء الملَطّـخ لوقت مـا قبل الفجـر. منطقةٌ عدوانيّة معروفةٌ كما تحوّلت معظم مناطق الرّيف، أصرّت القوّات الفيتناميّة الجنوبيّة على الطيران في اليوم الثّالي مباشـرةً إلى القرية ليتركوا للأمريكان حرية الحركة في المنطقة المحيطة.

كان الضّباط غير راضين عن اصطحابها؛ لذلك عرفت أنه إذا لم تستطع اللّحاق بالجولة فسيستخدمون ذلك كعذر لإعادتها. الطّريقة الوحيدة الّتي تمكّنت بها من اللّحاق بالجولة في الحَرّ والإرهـاق الجسـديّ كانت تخفيـف الحمل عن نفسـها، فحملت زوّادة اعتياديّـة من خمسـة عشـر إلـى ثلاثين رطلاً. ومـع أنّه تمّ تسليمها سترةً واقيةً من الرّصاص وخوذةً فقد تجنبت ارتداءهما فـي الميدان. جلسـت على السـترة الواقية فـي المروحيّة كما فعل الرّجال لكنّها تركتها وراءها بعد ذلك. ضحك الجنود لأنّها كانت تحـاول التّفوق عليهـم بطريقة الممثل (جون وايـن). كان القائد المسـؤول عن المهمّة سويديّاً بعمر سـتّة وعشرين عاماً من جنوب داكوتا واسـمه سفين أولسـن. كان ممتلئ الجسم ولديه عضلاتٌ، وفكٌ شـبيه بفكّ كلب (البولدوغ)، وابتسـامة كانت تلمع وتذهب بسـرعة. كانت عينـاه هادئتين باللّـون الأزرق الغامق الّذي جعل من الصّعب إظهار أفكاره.

«أكثر الأوقات خطورةً بالنّسبة للشّبان الجدد هي المرّات الأولى الّتـي يخرجون فيها. يعرّضون أنفسـهم للقتل من جرّاء أخطاء غبيّة. ابقَ في وسط التّشكيل بجانبي فذلك أكثر الأماكن أماناً.

لا تحشر نفسك مع الشّاب الّذي أمامك، فإذا تعثّر هو لا نحتاج إلى اثنين موتى بسعر واحد. حاول أن تمشي على خطا الشّاب الّذي أمامك، إذا كان هو بخير فستكون أنت بخير».

تقدّموا بصعوبة عابرين مياه الأرز الرّمادية المخضبة بحرارة الدّم.

تسلّقوا بعد ساعتين إلى طريق طينيّ وتوقّفوا ليرتاحوا ودرجة الحرارة كانت تسعين. عندما خلعت هيلين حذاءها كانت قدماها مزرقّتين وواهنتين، عليهما دائرة من العلقات السّوداء الّتي تتغذّى على كاحليها. فأخذت أدوية اليود من حقيبتها وفتحتها ووضعت جرعات على العلقات حتّى سقطت. الرّجل في مقدّمة الحملة أتى إليها وبدأ يحرقها بعقب سيجارته.

كان أولسن قد أعطاها كتيّباً يبيّن لها كنه الموادّ المتفجّرة لتكون على حذر منها.

دفنت هيلين وجهها في الكتيّب حتى لا تركز عينيها في مشاهدة العلقات تتقلّص ويخرج منها الدخان بينما كان (صموئيل) يحرقها. قالت: «يقول هذا الكتيّب إنّه يجب المشي بمحاذاة الأماكن المفخّخة وتجنّبها».

توقّف صموئيل وأخذ سحبةً من سيجارته قبل أن يبدأ بحرق العلقات من جديد: «علينا إذاً أن نستأنف حملتنا في (وايومنغ)؛ لأنّ هذه المنطقة القذرة مليئة بهذه الأشياء».

كان له وجه واسع بريء لغربيّ متوسّط العمر لكنّ عينيه ذكّرتاها بالرّجال المتمركزين في قواعد النّار لوقت طويل.

كانت ذراعه البرونزيّة مفتولةً بالعضلات، ووشم تنّين أخضر ملتفّ حول ذراعه الأماميّة تحت سترته الواقية من الرّصاص. كان قد مضى على وجوده في البلد ثمانية أشهر.

قال: «تعالي إلى الأمام لبعض المتعة الحقيقيّة».

أومأت هيلين لكنّها شعرت بالرّاحة لأنّها إن حاولت التوقف فإنّ أولسن سيعيدها. بدؤوا بالمشي في الطّريق الطينيّ من جديد.

شرحوا لهيلين العديد من أنواع الألغام والفخاخ المتفجّرة لتكون واعية لها لكنها الآن كانت تفكّر أين تضع كلّ خطوة من خطواتها بينما كانت تشاهد الأرض من حولها ممّا وتّر أعصابها. كان عليها أن تفعل خمسة أشياء دفعةً واحدةً كأن تتعلّم القيادة مثلاً. احتاجت أن تصبح إنسانة آليّة. وبرغم كل ما قاله أولسن لم تستطع أن تماشي خطواتها مع الشّاب الّذي في الأمام الّذي كان طوله ستّة أقدام. كان عليها التّخمين المستمرّ سواء لمّا كانت تواجه صخرة مسطّحة تبدو مغرية أو كومة من القذارة مكوّمة بشكل صناعي.

في السّاعة الثّامنة صباحاً كان النّهار حارّاً جدّاً لدرجة أنّ ملابسها كانت منقوعةً والعرق يسيل إلى عينيها مجبراً إيّاها على ربط منديل حول جبهتها لتبقى الرّؤية أمامها واضحةً. الجنديّ الّذي خلفها وهو (توسي) من مرتبات الدّرجة الأولى للقوّات الخاصّة أعطاها حبوباً من الملح كان يمضغها واحدةً بعد الأخرى. وقد كان ذلك جزءاً آخر من الزّوّادة احتاجت أن تحمله معها في حقيبتها.

قال لها: «إذا نفدت لديك حبوب الملح مصّي حصاة».

اقتربوا من قرية صغيرة بعد ساعة ونصف وهم يمشون بطابور واحد خلال استراحة مسيّجة بالخيزران مختبئة في القرية. المساكن المبنيّة من القشّ كانت صغيرة وقذرة ومتراجعة. نظر القرويّون إليهم بعيون ميّتة وأشاحوا بنظرهم بعيداً

ليتابعوا أعمالهم، كانت القوّات غير مرئيّة. رأت هيلين عند مرورهم مُزارعاً يبدي وجهاً هادئاً عندما رأى القوّات ويصفع ابنه بقوّة كبيرة لدرجة أنّه صرخ بقوّة.

كان الفيتنَاميّون في الرّيف يبدون أجانب أكثر من الفيتناميّين في المدن فقد كانوا أصغر حجماً وأكثر سمرةً ممّا يجعل الأمريكيّين يبدون أنّهم يتحرّكون في قراهم كالعمالقة الخرقاء المكروهة.

وقف توسي بجانب هيلين: «يكلّفونني دائماً بالأوضاع الموتّرة لأنّهم مُزعجون دائماً».

بعد أن تمّ تفتيش القرية وتأمينها جلسوا في ظلّ شجر النّخيل الآسيويّ وسحبوا دلاءً من مياه البئر. اختلس الأولاد النّظر إليهم عند زوايا الأكواخ بينما صوّرتهم هيلين. خلع الرّجال خوذاتهم وصبّوا على أنفسهم دلاءً كاملةً من الماء. غطّت هيلين رباطها داخل الدّلو ومسحت وجهها.

فتحت علبةً معدنيّةً من الدّراق وأكلتها كلّها في عدّة قضمات وشربت شرابها، وساومت على علبة أخرى من علب صموئيل مقابل نصيبها من السّجائر.

بينما جهزوا أنفسهم للمغادرة مشت امرأةٌ فيتناميّة شابّة إلى هيلين وأعطتها قبّعةً مخروطيّة الشّكل محيكةً يدويّاً. كان لها وجهٌ بيضويّ ضيّق وبشرةٌ لوزيّةٌ، أطلق الجنود صفرات بأصوات ذئبيّة عندما انحنت هيلين وأعطتها قطعتي حلوى كانت قدَ وفّرتهما لتحصل على المزيد من الدّراق.

«تعالي لأحرّرك الآن يا حبيبتي».

قالت هيلين: «اخرسي». تجاهل الرّجال هيلين وعدّوها أختاً، لكن هذه المرأة كانت معادلةً لها. كانت القبّعة محيكةً بشكل

متقن عليها زهرةٌ فاتحة اللّون مرسومةٌ على طرفها. انحنت الفتاةَ إلى الأسفل أكثر: «أنتم تخيفونها».

نهضت المرأة بسرعةٍ وهربت. ارتدت هيلين القبّعة وفاجأتها خفّتها ودفئها.

لا شيء يدعو للشك، غادروا القرية بعد نصف ساعة في السّاعة العاشرة وتابعوا السير على الطّريق الطينيّ بحَذاء النّهر. تذمّر الجنود وأتى إليها الكابتن (أولسن) أخيراً.

«لا أستطيع أن آمرك لكنّ الرّجال يريدونك أن تخلعي تلك القبّعة».

«إنّها مجرد قبّعة».

لم يكن هناك شكّ بالطريقة الّتي نظر إليها بها، إنّه أمرٌ لطيفٌ. ومع تأسّفها قامت بالانصياع لأمر أولسن ووضعتها إلى جانب الطّريق. عندما نظرت إلى الخلف كان خطّ الجنود قد انحرف، كلّ واحد يأخذ دوره ليدوسها بأحذية خرقاء ملوّثة بالطّين. كانت المرّةَ الأولى الّتي شعرت فيها بشيءٍ يتراجع في داخلها وهو عدم الثّقة بجنودها. عرض عليها صموئيل قبّعته الكبيرة: «إنّ هذا جزءٌ من الطّريقة الّتي نهدّئ بها أنفسنا، لا تفهمي قلوبنا وعقولنا خطأ».

أخذت القبّعة بخنوع وبعدها قطفت أقحوانةً صفراء من طرف الطّريق ووضعتها خلف أذنها: «هل سيتمّ اتّهامي الآن بأنّي داعية سلام؟».

بعد ساعة أتوا إلى جدول صغير. عبر المزارعون إلى قوارب ضيّقة أو مشوا على جسور القَردة المَصنوعة من أعواد الخيزران فقط. كان الجنود الأمريكيّون كبيرين جدّاً وحملُهم ثقيلاً جدّاً فكان من المحال العبور بالنّسبة لهم. لكن (توسي) أراد

الاستعراض فأسرع يسير إلى منتصف الجسر قبل أن يسقط إلى مياه يصل عمقها إلى مستوى الخصر.

ضحك الجميع وأطلقوا الصّيحات. حتّى القرويّون توقّفوا وصاحوا.

كان التّهريج استراحةً لهم كأنّهم كانوا خارجين في رحلة لاستكشاف الطّبيعة.

رمى أحد عناصر القوّات الخاصّة خشبةً إلى أجمة صلبة من القصب لتكون معبراً ويتمكّنوا من الخوض عبرَ التّيارَ المائي. والشّيء التّالي كان هزّةً صادرةً عن انفجار جعلت الجميع ينبطحون على الأرض. وقد ألقيت عليهم شظايا من الطوب والحديد. وقصّت قدمه اليسرى ومؤخّرته علبة ألغام متفجّرة مضغوطة واستلقى هناك وهو يصرخ في النّهر وانتشر اللونَ الأحمر فجّاة حوله من شدة تدفّق دمه.

كان الأمر غير متوقّع، وكان مروّعاً كحادث مروريّ، وجلست هيلين مذهولةً متجمّدةً في مكانها. ولكن ظهرت منها ردّة فعل عكسيّة وحملت الكاميرا وبدأت تصوّر بينما قفز جنديّان وجرّوا الآخر إلى أرض جافّة.

رجلٌ فيتناميّ قريبٌ من الانفجار وقف بقطعة شظيّة شكلها يشبه كتلةً ثلجيّةً مُدلاة خارجةً من خدّه.

أعطى الطّبيبُ الجنديَّ حقنة مورفين وحاول أن يوقف نزف الدّم بكمّادة كبيرة. تأوّه الجريح وصرخ وعندما رأى هيلين قال للطبيب: «لا أريد المرأة أن تراني هكذا». ابتعدت عن ناظريه لصدمتها، لقد خانتها شجاعتها. فلم يبق هناك شيءٌ لفعله إلا انتظار الإخلاء الطّبي، تُرك الطّبيب لمعالجة الرّجل الفيتناميّ.

أرعبتهم جميعاً صرخاتُ الجنديّ، واسترقوا النّظرات إليه وهم يصلّون أن تمرّ العاصفة بسرعة. عندما فعل المورفين فعله أعدّت هيلين نفسها وذهبت إليه: «سأتركك إن أردت»، وصلت يده إليها فأمسكت بها.

قال: «هل ستلتقطين صورتي؟».

«لقد فعلت ذلك مسبقاً، والصّورة الثّالية ستكون عندما أزورك في المشفى».

«الآن أرسلي هذه إلى أمّي».

«لا نريد لأمّك أن تراك هكذا».

«أرسليها».

أمسكت هيلين بكاميرتها ومسحت عينيها لتتمكّن من التّركيز. نظرت مباشرةً إلى العدسات، الخدود والصّدر كانا منقّطين بالشّظايا السّوداء، ورجلٌ ممدّدةٌ ومنتهيةٌ بحذاء عسكريّ وبجانبها كان هناك شبح وجودِ الرِّجل الأخرى، تمّ لفّ بطّانيّة حول فخذه.

قال لها: «لا ترتعبي كثيراً، تبدين خائفةً جدّاً وكأنّها رِجلك أنت، ستتجاوزين الأمر».

بدا راضياً، نظر بعيداً، وبعد عشر دقائق فارق الحياة.

«لم أعرف اسمه».

بدا الطّبيب نافد الصّبر وقال: «اسمه سكانلون، الجنديّ سكانلون».

أومأت هيلين برأسها كما لو أنّ الاسم قد فسّر الأمر.

مشى جنديّ بجانبهما: «تمّ قتل القذر سكانلون وهذه هي القصّة القذرة كلّها».

تمّت تغطية جسمه بالمطّاط ثمّ رحل كما لو أنّه لم يكن موجوداً أبداً وتابعوا طريقهم.

عبروا الجدول بصمت ومشوا في تلك المرّة بتشكيل تامٍّ، كلّ منهم وحيداً بحقيقة جَديدة وهي انّه إذا مات فسيكوَن راحلاً ومنسيّاً كما كان سكانلوَن تماماً.

كان الإحساس بالغضب الّذي ملأها إحساساً جيّداً فقد كان إحساسها به مثل وجبةٍ جيّدةٍ أو شرابٍ قويّ، وكان إحساسها به أفضل من الخوف.

ملأها الغضب فلم يتمكّن أيّ شيء آخر من الوصول إليها.

خلافاً لكون الأسلحة الأمريكيّة المضادة للأفراد مسروقةً تمّ استخدامها ضدّهم، كما تمّ استخدامها ضد ماك كراي، كان عليهم الحذر من فخاخ العدوّ المصنوعة يدويّاً والّتي أظهرت عبقريّةً غريبةً. تمّ إخبارها ألا تأخذ أيّة أشياء قيّمة مثل الكتب والقبّعات والساعات وتتجنّب الولاعات والمؤن العسكريّة. وأن تبتعد مسافةً كبيرةً عن علب الجعة المعدنيّة غير المفتوحة، وألا تلمس الملابس العسكريّة المُهملة للعدوّ من بزّات أو خوذ، وخاصّة بزّات الإعلام لأنّ العدوّ أدرك قيمتها التّذكاريّة ووضع فيها ألغاماً. ونبّهوها أيضاً من أن تعيقها صخور كبيرة أو جذوع أشجار سقطت على الأرض أو عربات يد مكسورة. كما قالوا لها أن تحذر من أيّة حركة أو ظهور غير اعتيادي عند الأسوار مثل الطّلاء أو الخضرة أو الغبار. رفض معظم الرّجال استخدام المراحيض الخارجيّة بسبب خوف مشابه. بعد وقت قليل، حتّى سُعف النّخيل الّتي تلوح في الرّيح بدَت كأنّها سَكاكين حادّة كشفرات الحلاقة.

عندَما توقّف الرّجال للاستراحة، كان موت سكانلون قد أطلق العنان لخوفهم ومرّوا بعدّة شائعات كانوا قد سمعوا بها، ضابط جالس على نسيج طحلبي أسفل شَجرة يفجّر نفسه إلى

مليون قطعة، ودوريّة تأتي إلى قبو مهجور حين تسمع البكاء المتواصل لطفل وتنزل لتتحقّق من الأمر فيتمّ حرقها. كانت أساطير حرب غير نهائيّة عن عهر الأماكن المفخّخة.

«هؤلاء النّاس ببساطة لا يعطون للحياة قيمةً مثلنا».

سمعت هيلين ذلك بشكل متكرّر. وبالطّبع بعد العيش في وقت الحرب لجيلين بدا الأمر صحيحاً إلى حدّ ما.

بدا العديد من الفيتناميّين خاملين تجاه الموت الّذي لا يلين والدّمار الّذي كان يعبث بعقول الشّبان الأمريكيّين.

كان من الصّعب معرفة الشيء الحقيقيّ من المزيّف. غالباً اعتمد الأمر على مسألة (إلى أيّ جانب تنتمي). في معظم الوقت كانت الحقيقة تقع في أرض رماديّة، بين البينين. سمّاها الأمريكيّون «حرب فيتنام»، وسمّاها الفيتناميّون «الحرب الأمريكيّة» ليميّزوها عن «الحرب الفرنسيّة» الّتي حدثت قبلها مع أنّهم أشاروا إلى الحربين على أنهما «حربا الاستقلال». وجد معظم الأمريكان الأمر مهيناً جدّاً؛ أن يتمّ ذكرهم بالتّسمية نفسها مع الاستعمار الفرنسيّ.

توقّفوا ليأكلوا عند السّاعة الثّالثة على طرف الأدغال الّتي سيكون عليهم قريباً أن يعبروها. كانت الحرارة أكثر من مئة وعشر درجات فهرنهايت والرّطوبة بذاك القدر تقريباً. أكل الرّجال حصصهم بصمت، وكما لو أنها تاجر محترف بادلت هيلين نصيبها من علب دخان (لاكي سترايك) ومعلّبات اللّحم بعلب من الدّراق المعلّب.

نهضوا من جديد بعد نصف ساعة، لكنّ جنديّين بقيا على الأرض يتصبّبان عرقاً ولون جلدهما مثل لون فاكهة غير طازجة بسبب إرهاق الحرارة. حالة إسعافيّة أخرى. شعرت

هيلين باضطراب في معدتها بينما أخذتهم الطّائرة وطارت بعيداً. فقد كان لَديها هي حمل مسؤوليّة أنّ وضعها هذا هو من اختيارها هي. حملَ باقي الجنود حقائبهم وبدؤوا المشي في الأدغال.

كان بإمكان هيلين المغادرة، فتلك الحملة لم تكن مبشّرة بأيّة صور جديرة بالاهتمام لكنّهم سمحوا لها بالمجيء وقبلوا بها فيما بينهم، وكان الأمر مشرّفاً لها أن تبقى حتّى النّهاية.

في الميدان المفتوح يأتي الخطَر الرئيس من الأرض، لكن في الأدغال كان الخطر يكمن في كلّ ما هو عال. الكروم الكثيفة إذا لمست فجأة يمكن أن تتارجح بقنبلة يدويّة في نهايتها. الخيزران الأخضر إذا تمّ التّعثر به يمكن أنَ يضربَ من أمامه بسهام ذات نقاط حادّة.

تمكّنت من رؤية عدّة أقدام فقط من أمامها في أيّ اتّجاه، وجعلها الخوف من الأماكن المغلقة تتوق إلى الحقول المفتوحة والطّرق الّتي تركوها خلفهم شاكرين.

تحوّلت الأرض تحتهم إلى كتلة سائلة طينيّة من الخضرة لها رائحة خضرة حامضة مثل بركة مليئة بالطّحالب. كان الكابتن أولسن خلفها ومدّ يده على جذعَ أخضرَ ضخم وآثار فخّ نمر من فوق. وكاد اللّوح ينهار مع المسامير الطّويلة الصّدئة، لكنّ نمو النّبتة الجديد منعه، وكان لدى أولسن الوقت لكي يبتعد عن الطّريق، لكنّ حافة اللّوح خدشت مقدّمة ذراعه الأيمن. قرفصوا جميعاً في مكانهم حذراً بينما قام الطّبيب بتضميده.

فحص اللّوح المتعفّن الصّدئ وعرف أنّه كان هناك منذ سنوات إن لم يكن لعقود.

قال أولسن ضاحكاً: «ربّما يوجد اسم رجل فرنسيّ عليه».

مشوا في الأدغال في السّاعة السّادسة ووجدوا أنفسهم على أرض جافة مـن جديد. لم يلتقوا بأيّ جنـديّ من الأعداء، ومع ذلكَ بدا أنّ الأرض نفسـها غير مضيافة وكئيبة وأنّها هي نفسها كانـت عدوّتهـم وأنهـا كانت تنفـر من تعدّيهـم عليها ممّـا أرهق معنويّاتهم أثناء المسير.

مشـوا مسـافة ربع ميل وتوقّفوا في حقل بجانب الطّريق تحـت بـرج مـاء فرنسـيّ قديم. أخـرج الجنـود أدوات تثبيت وحفروا ليبيتوا بسـبب اقتراب اللّيل. جلست هيلين وجسدها يؤلمها وعضلاتها ترتجف. كان قد اكتمل اليوم الأوّل فقط من الدوريّة الّتي مدّتها ثلاثة أيّام. جلسـت تدخّن سـيجارةً وهي عادةٌ جديدةٌ عليها، وشـاهدت اللّيـل الذّهبي الّذي كان يخيّم علـى الأدغـال. كان الهـواء مثلَ المخمـل مليئاً بطيّـات الغبار والحشرات. كانت تسمع على مسافة بعيدة بين الحين والآخر نعيقـاً حـادّاً لطير برّي أو عويلاً غريبـاً لقرد. مازحها الجنود أنّها تسـتطيع رميَ حبّة فاكهة على الأرض وتعود بعد أسـبوع لترى شـجرةً مليئةً بالفاكهة مكانها وبعد أسـبوع آخر ستجد بستاناً.

شـاهدوا مجموعة فلاحات عائدات إلى بيوتهّن بينما تلاشى الضّوء إلى لون بنفسـجيّ عميق، سـاروا بحماس إلى أن شاهدوا الجنود في الحقل المظلم فمشواْ بصمت.

قال أولسن: «حسناً يا شباب يبدو أنّنا موجودون على الخارطة الآن». فـإن لم يعرف العدوّ مكانهم حتّى الآن فسـيعرف مكانهم قريباً.

تذمّر توسـي: «ألا يعرفون أنّنا هنا لإنقاذهم؟ من منكم سمع بالخوف من ناس يقومون بالإنقاذ؟».

قال صموئيل: «ربّما نسي أحدهم أن يترجم هذا للفيتناميّين».

تجمّع أولسن، صموئيل، توسي وهيلين في الجحر غير العميق ليدخّنوا ويناموا بينما قام حرسٌ في الخارج بحراستهم حسب أدوارهم. حاولت هيلين أن تبقى متيقّظة في البداية لكنّها أخذت تكبو شيئاً فشيئاً حتّى استسلمت ونامت بعد أن بدأ المطر، مكتفيةً بسحب المعطف البلاستيكيّ فوقها. كان أسفل الجحر مليئاً بالماء لكنّها حمت معدّات الكاميرا داخل كيسٍ بلاستيكيٍّ محكم الإغلاق وموضوع على معدتها.

استمتع الشباب كثيراً بحقيقة أنّها خبّأت أفلامها داخل واقيات ذكريّة.

عند الفجر الّذي بدا صلباً ورطباً شربوا قهوةً فاترةً وأكلوا البيض ولحم الخنزير المعلّب قبل فك الخيام والتحرّك.

سألها توسي: «هل أنت بخير؟».

قالت: «أنا بخيرٍ، فقط أشعر بالبرد والرّطوبة والوحل يملؤني».

أعطاها توسي قارورةً وبعض الحبوب: «ماذا؟».

«الصيدليّة مفتوحةٌ».

أومأت وابتلعتها بشكل لطيف كطفل مطيع.

عند السّاعة الثّامنة عاودتَ الحرارةَ ارتفاعَها إلى أكثر من تسعين درجة. وجففت الشّمس أزياءهم العسكرية. وصلوا إلى نقطة اللّقاء وانتظروا الرّياح الشّرقيّة أن تأتي بالمظليّين الفيتناميّين من مجال مشترك لمدينة مؤلّفة ممّا لا يزيد عن مجموعة من الأكواخ العشبيّة. قفز المظليّون الفيتناميّون برشاقة من المروحيّات وبدوا صغاراً ونظيفين ومرتاحين مقارنةً بالجنودَ الأمريكيين. كان لباسهم الموحّد يبدو مناسباً وجديداً.

همس توسي: «هل تخطر لك الفكرة يوماً أنّنا على الجانب الخطأ؟».

قال صموئيل: «إنّه مكانٌ شديد الخطورة هنا ليلاً ونحن الوحيدون الّذين نمتلك قدراً كافياً من الغباء لنعرّض أنفسنا للتّفجير».

هرول الفيتناميّون على طول السدّ بتشكيل تامّ كما في كتب التّدريب. واضطرّ الأمريكيّون أن يتحرّكوا بتثاقل ليتمكّنوا من اللّحاق بهم، كما لو أنّهم آباء مفرطون في محاولة حماية أولادهم.

«عذراً يا آدامز يبدو أنّه لا توجد صور اليوم». قال الكابتن أولسن.

«إذا كانوا توّاقين للأمر فإنّ ذلك يضمن عمليّاً أنّه تمّ إخلاء المنطقة من الطّيران، لن تحدث معارك اليوم».

عصف المظليّون الفيتناميّون بالمدينة الفارغة باستخدام بنادق (إم 16) ذهاباً وإياباً بطريقة متقطّعة. ثم توقّفوا ليقوموا بوقفات بطوليّة أمام مبان فارغة كأنّهم كانوا يتدرّبون على تصوير فيلم. لم تقم هيلين بالتقاط أيّة صورة. قام بعض جنود جيش فيتنام الجنوبي المتحمّسين والسّعداء جداً بإطلاق النّار على خنزير، فأفقد الصّياح القويّ هيلين أعصابها. أخطؤوا الحيوان المحظوظ الّذي تمكّن من الهروب. تراجع الأمريكان؛ لأنّهم لم يريدوا التّعرض لإطلاق النّار. وكما كان متوقّعاً، كان المكان فارغاً إلا من بعض الكلاب الضّالة والدّجاج. كانت الشّمس ضاريةً بقوّة والظلّ الوحيد المتوفّر كان من عدّة أشجار فاكهة قديمة، والأرض تحتهم كانت مليئةً بثمار المانجو والبابايا المتعفّنة المتناثرة هنا وهناك والتي عطّرت الجو.

وقفت عدّة نساء عجائز كنّ يهتممن بأطفالهنّ، وقفن بحذر في المداخل. أنزلت قوّات جيش فيتنام الجنوبي أسلحتها فجأةً وأعلنوا وقت الغداء، تمّ شراء بعض الدّجاج وذبحه وطبخه على نيران مفتوحة. وقف الأمريكيّون على شكل عقدة وهم يحرسون المكان وأسلحتهم جاهزةٌ، حتّى قام الكابتن أولسن بمناداتهم ليتناولوا غداءهم. ثمّ قام الأمريكيون بإنزال حقائبهم وفتح علب الطّعام. جاء بعض الجنود الفيتناميّين ليستجدوا السّجائر ويتدرّبوا على ممارسة اللّغة الإنجليزيّة لكن المجموعتين بقيتا منفصلتين أغلب الوقت.

تواصل الكابتن أولسن مع نظيره الفيتناميّ من خلال الإشارات بالأيدي. كان الكابتن تونغ صغير الحجم ونحيلاً، أنيقاً وصعب الإرضاء وله خصلة من الشّعر كانت على شاربه وسنّان قاطعان ذهبيّان يلمعان في الشّمس عندما يبتسم.

أخذت القوّات الفيتناميّة قيلولةً بعد الغداء استمرّت لساعتين ولم يكن للجنود الأمريكيّين شيء آخر يفعلونه فتمدّدوا في الظلّ بامتنان. كانت الحرارة غير محتملة وجعلت الجميع كسالى. بقي الكابتن أولسن متيقظاً مع رجال اللاسلكي يتواصل مع القيادة العسكريّة ويسألهم كيف يتصرّفون. وجب على الأوامر أن تناسب الكابتن تونغ بأيّ ثمن.

شاهدت هيلين بطرف عينها رجلاً عجوزاً يرتدي بيجامة فلاح يمشي خارجاً من طرف المدينة. فتّشهُ الحرّاس ولم يجدوا شيئاً. هل أتى من الحقول أم كان يختبئ في أحد الأكواخ طوال الوقت؟ مشى إلى السّاحة الشّعبيّة الرّئيسيّة وحدّق فقط في كومة الرّيش وأهمل قطع الدّجاج وتابع تحرّكه. عاد بعد عدّة دقائق وبدا الآن غاضباً يكلّم نفسه بينما اقترب من القوّات الفيتناميّة.

استدارت هيلين حتّى سمعت صراخاً بين العجوز وأحد الجنود الفيتناميّين، سألت الكابتن أولسن عمّا يحدث.

«لا أعرف ما يقولونه لكنّي أظنّ أنّ العجوز غير راض عن تبرّعه لجهود الحرب. لكننا اشتكينا للجهات العليا عن الأمر. فتلقّينا أوامر ألا نأخذ أيّ شيء غير معروض علينا. وألا نتدخّل فيما يقوم به الجنود الفيتناميّون وندعهم يتدبّرون الأمر فيما بينهم».

حملت هيلين الكاميرا وبدأت التّصوير بينما أدار الجنديّ ظهره للرّجل العجوز. أمسك العجوز كتفه بإصرار بينما اقترب جنديّ آخر منهما.

تحدّث العجوز الآن بصوت أعلى للجندي الآخر وهو شديد الاهتياج ويداه تضربان ببعضهما وهو يشير إلى بقايا الدّجاج عندما استدار الجندي الأوّل ولطمه بقوّة في رجله. كان العجوز على الأرض عندما مشى إليهم الكابتن تونغ وأطلق بعض الأوامر. هزّ الرّجل العجوز رأسه متأثراً.

اقتربت هيلين دون أن يلاحظها أحد بينما أخرج تونغ (مسدّس 45).

حاول العجوز النّهوض على ركبتيه والدّموع في عينيه، ليس خائفاً لكنه غاضب، واستمرّ بالحديث والإشارة إلى بقايا الدّجاج.

خفق قلب هيلين بشدّة في صدرها وخرجت أنفاسها لاهثةً وسطحيّة. فكّرت أنّه من المحال أن يحدث هذا. تسلّلت للأمام منحنية بينما تحرّك جنود تونغ مبتعدين عنه بعد أن أحسّوا بغضبه، اقتربت لتلتقط الصّورة بينما وقف تونغ بثبات ومدّ يده اليمنى إلى الأمام والمسدّس مصوّب إلى رأس الرّجل العجوز.

واستمرّت بالتّصوير وكانت متأكّدةً أنّ الأمر فقط مجرّد تهديد حتّى صدر صوت الانفجار المُصمّ للآذان حيث أطلق المسدّس من مدىً قصير. استمرّت بالتّصوير ورأس العجوز مهشّم مثل مجزرة ثمار بابايا ناضجة تحت الأشجار وجسمه ممدّد ومفتوح على الأرض، مرميّ من أثر قوّة الضربة والدّم يتناثر على سروال تونغ.

صرخ تونغ على الأمريكان: «مجموعة (فيت كونغ)».

تابعت هيلين تصويرها الأوتوماتيكيّ بفتحة (f/8) وسرعة مصراع الكاميرا 250 بالثّانية. وكلّ شيء في داخلها مغلق تماماً، لا تحسّ بشيء، فقط برودة وصفاء وتقنيّة. لم تدرك للّحظة الأولى ووجهها خلف عدسة الكاميرا ورؤيتها متقلّصة، أنّ تونغ كان يصرخ ويضرب الأرض باتّجاهها. مشى نحوها ووقف على بعد عدّة أقدام منها موجّهاً مسدّسه مباشرةً إلى جبهتها. وقعت إلى الخلف وما زالت تجلس القرفصاء وقامت بتصوير فوّهة المسدّس وفوقه وجهه المتجهم في إطار العدسة، وقواطعه الذّهبية تلمع في الشّمس وهي تتابع التّصوير، ركض باقي الجنود وشكّلوا نصف دائرة حوله للتّهديد.

سمعت صوت الكابتن أولسن خلفها وقد نسيت أمره منذ مدّة طويلة، كان يصرخ في الكابتن تونغ؛ كلٌّ بلغة مختلفة ولا أحد منهما يفهم الآخر.

وهي ملتصقة بالكاميرا تابعت هيلين التّصوير لما بدا لها وقتاً أبدياً، لكنّه ربّما كان أقلّ من دقيقة. كان الكابتن أولسن لا يزال خلفها ولا يزال يصرخ خلف رأسها، وبإشارة قام الجنود الأمريكان بالنّهوض وتشكيل دائرة خلفه. خطا أولسن عدّة خطوات إلى الأمام وبضربةٍ واحدةٍ كضربة دبّ أسقط المسدّس

من يد تونغ. استمرّ الصّراخ وتابعت هيلين التّصوير وهي متسمّرة إلى كاميرتها والأوتار في عنق تونغ كانت متورّمة ووجهه يتلوّن أرجوانيّاً. انتهى الفيلم ولا شيء أمامها تفعله إلا أن تبقى متجمّدة على ركبتيها وعينها على الكاميرا خائفةً أن تتحرّك. فإذا أزالت غطاء جسم الكاميرا كانت متأكدةً أنّها ستلقى حتفها. وعلى مسافة بعيدة كان يمكن سماع صوت صراخ جاموس الماء، ويعني ذلك أنّ تونغَ قد هدأ وصمت. ركل الطّين أمام هيلين ممّا أرسل الغبار طائراً إلى وجهها واستدار بعيداً.

قال أولسن ممسكاً هيلين بكلتا ذراعيه وهو يجرّها إلى الخلف: «هل تحاولين قتلنا جميعاً من قبل حلفائنا؟ هل جننت؟».

كلّ ما استطاعت التّفكير به هو أنّها لم تكن خائفةً. كانت غير خائفة بصورة مذهلة.

«ذاك الجدّ العجوز لم يكن من مجموعة فيت كونغ».

صرخ أولسن إلى رجل الاتّصالات: «اطلب مروحيّة الآن فوراً، ستذهبين من هنا».

أثارها ما فعلته لتوّها ولم تستوعب أنّه سيتمّ إبعادها: «لم أفعل أيّ شيء خاطئ».

«جميعكم، تحرّكوا إلى الأمام».

بعيداً عن الجنود الفيتناميّين وتونغ هدّأ أولسن من روعها وقال: «ظننت أنّني سأخسرك».

«ليس عدلاً أن تبعدني».

«اسمعي، إنّه شخصٌ مغرورٌ ودنيءٌ، لكن هذا الدّنيء تابع لنا. لقد جعلته يفقد ماء وجهه وأنا لا أستطيع أن أكفل أنّهم لن يصطنعوا حادثاً صغيراً للنيل منك».

جلست هيلين على الأرض وأمسكت رأسها بيديها وفجأة كان العطش يقتلها: «هل لي ببعض الماء؟».

ضرب أولسن على فخذيه وقال: «لا أريد أن يقتل رجالي وهم يحاولون الدّفاع عنك».

«حسناً لا بأس، أريد الماء». فكرة الذّهاب هي ضدّ رغبتها وتبدو سيّئةً أيضا كما بدت اللّحظة الّتي مضت، فقد كان لديها فيلم لتظهره.

«اسمعي انت مجنونةٌ، حسناً؟ تستطيعين العودة معي أيّ وقت آخر».

«سجل هذا الأمر كتابة».

قال ضاحكاً: «أعرف، أعرف أنّك ستفعل».

ارتجفت هيلين على الرّغم من الحرّ وجلد ذراعيها يقشعرّ عندما طارت المروحيّة عائدةً إلى تان سون نهات. بدا لها الحادث مع تونغ لا يزال غير حقيقيّ، بسبب الإرهاق الذي أصاب الحملة، وليالي الحرمان من النّوم.

كانت ملابسها مغطّاةً بالطّين وتصدر عنها رائحةٌ، وشعرها مربوطٌ على شكل ذيل الفرس، لقد كانت فخورةً بنفسها.

رفع لها قائد الطّاقم إبهامه مشجّعاً وأعطاها قارورةً فأخذت شربة ويسكي طويلة، شربتها كالماء ولم تشعر إلا بإحساس الحرقة في أسفل حلقها، طاروا فوق قبّة الأدغال بعيداً عن الخطر وتمنّت هيلين ألا ينتهي القتال وألا يضطرّوا للعودة وملامسة الأرض من جديد.

عندما خرجت من المروحيّة كان روبرت ينتظرها في تاكسي: «أخبريني بكلّ شيء، أولسن كان قد أبلغ عن الحادثة مسبقاً عبر الرّاديو. وأنا الآن أكتب القصّة بينما يتمّ تحميض الصّور.

يجب نقل الحقيبة إلى هونغ كونغ بأسرع وقت ممكن، لن يسمح الرّقباء بمرورها أبداً».

وقفت في الغرفة المظلمة الّتي هي بحجم خزانة وكان رأسها يصطدم بالرّفوف المليئة بزجاجات بلاستيكيّة تحتوي مواد كيميائيّة وهي تشاهد (آرني) مديرَ مكتب اللاسلكي يحمّض الفيلم. قال إنّه من المهمّ أن يدعها هي أو أحد المعاونين يقوم بذلك. كان (آرني) ذا بطن متخمة، وكان متزوّجاً وزوجته وأولاده كانوا في لندن. كانت تشكيلة المكتب من الصّحافيّين المستقلّين هي مجموعة أيتام غير متسقة مع بعضها. أمضى وقتاً طويلاً في شرح تقنيّات ما يحدث حولها لهيلين: «هل تفهمين؟ اللّعنة!».

كانت الصّور على الأرجح ملتقطة وموضوعة داخل أطر، سلسلةٌ كاملةٌ من أهالي القرى الأحياء والأموات، وفوّهة بندقيّة تحت وجه الكابتن تونغ الغاضب ونهاية المسدّس مصوّبة مباشرةً إلى الكاميرا وإلى مَن خلفها.

ارتجفت هيلين بعد أن نظرت إلى الصّور، كان الظل غامراً كما لو أنّها غمامةٌ مرّت وحجبت ضوء الشّمس، وهو لغز كان يطاردها، إنه هو ذاته الّذي لمحته في جنازة ماك كراي. الآن فهمت ما قاله لها في تلك اللّيلة من أنّ اللّغز يأتي إلى كلّ شخص بلغته الخاصّة وعليك فكّ رموزه بنفسك. كانت مرعوبةً جدّاً في ذلك الوقت لدرجة أنّها كان يمكن أن تصاب بالعمى.

قال (آرني): «العمل تحت الضّغط سيّئٌ جدّاً، هذا لا يصدّق، عملك جيد جدّاً لدرجة أنّهم ربّما سيطردونك خارج البلد وسأفقد مصوّراً واعداً آخر».

«هل هم أكفياء؟» كان التشنّج في جسمها يرتخي بسرعة الآن.

«لن أصدّق دون أن أراهم. لكنّي تكلّمت مع المكتب في نيويورك فقالوا: إنّهم إذا كانوا بنصف جودة ما يدّعون فسيعرضون عليهم عملاً بدوام كامل في خدمة الوكالات الإخباريّة».

«هل هم بنصف الجودة الّتي يدعونها؟».

جزءٌ من الرّعب في الأشهر الماضية كان سببها أنّها غير قادرة على فعل ما جاءت لفعله، وأنّها تعوزها الكفاءة اللازمة كصحافيّة مستقلّة، كانت تستطيع البقاء في الخارج لأيّة فترة تحتاجها لتلتقط صورةً. كان الكابتن تونغ قد تحدّث لتوّه بأنّ أفعالها غير مقصودة. الآن هل ستشعر بالضّغط لكي تقوم بمخاطرات مشابهة مرّةً بعد أخرى؟

«هم أكفياء بنسبة مئتين بالمئة، ربّما سأعطيك زيادة ثلاثين دولاراً للصّورة الواحدة. لا تكوني جشعة».

عبست: «لا يستطيعون إبعادي الآن. أليس كذلك؟».

«يستطيعون. قاموا بفعل ذلك مع آخرين».

«حسناً». كان هذا كافياً الآن.

«وافقت على مشاركة هذه الصّورة مع مجلة (لايف) إذا كان لا مانع لديك، بإمكانهم طباعة السلسلة كلّها في عدد الأسبوع القادم، غاريَ غير المثقّف ذاك يدفع أكثر منّا وتستطيعين الاكتفاء بما يدفعونه».

أومأت هيلين دون أن تسمع وتركت الغرفة المظلمة لتجلس على الأريكة المتكتّلة، في تكييف الغرفة البارد، تمدّدت واستغرقت في نوم بلا أحلام.

التقَت هيلين برويرت في تلك اللّيلة عند بار الفندق. كان مذهولاً قليلاً ومسروراً قليلاً، لكنّ الخوف عليها كان معظم ما يشعر به.

كانت الطّاولات مزدحمة على طول الرّصيف. وكانت كهرباء المدينة قد انقطعت وتمّت إضاءة الغرفة التي تطل على الشارع المغلق بمصابيح الزيت. وبعد الليلة التي قضتها تحت المطر بدت المدينة ترفاً بصورة لم تبدُ عليها أي مدينة أخرى على الإطلاق. طاف النُّدُل بين الطّاولات حاملين مصابيح صغيرة. وبدا كلّ شيء بخير بصورة نادرة. شعرت بالرّاحة التّامة في تلك اللّحظة.

تلاشى خطرُ الحادثة مع تونغ إلى الخلفيّة، وكلّ ما تبقّى كان قوّتها البراقة الّتي لا تُقهر.

ظهرت زجاجةٌ من الشمبانيا وخادم الحانة الفيتناميّ كبير السن بردائه الأبيض يفتحها باحتفال كبير ويضعها في دلو في زاوية البار. شربت الأنخاب مع روبرت وانضمّ إليهما خادمُ الحانة بناء على إصرارها. جاء (إد) وبعض الصحافيّين الآخرين وتوقّفوا لتهنئتها.

أتى (مات تانر) ووقف خلفها. كان قد أصبح جنديَّ مارينز سابقاً مؤخّراً وقام بذكر نكتة عدّة مرّات مفادها أنّ المارينز قاموا بطرده. قالت الشّائعة إنّهُ أحبّ الحرب كثيراً وإنّه جلب معه شهوته للدّم ليقدمها إلى الصحافة. كان دائماً يشعر بالمنافسة عندما كان ينجز أحد المخبرين الآخرين عمله بشكل جيّد، كأنّهم كانوا يسرقون فرصته في الوصول إلى المجد. عندما يكون غيوراً وثملاً هو الآن كان وجهه يزداد نحولاً كما لو أنّه اكتسب صفة الذّئاب.

«حيلةٌ دعائيّة لطيفة لهذا الصّباح. لَمن ستدفعين ليلتقط هذه الصور؟».

قال روبرت وهو يقف: «انصرف يا تانر».

«ما هذا؟ أهو ملاكٌ جميل».

«ربّما عليك أن تأخذ استراحة من أن تطأ على ظهور الآخرين لتحصل على القصّة قبل غيرك» قالت هيلين.

«من اللّطيف الكلام معك». قال له روبرت: «وللأسف إنّه عليك أن تذهب».

غمز تانر لروبرت ليقرّر إذا كان مزاجه ملائماً للشّجار: «كلّ ما أودّ معرفته مَن الشّخص الّذي اضطرّت لمارسة الجنس معه هذه المرّة».

«لماذا؟» قالت هيلين «هل تريد الرقم؟».

قال روبرت: «هذا يكفي».

«جميعنا نعلم أنّ هذا لم يحدث مع روبرت». قال تانر هذا الكلام ومشى بغطرسة خارجاً من البار.

جلس روبرت على مقعد البار وأفرغ كأسه وصبّ كأساً أخرى.

قالت هيلين: «أتمنّى أن تعيده قوّات المارينز إليها».

«أنا صديقك وليس من شأني أن آمرك أنت ودارو. لكن عليك أن تكوني حذرةً فـ (تانر) منافس لك، وهو ليس خائفاً مثلي مِنَ مغادرة سايغون وحفلاتها الرّسميّة. ستشعرين بالحرقان إذا لم تأكلي شيئاً حلواً».

«أنت ذكيٌّ بما فيه الكفاية. ألا تحتاج إلى لفت للانتباه».

تصلّب روبرت: «ليس عليك أن ترمي لي عظمة».

شربت هيلين كأسها ونظرَت إلى القاع فلربّما تجد إجابات هناك: «لو كنتُ شابّاً لما قلت لي أن أقلق من الإحساس بالحرقان».

«لو كنت شابّاً لطلبت منك أن تلكميه، لكنّي كنت سأخبرك بالحقيقةَ، ولربّما لم أكن سأحضر زجاجة الشّمبانيا هذه أيضاً».

ضحكت هيلين فهذه التّمثيليّة من المغازلة الخفيفة كانت ضروريّة لكليهما: «هل بإمكاني أن أعترف بشيء؟ بيننا فقط؟ يعطيني هذا شعور جيّد».

«استمتعي به، فقد استحققته، لكن كوني مستعدة».

«ما الّذي سأستعد له؟».

«لما سيأتي بعد ذلك».

في الصّباح تصدّرت صورها وقصّتها عناوين عدّة صفحات أماميّة حول العالم. مجلة لايف اشترت السّلسلة من الصّور وخطّطت أن تستخدم واحدةً منها كغلاف للأسبوع القادم، وملاحظات المساهمين وصفتها بأنّها أوّل امرأة مصوّرة للقتال في حرب فيتنام.

نظرت إلى اسمها المطبوع بإحساس من الرّاحة. إنّها تستطيع البقاء دون أيّ مزاح أو نكتة في الأمر. قبل ستّة أشهر لم يكن أحد سيصدّق أنّها كانت قادرةً على فعل ذلك. خلفيّتها الوحيدة كانت حصص تصوير في المدرسة الثّانويّة وبعض الأعمال لجريدة الكلّية مثل تصوير مباريات كرة القدم. وبطريقة ما، لم تكن مؤمنةً بنفسها لكنّها الآن أحسّت بشعور الانتماء إلى ناد للرّجال، حتّى لو أنّها لم تكن متأكّدةً إن كان واحدٌ أرادها فيه. ومع مرور الوقت كانت تجد نفسها عُرضة للتّجاهل والتّرحيب بقدر متساو.

ثورة الأعصاب الّتي أصابتها لم تكن من جرّاء قتل العجوز الّذي كان رُعباً متكرّراً، ولا من الدّليل أنّ جيش فيتنام الجنوبيّ أصابه السّعار وكان يهاجم الجمع المدنيّ، ولا حتّى وجهة النّظر أنّ أمريكا كانت تدعم حلفاء مشكوكاً بأمرهم. متعتها بدأت بالتّلاشي عندما أدركت أنّهم استخدموا قصّة الكابتن تونغ

وكيف هدّد امـرأة مصوّرة مواطنة مدنيّة أمريكيّة. ولكونها امرأةً كان هو أساس القصّة.

اعترضـت حكومة فيتنـام الجنوبيّة على الفور إلى السّـفارة الأمريكيّـة قائلةً: إنّه تمّ تزييف الحادث. أنكر الكابتن تونغ قصّة هيلـين وقـال عنها إنها جاسوسـة، مع أنّه لم يسـتطع أن يشـرح لماذا كان الأمريكان يشوّهون سمعة حلفائهم، لكنّ الصّور وشهادة الكابتن أولسن كانوا بمنزلة تأكيد وافر. تمّ إجهاض مهمّة الرّفاق لأنّ الدّعايـة نبّهت قوّات الغوريلاّ الفيَتناميّة بتحرّكاتهم. هنّأها أولسـن وقال: إنّه احتفل مع الرّفاق بشـرب البراندي والسّـجائر فـي قاعـدة المخيّـم الآمنة. كان هنـاك حركةٌ فـي طريقها تهدف لتسمية منطقة إنزال باسمها وليس اسم جائزة سكانلون.

رفضت في تلك اللّيلة دعوة روبرت للغداء مع الشّباب وأمضت أمسـيتها تمشـي وحيـدةً فـي شـوارع سـايغون. الشّـعور العالـي بالأدرينالـين مـن الأحـداث الّتي حصلت تحـوّل الآن إلى هبوط التّوتـر. أثبتـت لنفسـها مـا عرفته من قبـل أنّه تحـت الظّروف الصحيحة بإمكانها أن تكون شـجاعةً. وتلك هديّة غير معروفة، غريبة وعشوائيّة مثل القدرة على العزف على آلة أو القدرة علىَ لعب رياضة ما. لكنّ ذكرى الرّجل العجوز سمّمتهَا.

رأسـه الأصلـع، عيونـه المتبلّـدة الغامقـة والأرجـل النّحيلة المعضّلـة المفلطحة. أحسّـت بالذّنـب أنّه كان خـارج قريته، كانت الوحيدة الّتي حزنت على موته، كانت فكرةً متعجرفةً ربّما، لكنّه دخـل إلـى حقل الإحصـاءات مسـبقاً. ربّمـا كان الوقت مناسـباً للمغادرة اللّيلة وحالاً دون أيّ وداع.

اسـتطاعت أن تـرى قدرة الحرب علـى التّأثير فيها. ولم يكن هنـاك أيّة طريقة ليخرج الحادث بصـورةٍ أفضل ممّا خرج عليه،

ولكـن كان هنـاك طـرقٌ كثيرةٌ كفيلـةٌ بأن تجعله يخـرج بطريقة أسوأ.

أغلـق حلاقـو الطّريـق محالّهـم على طول الأرصفـة تاركين المرايا والرّفوف معلّقة خارج جدران المبنى. جعلت رائحة الطّعام معدتها تدمدم فهي لم تأكل منذ الفطور.

توقفت بشكل أخرق عند كشك للحساء وأشارت إلى ما أرادته. ابتسم العجوز وسرعان ما تجمهرَ حشدٌ كبيرٌ ليشاهدها ضاحكين لرؤية امرأة غربيّة تقرفص على الطّريق وتأكل بالعيدان وملعقة مثـل المغرفة. حذّرت كتيّبات الصّحة الرّسـميّة من طعام الشّـارع لكـنّ هيلين كانت متعبةً من إطاعة القواعد ومن كونها مرعوبة. كانـت هذه اللّيلة محصّنةً. ارتشـفت الحسـاء بالطّريقة نفسـها الّتي كان يقوم بها الرّجل الفيتنامـيّ إلى جانبها.

بعـد أن أنهت حسـاءها نهضت على تصفيـق عدّة فيتناميّين حولهـا وهـم معجبون بأنّها أنهت الحسـاء كلّه، فانحنت ومشـت عائدةً إلى الفندق.

كان المقال الأساسيّ عن الكابتن تونغ وعن مقتل سكانلون عند نفق تحت الموقع بينما كان خارجاً في الحملة الّتي ذكرت مصادفة فقط، لم يكن موته يستحقّ أن يكون بين الأخبار في وقت الحرب، لكـنّ موتـه بالطّبـع كان الشّـيء الوحيد المهمّ في ذلـك اليوم. أما موت القرويّ المُسـنّ فكان مأسـاةً أخرى لا تسـتحقّ الذّكر. واسـت نفسـها بفكرة أنّ الصور حيّةٌ ونابضة بما فيه الكفاية لتهزّ النّاس وتوقفهم عن الرّضى عمّا يحدث حولهم، كان ذلك يعني أنّ الحرب سـتنتهي بشـكل أسـرع، وأنّ حادثتي الموت اللّتين وقعتـا لم تذهبا سـدىً. تمنّـت بثقة تقـلّ يوماً بعد يـوم أنّ موت مايـكل لن يذهب سدىً، هناك الكثيرَ من الموت الضّائع الّذي لا يمكن تحمّله.

لم تغادر فكرها كلمات ماك كراي: (يريدونك أن تكوني جزءاً من فيلمهم لا تنسي ذلك أبداً). طاردها علم الغيب الخاصّ بهم، وإذا كان هنـاك أيّ أحد احتاجت للكلام معه تلك اللّيلة كان هو. مـن المناسـب أنّه تحـوّل إلى شـبح الآن. وكان أيّ نصـر تحسّ به منقوصاً بسبب أنّ صورها ستُستخدَم لأغراض لم تكن في نيّتها. تخيّلت وجه ماك كراي عبر الطّاولة في تلكَ اللّيلة. كانت صورة أكثر إظلاماً. هل سيسـمح تشويه سـمعة جيش فيتنام الجنوبيّ بإحضار المزيد من الجنود الأمريكيّين؟

التأثير الوحيد الملموس لصورها كان عدد الطلبات الّتي أتت لتغطيـة حركات هيلين نفسـها. أرادت فـرق تصوير من الولايات المتّحدة أن تخرج وتصوّرها وهي تصوّر الحرب. إذا سمحت لذلك بالحـدوث فمـن الأفضـل لهـا العـودة إلى الوطـن لأنّها سـتثير مشـهداً للفرجة. خطيئة الصّحافيّ الأساسيّة هي أن يتحوّل هو إلـى مركز القصّة. أحرجها الأمر وجعلـت (آرني) يرفض طلبات الجميـع. ثـمّ أتاها عـرضٌ من مجلّة لم تسـتطع رفضـه وهو أن تنضمّ إلى طاقم التّصوير.

عندما حصل (آرني) أخيراً على تصريح ليعرض عليها عملاً بدوام كامل بخدمات الشّـبكات اللاسـلكية، احمرّ وجهها وقالت: «غاريَ قدّمَ لي مسبقَاً عرضاً كبيراً».

«نعم ظننت ذلك. جيّد. هذا غير مهمٌ هنا».

«سأفتقدك».

قال (آرني): «لا، لا، عليك العثور على جنديّ جيّد لتتزوجيه».

تعلّم على مرّ السـنين أنّ لكلّ صحافيّ أسـبابه الخاصّة والمحدّدة الّتي توضح أسـباب ذهابه إلى ميدان المعركة. وظنّ أنّ سببها كان مناسباً مثل أسباب الجميع.

طلبت أن تكون مهمّتها الأولى تغطية منطقة (هايلاندز) المركزيّة ومنطقة (آي كوريس) التي تتبع لوحدة القوّات الخاصّة الّتي كان يعمل فيها أخوها.

تجاهلها غاري قصداً وأدركت أنّ ذلك هو ثمن أن يتمّ شراؤها.

عندما نظفت أسنانها في تلك اللّيلة لتجهّز نفسها للفراش سمعت طقطقة خفيفة على الباب. خفق قلبها وعادت إليها كلّ المشاعر الّتي مرّت بها طوال الأسبوع متمنّية أن يكون دارو. فتحت الباب بقميصها الدّاخليّ، لكنّ لين كان واقفاً هناك.

«هل أيقظتك؟» قال جافلاً لرؤيتها دون ملابس.

«لا لا، هل كلّ شيءٍ بخير؟» سألت هيلين وهي تنظر خلفه.

«سأعمل لديك الآن».

«ماذا؟ ماذا تعني؟».

«طلب منّي سام أن أعطيك هذا». سلّمها لين ظرفاً.

«ادخل، اجلس» أشارت له إلى كرسيّ وفتحت المغلّف.

إلى هيلين الّتي أطلقت ألف سفينة. مبارك. مع أنّك صدمتني بوجودك على غلاف المجلة، وكدت تعرّضين نفسكَ للقتلَ في تلك المقامرة. وبما أنّك قرّرت أن تلَعبي لعبة الرّجال، اقبلي منّي على الأقلّ حارساً لحياتك، وهو لين، سيكون ذا قيمة كبيرة بالنّسبة لك. مع حبي. دارو.

وقف لين إلى جانب النّافذة وهو يحدّق إلى الخارج. عندما تكلّمت معه أبقى وجهه بعيداً وظنّت أنّ قميصها الداخليّ أحرجه فلبست رداءً ولكنّه حافظ على تأمّله.

سألته: «ما شعورك حيال هذا؟».

«من المهمّ بالنّسبة لسام أن أعمل معك. أتمنّى أن تكوني قويّة. ستكون هذه حرباً طويلة».

(7)

(هوى تشانه)

(الفارون)

بعد أسبوع من الغداء الّذي كان قد تمّ فيه تقديم (لين) لهيلين للمرة الأولى، ذهب لين إلى غرفة دارو الفندقيّة وفوجئ برؤية صورتها على قمّة صور مطبوعة. لم يختلط دارو كأصدقائه الصّحافيّين بفتيات البارات الفيتناميّات في النوادي العديدة.

عرف لين عدّة نساء مواطنات بمن فيهنّ تلك المرأة من كمبوديا، ولكن لم يكن لديه صديقةٌ بشكل واضح.

ربّما فضّل دارو النّساء الغربيّات، لكنّ لين الّذي كان هناك شاهد عدداً لا بأس به من النساء يحاولن لفت انتباهه دون أيّ نجاح. هل كان يحاول البقاء مخلصاً لزوجته في أمريكا؟ لم يتكلّم أبداً عنها بالطّريقة الّتي يتحدّث بها رجلٌ عن امرأة يحبّها. ولكن حتّى لين نفسه لم يتكلّم عن (ماي) حتّى رحيلها.

ما الّذي جعل صورةً مصوّرةً جميلةً أكثر إجفالاً من انفجارٍ واحد على أرض قاع نهر عطشى.

تفحّص لين الصّورةَ عن قرب أكثر، ورأى أنّها كانت ترتدي سترةً واقيةً من الرّصاص وسروالَ تمويه، حيث بدا النّخيل خلفها، كانت أوراق نخيلٍ مسقيّة بالماء. لم يذكر دارو الخروج

معها في أية مهمّة، وأحسّ لين بضربة خيانة لحذفه من تلك المهمّة. لقد أصبح تملّكيّاً عندما يتعلق الأمر بصحبة دارو وأسراره.

قال دارو وهو يدير وجهه وقد بدا عليه الغضب من انتباه لين وضرورة اضطراره لشرح أسبابه له: «أتذكر تلك الصّحافية المستقلّة من الولايات المتّحدة؟».

«صحافيّةٌ مذهلةٌ جدّاً».

«أنت محقّ. عليّ تصويب خطئي. فأنا أكسر قواعدي الخاصّة. الجميع يمرّ بفترات الشّعور بالوحدة حتّى سام دارو العظيم نفسه».

«لا تجعلني أشعر بشعور أسوأ ممّا أشعر به».

ارتجف لين وأجبر نفسه أخيراً على النّظر بعيداً عن الصّورة. كره حقيقةَ أنّه أجبره على ذلك الاعتراف. كان يتحوّل إلى شخص يتصنّع الحياء. وكأنّ دارو أنقذه من أخفض نقاط وصل إليها وكان عازماً على ردّ صنيعه اللطيف.

في المرّة الثّالية الّتي رآها فيها لين كانت تقفز إلى الحياة من تلك الصّورة وهي تمشي إلى غرفة دارو الفندقيّة. وعندما صافحته عرفت أنّها معمّاة بسبب معاملة دارو القاسية. كان دارو يكسر قلبها الصّغير وكان لين يهرب من تلك المذبحة.

في بار الفندق وقف يشرب شراب (سترون بريسي) وسأل (توان) خادم البار الّذي كان رجلاً كبير السنّ من منطقة هيو عن ابنه الأكبر الذي انضم إلى جيش سايغون. اشتكى توان من غلاء الرّشوة الّتي تضاعفت عن العام الماضي وهو يضطرّ لدفعها ليحصل على عمل مكتبيّ آمن. تخيّل لين طوال المحادثة وجود دارو وهيلين فوق وهما يناقشان طريقةً

لحبّهمـا. مع انّـه راى وعانـى الكثير لم يرهما طائشـين. في الحقيقـة راى الأمر يدعو للتفـاؤل لأنه في وســط الحـرب لا يزال النّاس يفكّرون بتلك الأشياء. الا يعني ذلك انّه يمكن للعالم أن يشفى؟

مـع انّ لين اخذ وقتاً طويلاً في إنهاء شـرابه لكنّه عاد مبكّراً جـداً، وراى هيلـين مثـل مـلاك يبكي وحيـداً في الرّواق. كشـابّ صغير، قام بدراسـة وافية لكلّ الأسـاطير الفيتنامية وكان الملاك غالباً سمةً اساسيّةً في قصّة البطل. والذي هربت البطلة عندما راته.

مـرّت شـهورٌ ولم يذكر سـام أو لين موضوع هيلـين مرّةً أخرى مـع انّـه يوجد لها صـورةٌ داخل إطـار على الطّاولـة. وفي إحدى حكاياتـه المفضّلة، وهي ما حدث مع المَلاك، كان هذا هو ما حدث معها تماماً، إذ اختفت من خلفيّة الصّورة. من المحتمل أنّ هيلين عادت إلى بلادها وأنّ خيال الحرب قد فقد بريقه.

فوجـئ كلّ من دارو ولـين بصور الإعدام، واعترف دارو أنّه كان يتتبّع خطاها. والطّريقة الّتي قالها بها كشفت أكثر من ذلك.

«لقد نالت إعجابك».

«أراها تمرّ بكلّ الأشياء الّتي مررت بها».

«فعلاً؟».

«ولا أريدهـا أن تقـوم بهـا، إنّـي أرى كلّ خطـوة كان بإمكانـي التّوقف فيها».

أمضـى مع دارو فترةً طويلـةً كافيةً ليرى أنّه كان الأفضل في مهنتـه، وأنه يهتمّ بها بشـغف. كان هنـاك حزنٌ لكنّه فكّر أنّ ذلك أمر من الأمور الشّخصيّة لا أكثر.

«لا أفهم».

«لقد عرض عليها غاري العمل بأن تنضمّ إلى فريق التّصوير مـع المجلّة. لا أريدها أن تعرّض نفسـها للقتل وهي ترتكب خطأ غبيّاً. أن يعمل معها».

«ماذا لو لم تقبل؟».

«ستقبل».

فهـم لين من نبـرة الصّوت أنّها كانت تأكيد العاشـق: «أفضّل العملَ معك».

«سيعني لي الكثير يا صديقي لو حدث ذلك».

عندمـا أتى لين إلى غرفتها الفندقيّة بدت محرجةً. أشـعلت سـيجارةً وقدّمت له واحدةً وجلست على السّرير. قالت: «لم نبدأ مع بعضنا بدايةً جيّدة».

«عذراً؟».

«عندما التقينا جعلت من نفسي أضحوكةً».

هـزّ لـين رأسـه كمـا لـو أنّـه يطـرد شـخصاً يضايقـه. كان هـؤلاء الأمريكان لا يزالـون يحتاجون وقتاً ليتعـوّد المرء عليهم بصراحتهم الكاشفة واعترافهم الدّائم بعللهم ونواقصهم. كانت قواعـد الأدب في فيتنام تمنع الحديث عن أمر كهذا. مضى على زواجه سـتّة أشـهر وهـو يحضّر أوراق الموسـيقى لـ (ماي) بشـكل أسـبوعي، لكنّها لَم تغنِّ الأغانـي الجديدة مطلقاً قبل أن تجعلَه يغنّيهـا لها بصوت عال أوّلاً. عندمـا غضـب منها، اعترفت أخيراً أنّـه لا يمكنهـا القَـراءة، ظـنّ أنّها قصـدت أوراق الموسـيقى لكنّه استشفّ أنّها كانت تحفظ الكلمات.

نظـر الآن إلـى هيلين وصدم باسـتقبالها له وهـي عارية. مع ذلك جرّده الأمر من دفاعاته وجعله يشعر أنّ عليه حمايتها كما لو أنّها طفلةٌ صغيرةٌ عاجزةٌ تثق بالجميع.

«رأيتُك أوّل مرّة في المطعم، دخلت مبلّلةً بالمطر».

تغيّرتَ ملامح وجه هيلين وقالتَ: «انطباعٌ سيئٌ آخر».

«لا .. ظننتُ أنّك امرأةٌ جائعةٌ». ضحكوا. لماذا أغفل ذكر المرّة الأولى الّتي رآها فيها حقيقةً وهي خارجةٌ من سيّارة الجيب الحربيّة أمام الفندق بينما كان جالساً في البار مع مستر باو؟ هل كان ذلك لأنّه لم يردها أن تتذكّر أنّه كان بصحبة مستر باو؟ أو هل كان السّبب أنّه أراد أن يحتفظ بذكرى المرّة الأولى الّتي لمحها فيها لنفسه؟ أو ربّما الأسوأ؛ هل كان السّبب أنّ عادة الغشّ أصبحت متأصّلةً فيه جدّاً، وبات يفضّل الأكاذيب على الحقيقة؟

في الصّباح التّالي مشى لين إلى الفندق وأمضى اليومَ كلّه يشاهد المدينة من خلال عينيها. حدث ذلك كلّ يوم، وقد أدرك يوماً بعد يوم أنّه كان يريها وطنه.

كان طلبهَا الأوّل أن تتعلّم اللّغة الفيتنامية بما يكفي لتجعل النّاس الّذين هم مادّة تصويرها مرتاحين. لم يطلب أيّ أمريكيّ آخر ولا حتّى دارو طلباً كهذا. كانوا يختبئون خلال الأمطار الموسميّة تحت أكشاك الشّاي الصّغيرة. وكانت تحمل كوب الشّاي الخزفيّ تلفه بأصابعها الطّويلة وهي تستمع إلى صوت المطر يطقطق على الشّرفة المعدنيّة للسّطح بينما يتدرّبون على المحادثة. كان الأولاد غالباً ما يتجمّعون عند رؤية امرأة غريبة في حيّهم، كان الأمر لا يزال جديداً، وكانوا يضحكون على أخطائها في التلّفظ. جلسوا على الأرض حول الطّاولة المهشمة مثل قطع بلاستيك منفردة ملتفّة حول أكتاف نحيلة تحت المطر. نادت هيلين بائع الطّعام واشترت منه كعك الأرز مع حبوب السّمسم للجميع. كان لين متأكّداً أنّهم أحسّوا بأنّهم في حضرة ملاك.

«كيف تقول شكراً؟».

«كام أون».

«تعال؟».

«قوليها من جديد».

«كام أون».

«هذا أفضل». ضحك لين.

«كيف تقول: «هل بإمكانها تحدّث الإنجليزيّة؟».

«تشي آي بييت موي تييتج أنب كبونج».

أتت الكلمات على شكل فيضان يستحيل فصل أجزائه، مع توقّفات وأصوات تصدر عن الحلق. أحسّت أنّها لن تتمكّن من فهمها على الإطلاق.

«آسفة أنّني سألت».

«سنبدأ ببطء، استخدمي الكلمات كلّ يوم واستمعي إلى القصص. هكذا تعلّمت الإنجليزيّة».

صبّت هيلين المزيد من الشّاي من إبريق شاي قديم: «أعلم أنّ الأمر مُحبط أن تنتقل من العمل مع دارو إلى العَمل مع مبتدئة».

«ما معنى كلمة محبط؟».

«أعني هبوطاً في المرتبة وخطوة للأسفل».

أخذ لين كوبه. مرّة أخرى كان ذلك بداية ما يجب أن يبقى سرّاً ولا يتحدّث أحدٌ عنه، ومع ذلك احمرّ وجهه من الإحراج وخمّنت هي مشاعره: «عندما تتشكّل الكلمات على لسانك بشكل طبيعيّ، أعتقد أنّك ستدخلين قلب البلد».

«لكنّك لم تزر أمريكا يوماً».

«كانت شيكاغو المفضّلة لديّ في أحد الأيام».

لكن حالما بدات باستجوابه، سارع إليهما مجموعةٌ من الأولاد وأكثروا من إلقاء الأسئلة عليهما.

بعد إعادتها إلى الفندق في ذلك اليوم، مشى هو على طول النّهر. كيف له أن يعترف بأمر كهذا؟ إن ذلك يدعو للعار. لكنّه كان وحيداً لفترة طويلة ولم يفصح عن مكنونات نفسه مع أي شخص آخر ففاضَ فمهُ بالكلمات مع أوّل إشارة اهتمام منها. لا أحدَ يجب أن يعرف عن سنواته في الخارج.

كان والده عالقاً في السّياسة في الجامعة يعاني من القيود الفرنسيّة غير العادلة الّتي عارضت حقّ الفيتناميّين في أن يتقدّموا لاحتلال أية سلطة حقيقية. اقتنع من دراسة حياة (العم هو) بأهميّة أن يرى العَالم. صرَف الكثير من المال واستخدم عدّة وعود ليضع لين على سفينة شحن متّجهة إلى الشّرق الأوسط ثمّ إلى أوروبا. فضّل لين الذّهابَ إلى أمَريكا. مع أنّ تلك السّنوات كانت أسعد سنوات حياته لم يشكّ يوماً بنيّته على العودة وعدم تحقيق أمنيات والده بأن يكون في خدمة وطنه.

كان لا يزال مطارداً بما رآه في (فان رانغ)، غرق عمّال الموانئ وطافوا كفواكه في الحليب بعد أن أمروهم بالقفز إلى الماء لإنقاذ السّفينة. ضحك المسؤولون الفرنسيّون عند الشّاطئ بكروش اهتزّت من السّمنة. أصبح لين مائلاً وهزيلاً مثل خنجر. وفي داكار شاهد رعب الاستعمار ذاته وشاهد سكّان البلد يؤمرونَ من قبل الفرنسيّين أن يسبحوا إلى سفينة في عاصفة.

كان لين يُشاهد عاجزاً عن ظهر المركب كَيف كانوا يغرقون مثل حيوانات ثقيلة خَرساء في الماء. مع أنّهم كانوا يسمّونه الرّئيس الصّينيّ في أمَريكا، لكن الحريّة كانت تعصف به. وبعدها ذهب

إلى الجنوب. علّمته تجربته أنّ الحاجة للحرّية ضروريّة مهما كان الثمن.

أوّل مهمّة قام غاري بتوكيل هيلين بها كانت تغطية إضرابات البوذيّين الّذين يزورون معابد (الباغودا) في سايغون. احتجاجات الفرق البرونزيّة في منطقة الوي التي كانت تخرج ضدّ الحكومة. وصف لين المسيرات الّتي حدثت قبل ثلاث سنوات ضدّ (دييم) وأخذ يخبرها عن الفوضى في ذلك الوقت. كانَ الرّهبان والرّاهبات يستخدمون أجسادهم كمادّة لإشعال الحريق حول فيتنام الجنوبيّة ليخيفوا الغرب ويبعِدوه. في قرية لين، وصفت إحدى الرّاهبات كيف وضعت الأردية على جسمها بشكل جميل في ساحة البلدة، وكيف شكّلت دائرةً من البرونزِ حاجزاً ضدّ التّدخل الخارجي. «ماذا يمكن للجيش أن يفعل؟ يطلق النّار عليهم؟» سُخف الوضع في سايغون جعل الفرق المضادّة للانتحار المسلّح بأدوات إطفاء الحريق تجوب الشّوارع.

أراد غاري من هيلين أن تلتقط صوراً للحياة اليوميّة في معابد الباغودا.

أخذوا صوراً لصبية بأردية لونها بنّي وهم يستقبلون التّعليمات وميداليّات البرونز القديمة ويرتاحون داخل غرف مظلمة يشربون الشّاي ويخطّطون. وشباب يركضون جيئةً وذهاباً بأرديتهم البرتقاليّة مثل النُّدل في مطعم مزدحم، والكتيّبات ترفرف معهم، وهم ينظّمون المقابلات مع كبارَ الرّهبانَ كما لو أنّهم نجوم رقصة (الروك).

حرارة الظّهيرة والعصي المحترقة لرجال الدّين البوذيّين أصابت هيلين بالخدر وأبطأت حركتها كما لو أنّها تمشي

فـي نومها. عندمـا ارتاح الجميع في اسـتراحة الظّهيرة صار مزاجهـا أكثـر سـلاماً، راهبـة مرتديـة الأبيـض كانـت تكنس الأراضـي أمـام الأعمـدة المنحوتـة للمبنـى وظلّ تمثـال بوذا بالكاد مُدرَكاً لمن حوله.

تحـت شـجرة (بانيان) اسـتندت هيلـين إلى مهـد من جذور الأشـجار المتشـابكة وقميصُها معلّق على ظهرها. أشـار لين إلى أحـد الباعـة أحضر لهمـا ثمار جـوز الهند المليئة بعصيـرٍ مالحٍ قليلاً. تردّدت عندما أعطاها قشّة تشرب بها العصير.

«اشربيه».

أومـأت برأسـها وأفرغتـه بشـربةٍ واحـدةٍ: «تعبـت مـن كونـي خائفةً».

«ميليشـيات الغوريـلا الفيتناميّـة مخادعـة لكنّهـا لم تدرّب أشجار جوز الهند على أن تنمّي السمّ».

شاهدوا النّساء المسنّات والشّابّات وهنّ يدخلن أرض الباغوندا (معابد البوذيين) حاملاتٍ أطباقاً محضّرةً أو سـلالاً من الخضر الطّازجة.

«هل يقوم المجتمع بتزويد الطّعام؟».

«المجتمـع هو الباغودا حيث يقومون بإحضار الطّعام أو المال أو أيّ شيءٍ يحتاجونه».

«لكن ليس لديهم ما يكفي لأنفسهم».

«كل واحدَ منهم مثل قرميدة في جدار، كلٌّ معتمدٌ على الآخر ولا معنى لأحدهم خارج علاقته بعائلته وبالآخرين».

نهضت هيلين وأبعدت قماش قميصها الّذي كانت ترتديه عن ظهرها: «هل تعرف لماذا أتيت إلى هنا؟».

هزّ لين رأسه محترساً من مزيدٍ من الأسرار.

«أردت أن أكـون مشـهورةً. كان لـديّ حلمٌ بأن أكـون الأمريكيّة الوحيدة الّتي تلتقط صوراً لسلسـلة (هوتشي منه). غبيّة أليس كذلك؟».

ابتسم لين: «يسعد دارو كلّ مرةٍ يضعون فيها صورة من صورك على الغلاف».

ضحكت هيلين: «حقاً؟».

«يجلس في غرفته ويشـرب كأس ويسـكي ويحدّق في الغلاف لنصف ساعةٍ. ثمّ يضع المجلّة في درجٍ ولا ينظر إليها مطلقاً مرّة أخرى».

ارتجفـت هيلين: «لكنّه يغفل لقطـات كان من الممكن أن تكون له، ويحزن على كلّ موت حتّى يبدو أنّه مَن المستحيل أن يستطيع أن يكمل». قالت: «لهذا أحبّه».

لـم يحتمـل أن يسـمع أكثر. كيـف بإمكانـه أن يتابعها هكذا وهذه المرأة تكشف روحها له يوماً بعد يوم: «عليّ أن أعود بالفيلم إلى المكتب».

«أيـن عائلتـك؟ أعني ما قلته قبلاً عن كـون المرء قرميدة في جدار؟».

«لا أريـد أن أهين أحداً. نحن مختلفون عن الأمريكان فنحن نتشارك في الأشياء المهمّة فقط مع النّاسِ الّذين يكسبون ثقتنا. وإلا فسنكون أسانا لذكرياتنا».

احمـرّ وجهها كمـا لو أنّها عوقبت وحاولـت أن تخفي ذلك: «أنـا أسـأل الكثير من الأسـئلة. هل تنضمّ إليّ علـى الطعام هذه اللّيلة؟».

«سألقاك أمام الفندق في الصّباح الباكر غداً».

أدارت وجهها إلى المعبد البوذيّ لتخفي مشاعرها المجروحة.

مشى لين في الشّوارع المزدحمة ووقف عند مقهى خارجيّ. أشار إلى النّادل ودفع له ليوصل الفيلم إلى المكتب، ثمّ طلب الشّاي وشربه. أحسّ بالذّنب من فظاظته معها لكنّه تغيّر منذ مجيئه إلى سايغون ونما له جلدٌ جديدٌ وانعزل عن الآخرين. سيكون تعامله أذكى لو صار الطف من ذلك. فهذا في النّهاية ما أعجبه في الأمريكيّين، براءتهم وقدرتهم على مشاركة قصّصهم مع شخص غريب. وبعد خمس عشرة دقيقةً عبر الشّارع ومشّط أراضي المعابدَ البوذيّة.

كانت المنطقة لا تزال فارغةً ومع ذلك لمح هيلين كحديقة مهجورة. كانت وحيدةً وتبكي. شعر بالإحباط، وجهها كان في غاية العرّي، كأنّها كانت واقفةً أمامه دون ملابس. وعرف الشّيءَ الصّحيح ليفعله وهو أن يمضي دون أن يريها نفسه لكنّه توقّف متسمّراً في مكانه. لقد تعرّف إلى ألم مشابه لألمها. السّبب أنّ دارو أخبره أنّها فقدت أخاً في الحَرب، هلَ كان هذا كافياً لتسبّب لنفسها وضعها الخطر الّذي هي فيه الآن؟ هذا مكان غير مناسب لرجل، فكيف به لامرأة؟ ظهر له أنّه عاد ودخل من باب المبنى وَوقف أمامها. عندما رأتَه لم تظهر مفاجأتها ولكن ببساطة مدّت يدها إليه.

«أعتَذر عن التّطفّل، فأنا أكره حين يسألني النّاس عن أخي أو عن والدي أقول إنّني بالكاد أتذكّره».

سحب منديلاً قماشيّاً من جيبه وأعطاها إيّاه: «أظنّ أنّ سرد هذه القصّة لصديق لشَرفٌ عظيمٌ».

ابتسمت ابتسَامةً ماكرةً ملتويةً وقالت: «كامون» (شكراً بالفيتناميّة).

قبل أن يستطيع إبداء أيّة ردّة فعل وقفت وعانقته. لم يعانقه أحدٌ منذ فترةٍ طويلةٍ. أحسّ أنّ رأسهَ خفيفٌ، والدم يندفع حارّاً

إلـى جلـده. وقـام لخوفه بهروب أخرق: «سـوف أذهب لعـدّة أيّام، لأسبوع كحد أقصى».

«لكَن لديَنا قصّةٌ لنغطّيها».

«ليست قصّةً تحتاجين فيها للمساعدة، ستكونين بخير».

طلب ويسـكي في المقهى. كان سـيلتقي مسـتر بـاو فيَ اليوم التّالي وكان عليه أن يصفّي ذهنه. سـيجمع الخرائط ويمرّ على مندوب أمريكيّ ويأخذ ممتلكات باو الّتي كانت علبتين من دخان مارلبورو وأربعة أرغفة من خبز (واندر بريد).

سـمح لـين لمسـترَ بـاو أن يصـدّق أنّهـم كانـوا يؤثّـرون علـى الأمريـكان الّذيـن يعملـون مراسـلين للحـرب مع أنّ المراسـلين أصبحوا بعيدين بالحقائق الّتي شاهدوها عن أيّ شيء يمكن أن يقـوم لين بافتعاله. «ليس بإمكانـك أن تأخذ أحد الأطَراف دون الآخر». هذا ما قاله باو بعد أن عثر عليه. ممّا يدعو للسّخرية أنّ ذكاء لين الّذي اسـتجمعه الآن والّذي يضمن لباو خطّه الجديد فـي الاتّجـار بالمخدرات مسـتخدماً الجيش لحمايتـه كان يجني الملايين إلى جانب انشـغاله ببيوت الدّعارة التّافهة. جعله فساده الشّريك المثاليّ للين فقد كان رجلاً دائم الانفتاح على المساومة.

بعـد أسـبوع أنزلت إحـدى المروحيّات هيلين ولـين في مدينة (بليكـو) فـي الصّبـاح الباكـر. كان التّغييـر الجغرافـيّ مخيفـاً بشـكل مفاجـئ، فالقيظ الشّـديد لأراضي (ميكونغ) المسـطّحة ومحيطَـات حقول الأرزّ الدّاخليّة الّتي تعلوها السّـماء البيضاء الحـارّة كلّه تبدّل بهـواء ألطف وأخفّ لمنطقـة هايلاندز المركزيّة الغنيّـة بأعشـاب الفيـل المحروقـة ذات اللّـون الذهبـيّ، وأشـجار الزّيتـون الأحاديّـة اللّـون والأشـجار المنخفضـة بـين الخيـزران وأشجار الماهوغني القديمة وغابات شجر (السّاغ) الضّخم.

داخل التّجمع العسكريّ كان يتمّ التّحضير لمهمّة إنقاذ قافلة كانت قد خرجت في وقت مبكر متوجّهةً إلى مخيّم للقوّات الخاصّة على الحدود الكمبوديّة، ونسبةً إلى البرقيّات اللاسلكيّة الّتي وردت سابقاً فقد كان هناك بعض النّاجين فقط صامدين حتى الآن.

تناقشت هيلين مع رئيس الجرّاحين (ميدلوك) الّذي كان له وجهٌ يشبه وجه كلب الصّيد. وحصلت أخيراً على إذنٍ لمرافقة حملة الإنقاذ، شعرت بالتّوتر لكنّها ابتلعت غضبها وكانت قد اعتادت على وجود لين إلى جانبها.

«هلا شاركتني ببعض من ذلك؟» وجّهت هيلين السّؤال أوّلاً إلى الملازم (ريلي) الّذيّ كان جالساً على صندوق ذخيرةٍ يأكل قطعةً من الشّوكولاته.

«بالتّأكيد». وكسر قطعةً من الشّوكولاته وأعطاها إيّاها: «إنّي بحاجة إلى هذه لتعطيني الطّاقة».

أومأت هيلين برأسها ووضعت قطعة الشّوكولاته الّتي ذابت بنعومة على لسانها.

«علينا أنا وأنت الاستمرار بارتداء قبّعاتنا». وأشار إلى شعره الّذي كان له لون لهب أحمر. «رؤوسنا مثل أهداف التّدريب على التّصويب». قالها وأخرج قبعةً كثيفةً منخفضةً. «هذه القبّعة هي الّتي تجلب لي الحظّ فقد قام أحد الكهنة أو ما شابه بمباركتها بالتّبول عليها».

ضحكت هيلين ضحكةً قصيرةً: «أتمزح؟».

«نعم، لكنّه قال: إنّه أيّاً كان من يلبسها فلن يتعرّض للأذى وأنا لم أخدش حتّى الآن».

«عليك أن تعوّض عن ملكيّتك لها بارتدائها».

«لديّ اثنتان في حال أضعت إحداهما. أتريدين ارتداءها؟».

«لديّ قبّعتي الخاصّة». لمست القبّعة الّتي أعطاها لها أولسن، والّتي قادتها إلى صور الكابتن تونغ. وقفت وقالت: «شكراً على الشّوكولاته».

«تعرفين أين تجدينني إذا غيّرت رأيك».

أطلق (ميدلوك) صرخةً وقامت هيلين بالبحث عن لين لتجده بين مجموعة من المظلّيّين الفيتناميّين. وقالت له: «لنذهب، حان دورنا».

نظر إليها ثمّ عاد بنظره إلى الضّباط الفيتناميّين وحمل حقيبة الكاميرا والأفلام وتبعها. في الخلفيّة استطاعت هيلين أن تسمع همهمة من أحد المظلّيين: «لن نذهب» قال حابساً أنفاسه.

«ماذا؟».

«سوف يتمّ نصب كمين لهذه القافلة».

«حسناً، هناك احتمالٌ لذلك. لكنّنا سنذهب على كلّ الأحوال». لم تستطع أن تتساهل مع الأمر لأنها كانت تشعر بحرقة في معدتها، ويداها تهتزان. ألم يكن من الواجب عليها التّغلبُ على تلك الحالة بعد مضي ذلك الوقت كلّه.

وضع الرجل الحقائب أرضاً وقال: «هذه المرّة لا».

نظرت هيلين إلى الجنود المظلّيّين ثمّ نظرت إليه. كانت الشّاحنة مصفوفةً ومحمّلةً بالمؤن، والسّيارات العالية محمّلة بالأسلحة وبالقذائف. كانت تنظر بغرابة وبنظرة غير حقيقيّة إلى كلّ شيءٍ، وكان لين يخيفها الآن. قالت وهي تشير بذقنها إلى الجنود «هل هم على علم بأيّ شيء؟».

«لنخرج». صاح الرّقيب ميدلوك من جديد.

«استمعي إليّ هذه المرّة». قال لين. نظر إلى وجهها لأنّ الأمر كان أكثر إلحاحاً من التزامه بالأدب «ابقي، في الخلف».

قالت: «سأبدو غبيّة، غاري يتوقّع أن يحصل على صور».

«كوني غبيّة إذاً». أصبح حلقه ضيّقاً، وتابع «استمعي إليّ، فهنا أنا مَن يعرف أكثر وأفضل».

أتى الرّقيب إليها بلوح وقال: «آدامز اركبي سيّارة الجيب الثّانية».

وقفت للحظة وهي تنظر إلى الأرض. لم تتوقّع ذلك، لم يكن معاوناً بقدر ما كان جليس أطفال. كانت ثقتها ضعيفةً جداً لدرجة أنّها كانت خائفةً أنّها إن تراجعت فستجد دوماً سبباً لذلك.

تنهّد ميدلوك «لا تسبّبي لي مشكلات في السّيارة القائدة فأنا في حاجة لرجالي فيها».

حافظت هيلين على صمتها. وعينا لين كانتا عليها وإذا سمحت له أن يأمرها فلن يكون هناك نهاية للأمر في المستقبل.

«آدامز؟ هل أسبّب لك الإزعاج؟».

«أنا مضطرّة لأن أرفض».

«أسرعوا. تخلّصنا من مشكلة إضافيّة». مشى بعيداً وكان قد نسيها مسبقاً.

الآن وقد تمّ الاختيار خلعت قبّعتها ومسحت جبينها غاضبةً من نفسها أنّها استسلمت، وغاضبةً لأنّها أحسّت بالرّاحة الجسديّة من الشّعور بالخوف. أحسّت بالفشل يضربها. «أشكّ أنّك كنت ستتمكّن من منع دارو من الذّهاب».

«لم أكن أحتاج لذلك. فقد كان سيعرف بنفسه ما يجب فعله».

«ماذا كان سيعرف؟».

ارتجف لين وكان قد تعب من المحادثة. لم يكن ليتحمّل ذلك. كان سيعود ويعطي دارو تحذيراً إمّا أن يعمل لديه فقط وإمّا ألا يعمل مع أحد. بالتّأكيد ليس هذه المرأة.

نظرت هيلين بسخط دون أيّة كلمة ومشت مبتعدةً إلى غرفة الاتّصالات. وقامت بأخذ الصّور في المشفى الميدانيّ لبقيّة اليوم. كانت أعصابها مشحونةً بسبب التّوتر الّذي حدث في المخيّم ومشهد الجرحى وفكرة ما كانت قد تجنّبته. ومع أنّهم عملوا جنباً إلى جنب لم تتكلّم مع لين لمرّة واحدة. كانت غريزتها تخبرها أنّه قد فاتها شيءٌ مهمٌّ، وبدل مساعدتها قام هو بإقناعها بالتّخلي عنه. كانت قد خطّطت لإنهاء الاتّفاقيّة بعد العودة إلى سايغون. لكنّ الرّحلات الخارجة كانت محمّلة بالجرحى وكانوا مجبرين على إمضاء اللّيلة. عند غروب الشّمس بينما كانت في غرفة الاتّصالات تقرأ مجلّةً قام المسؤول عن اللاسلكي بالتّلويح للرّقيب ميدلوك وأدخله.

«لقد انفجر لغمٌ بالسّيارة الأولى وقد أصيب كلّ مَن في داخلها».

هزّ ميدلوك رأسه وبدا وجهه الطّويل أطول، ولَكَم قبضته على الطّاولة.

استمع رجل اللاسلكي مرّة أخرى «يبدو أنّ بقيّة الحملة عالقةٌ في كمين ولا تستطيع العودة. يريدون أن يعرفوا كيفيّة المتابعة».

قال الرّقيب: «اللّعنة. أعطني الهاتف». نظر حول الغرفة إلى الوجوه العابسة ورأى هيلين. «هذا سرّي يا حلوة».

غادرت هيلين ومرّت ساعةٌ، وتمّ إخراج الرّقيب من الغرفة لاهثاً، اقتربت منه.

«علق بقيّة الرّجال ولم يبق إلا اثنان مختبئان في الأدغال».

لم تقل شيئاً وحاولت الا تفكّر في وجوه الرّجال الّذين مازحتهم في الصّباح. عند حلول اللّيل فقدَ رجل اللاسلكيّ الاتّصال وتوصّلوا إلى نتيجة أن الرجلين الباقيين لم يتمكّنا من النّجاة، لم يبق لين مع الأمريكان لكنّه خلد إلى النّوم مع الجنود الفيتناميّين.

في هواء الغرفة الرّطب الكئيب تمّ استخدام المصابيح الكهربائيّة فقط للإضاءة. جلس الرّقيب ميدلوك على صندوق بجانب هيلين متردّداً ثمّ مرّر إليها قارورةً وأخذت شربةً عميقةً وسألها لماذا غيّرت رأيها بتلك الحملة.

«لم أفعل لكنّ مساعدي رفض الذّهاب».

«ذاك الجبان الصّغير أنقذ حياتك. فقد أتت أوامر مشددة من القيادة العامّة. لقد نشأت في أراضي أوكلاهوما وعملت في حظائر الماشية، دعيني أخبرك أنّه لا يوجد فرقٌ. فالحرب مضيعةٌ للحياة ولا أريد أن أعطي الأوامر فيها».

طال اللّيل وكان بطيئاً ومُرّاً، وكانت أفكارها تنتقل من الخوف إلى الشّفقة على النّفس إلى فرح غريزيّ لكونها بسلام. غادرت الغرفة حوالي منتصف اللّيل لأستنشاق بعض الهواء النّقي ولتدخّن. أومأت إلى حراس الحدود الخارجيّة وعرضت عليهم السّجائر عندما صفّروا لها لينبّهوها أنّ نار السّجائر يمكن أن تجذب القنّاصة، لكنّ الخطر لم يكن كافياً ليمنعها من جلوس القرفصاء على أكياس الرّمل وتغطية مقدّمة السّيجارة بيدها حتّى امتصّتها كلّها إلى عقبها.

كان الجوّ رطباً وساكناً والضّباب متجمّعاً في أشجار المطّاط البعيدة والنّجوم من فوق كانت واضحةً بين الغيوم الشائكةً والعنيفة.

كانت تكره اللّيل وتوقّف النّشاط. وكان النّوم احتمالاً بعيداً، حيث كانت معدتها ممخّضةً وأمعاؤها رطبةً. كانت تنظر حولها متسائلةً كيف وصلت إلى هناك ولماذا كانت بحاجة إلى ذلك؟ كانت جملةً مكرّرة أنّها هناك لتعرض الحربَ أو حتّى لتختبر نفسها فيها. أيّاً كان السبب فذاك المكان كان جاذباً للشّر، أو ربّما الأمريكان قاموا بإحضاره معهم كما فعل الغزاة الأوروبيون بإحضار مرض (السفلس) معهم إلى العالم الجديد. لا شيء آخر سينفع، ولا حتّى التّصوير يمكن أن يكون له أيّ تأثير. كانت فقط رغبةً رهبانيةً ملحّةً لإيجاد هدف أو حتّى للرّاحةً. فمنذ أن وصلت كلّ ما فعلته هو أنّها تركض مَن وهم إلى وهم مهووسةً وضائعةً ومحتاجةً ومشغولةً بنفسها ظنّاً منها أنّها حقّقت بعض الفهم. كان ماك كراي يغذي غرورها لكنّها كانت الآن وحيدةً ومتعبةً وحائرةً.

عادت إلى الغرفة بعد أن أحسّت بالبرد واستلقت بكامل ثيابها على السّرير المتّسخ وهي ما تزال ترتدي حذاءها، والكاميرات بعيدةٌ عنها بطول ذراع، وعقلها كان غير قادر على التّركيز في شيء واحد لفترة طويلة. سمعت في السّاعة الثّالثة صباحاً صوتَ إطلاقَ نار وسَلاح مدَفعيّة قادماً. بدأت تسمع مدافع الهاون وصوت انفصال الصّدفة عن الأنبوب، وعلى طول السّاعة التّالية كان هناك صوتُ أسلحة وضربٌ على الأرض. لم يتكلّم أحد داخل الغرفة الّتي كانت ملجأً. كانوا مثل لحم ضعيف في رحم الأرض. في الظّلام التصقت هيلين بسريرها أكثر وكانتَ تتوق إلى رفاهيّة الرّاحة في غرفتها الفندقيّة في سايغون حيث كان بإمكانها تناول وجبة جيّدة وشراب مثلّج. كانت راحة تلك المخلوقة في التفكير بالأهميّة المناسبة لكل ما كان يُعرض عليها. كانت باستمرار

تعقد لنفسها بعض الصّفقات والاتّفاقيّات الصّغيرة بشراء شال حريريّ تتوق للحصول عليه منذ مدّة إذا تمكّنت من شرائه.

غفت بعد السّاعة الرّابعة والنّصف صباحاً ثمّ استيقظت مرّةً أخرى في الخامسة. كانت مرهقةً بشكل قاتل، نهضت متصلّبة الجسم وغسلت وجهها بمنديل وماء من القربة. أعطاها الرّقيب كوباً من القهوة الفاترة، وكان مجرّد التّفكير بالطّعام مثيراً للغثيان لكنّها بادلت حصص الطّعام الخاصّة بها بكوكتيل الفواكه الّذي تناولت منه علبتين وشربت عصيرهما.

خرجت حملةٌ ثالثةٌ عند الفجر لتستعدّ لجمع جثث الحملتين السّابقتين اللّتين فشلتا في مهمّتهما. جلس لين بجانب نار صغيرة مع الجنود الفيتناميّين الّذين كانوا يغلون الأرزّ والشّاي لإعداد الفطور. تردّدت فقد كانت غير متأكّدة إذا كانت تريد الاقتراب منه لكنّه عندما لمحها نهض من فوره وسار إلى جوار جدار رمليّ صغير وأخبرها أنّه عليها أن تجلس.

بدأت بالقول: «أريد أن أعتذر».

«وصلتني رسالةٌ عبر اللاسلكي أنّ المروحيّة الّتي كانت تقلّ دارو قد أصيبت في منطقة كاماو ودارو بخير».

أحسّت بأن الأرض تهتزّ من تحتها لفكرة إمكانيّة أنّ شيئاً ما كان يمكن أن يحدث له: «أهو بخير؟».

أدار لين رأسه فالتّعبير على وجهها كان مؤلماً جدّاً. كان قد رأى ذاك التّعبير على وجه ماي من قبل وعدّه من المسلّمات. قال: «إنّه أصيب ببعض الخدوش فقط».

عندما بدأت الشّاحنات بالتّحميل وقف وحمل حقيبة المعدّات على ظهره ومشى إليها. واستقلا الشّاحنة دون أن يتكلّما مع بعضهما كلمةً أخرى. لم تتذكّر الآن لماذا علقت

أهميّةً كبيرةً على تلك المهمّة إذا ألغوها؟ كان بإمكانها استقلال الرّحلة التّالية. لقد فقدت ماء وجهها مع لين ولم تعرف كيف تصلح الأمر.

حرّكت الشّاحنات عجلاتها بتثاقل بينما تسلّقت هي إلى أعلى الجبل على المنعطفات الحادّة المليئة بالطّين. كان جدار الأشجار والنّباتات على كلّ طرفٍ يوفّر طبقةً سميكةً تقي من القنّاصة مهما كان عددهم.

أحياناً مجرّد فتحة صغيرة في تلك الخضرة كانت تسمح بإظهار مرمى للقنّاص داخل الأدغال على مسافة خطٍّ بعشرين أو ثلاثين قدماً حيث كان ضوء الشّمس يظهر تحت القبّة الكثيفة محوّلاً أشعّةً منفردةً من الضّوء إلى لون العسل الفاتح.

مدّ لين يده ليلمس زهوراً بيضاء صغيرة معلّقةً على جذوع الأشجار الّتي مرّوا بجانبها. تسلّقت الشّاحنات الطّريق الطينيّ بنوع من الغضب حيث كان صوت المحرّكات يصمّ الآذان وكان هناك ارتداد واهتزاز على الأرض من إثر الحركة الّتي جعلت أجساد الجنود تتمايل. استدار بعضهم إلى الخارج ونظروا إلى الأدغال مشيرين إلى قطع السّلاح المتروكة وإلى مفاتيح القنابل اليدويّة المرميّة هنا وهناك. جنود آخرون اكتفوا بالتّحديق في أرض صندوق الشّاحنة، بعضهم أغلق عينيه وصلّى، مستسلمين وغير عابئين حيث كانت الأسلحة متناثرةً تحت أقدامهم. كان هناك وقتٌ كثيرٌ للخوف حين توقّفت الشّاحنة لكنّ هيلين كانت بالكاد واعيةً لما حولها، وبالكاد لاحظت الأدغال أو الجنود متسائلةً إذا كان دارو قد أصابه ضرر أم لا؟ ماذا لو حدث لها مكروه الآن قبل أن يتسنّى لها أن تراه من جديد؟

وصلوا إلى جزء مستو من الأرض حيث كان هناك انخفاضٌ خفيفٌ عند طريق طينيّة بما تبقّى من قطرات جدول هزيل يعبر ذاك الانخفاض. كانت الشّاحنات المهجورة بمُقدّماتها المغمورة في الأدغال تشكّل عائقاً أمامهم.

تمّ إيقاف المحرّكات وساد الصّمت الجديد وغمر أذني هيلين. أخفضت رأسها عندما سمعت صوت صرخة عصفور وضحك الجنود في الشّاحنة. كان الاحتمال الأقوى أنّ العدوّ غادر منذ زمن لكن مع ذلك تابعوا تقدّمهم بخطا متأنّية بطيئة.

أوّل شيء كان رائحة الخلّ الحلو الأشبه برائحة اللّحم الّتي كانت أشبه بدمغة ابتدائية في الدّماغ يتمكّن المرء من التّعرف عليها دون أن يعرف لماذا. كانت الغريزة توحي بالهروب لكنّ الجنود زحفوا إلى الأمام وتبعتهم هيلين بتردّد، وعندما اقتربوا شاهدوا غيوماً من الطّيور والحشرات وفتات المعركة يتناثر على الأرض ما بين أغطية ذخيرة إلى أجهزة اتّصال مدمّرة وأكياس رمل تمّ نقلها بسرعة بالإضافة إلى ضمّادات يملؤها الدّم وأسلحة مسروقة.

ارتفع سرب حشرات شفّافة برتقاليّة الأجنحة وكانت نوعاً من الجراد الصّحراويّ وفي الأسفل لمحت هيلين لمحةً من شعر أشقر مائل إلى الاحمرار الّذي ظنّته شتلاً من الأزهار. كان عبارةً عن هيكلين أشبه بجذع شجر صغير مغطّى بالأوراق ولّما اقتربت رأت أنّها كانت أرجلاً بشريّةً منتفخةً. وبعد عدّة أقدام كانت هناك القبّعة الّتي تجلب الحظّ. وضع جنديّان البقايا في معطف مطّاطيّ لكن الجسد لم يتحرّك حركة واحدة. ابتعدت وتقيّأت.

«هذا ما نجنيه من إحضار النّساء إلى هنا».

غسلت وجهها بماء من قربتها وتركت الدّموع تجفّ على وجهها بينما سحبت غطاء العدسات عن الكاميرا. كانت أغلب

المشاهد أكثر فظاعةً من أن يتمّ تصويرها لكنّها صوّرت على أيّة حال لأنّه توجّب عليها إبقاء يديها مشغولتين وعقلها كذلك. تكرّرت وعود المغادرة نفسها في ذهنها. في هذا المكان المليء بالموت كان من المستحيل التّصديق أنّ دارو لم يتعرّض للأذى. أرادات أن تذهب إلى لين لتطمئنّ مرّةً أخرى لكنّها لم تستطع أن تبعده عن الجنود الآخرين. لذلك التفتت إلى العمل.

خلال أيام تجوالهم في سايغون لم تتعلّم هيلين أكثر من تحميل الكاميرا بالأفلام والتّصوير وكانت تركّز صورها على ما تريده لكي لا يتمّ حذفها لاحقاً لكنّ لين علّمها كيف تعطي معنىً للصّورة. بدا من المستحيل التّركيز على الضّوء وسرعة مصراع الكاميرا وفتحتها وسط المعركة أو حتّى فيما بعدها لكن تلك كانت المتطلّبات الخاصّة بعملها كصحافيّة. أنقذتها الآن مسألة التّقنيّة.

قال لها أن تتخيّل صورة المشهد وهي تتشكّل وفكرة الضّوء وهو يمر بالعدسات ويضرب الطّبقة الحسّاسة الشّفافة حتى تصبح معتمة. كلّما زاد الضّوء زادت المدّة وزادت العتمة. تلك المناطق المشبعة بالضّوء بكثافة ولمدّة طويلة تسمّى صوراً كامنةً. لا مجال للعودة. المجال فقط للتّقدم صورةً بعد صورة وكلّ الصّور الرّماديّة كان يتمّ تصنيفها واحدة واحدة؛ الفاتحة والغامقة حتّى لو تطلّب الأمر أن تكون مختلفة. رأت أنّه حتّى الصّور الّتي ادّعت الحقيقة كانت تحتوي على قدر كبير من التكتّم والذّوق في الاختيار وأنّ الموضوع والزّاوية والمحتوى كانت متضمّنةً في صناعة الصّورة كما كانت متضمّنةً في البيانات العسكريّة الموجزة.

بعد أن تمّ تفتيش المنطقة وقف لين بعيداً ينظر إلى جدول على جانب الطّريق في الأسفل. ذهبت هيلين للوقوف إلى جانبه

متمنّيةً أن يقول شيئاً أكثر عن دارو لكنْ عندما بقي صامتاً، نظرت شزراً إلى الوادي وسألت: «ما الأمر؟».

«انظري إلى كلّ تلك الأزهار البيضاء في كلّ مكانٍ على التّل. لاحظت وجودها أثناء مرورنا في الشّاحنات».

لأنّها لم تفهم تلك الصّلابة حدّقت لدقيقة فيه بقوّة بينما كان واقفاً بشكل جانبيّ.

«كيف علمتَ أنّ حملة الإنقاذ ستتعرّض للهجوم؟».

«تعنين أنه كان لديّ معلوماتٌ تجسّسيّة؟ إنه كان لديّ هاتفٌ سرّيّ يصلني بالجهات العليا في فيتنام؟ كان ميدلوك يعرف أنّها مهمةٌ تفضي إلى الموت لكن لم يكن لديه خيارٌ، فعندما يترك جيش فيتنام البعض على قيد الحياة، يعد ذلك إغراء لجذب الآخرين ليأتوا إلى حتفهم».

«هذه تقنيّات تلك الفرق وأنا أعرفها فقد كنت جنديّاً فيما مضى».

اشتكى الجنود الفيتناميّون لأنه كان عليهم تحميل الجثث على الشّاحنات. تناقش الرّقيب ميدلوك وضابطٌ آخر معهم. وعلت حدّة الأصوات. أخيراً قام الأمريكان بتحميلهم وقام الفيتناميّون بالمساعدة على مضض. كان التّوتر قد اشتدّ بعد أن تمّ تحميل الجثث على الشّاحنة.

أخذت هيلين صورةً للشّاحنة المحمّلة بحمولتها البشريّة الّتي كانت أشبه بمنحوتات من دائرة الجحيم. انحنت وصوّرت الشّاحنة مثل جبل وكان التّركيز حادّاً على خطّ سير العجلات ونعال أحذية الموتى. ظلام الأدغال المحيطة والضّوء على الطّريق جعلا المكان يبدو وكأنّه أبعد بقعة في العالم.

قال أحد الجنود: «لنفجّر هذا المكان».

هدرت الشّـاحنات عائدةً إلى الحياة. ركبت هيلين في السّيارة العاليـة مع ميدلـوك بينما ركب لين مع الجنود الفيتناميّين في الشّاحنات.

عندمـا وصلوا عائدين إلى المخيّم الرئيسـيّ ذهب الأمريكان إلى خيمة الطّعام ليأكلوا بينما تمّ تحميل الجثث في المروحيّات لنقلهـا إلـى سـايغون. لم تعـرف هيلين مـاذا تفعـل إلا أن تقوم باللّحـاق بالضّباط ووقفت في صفٍّ لتنتظر دورها في الحصول علـى (همبرغر) وعلب من كوكتيل الفواكه. جلسـت إلى الطّاولة وأكلت الدّراق بالملعقةَ مع أنّ طعمه كان قذراً بالنّسبة لها.

«هل رأيت أسـعار أجهزة الاتّصـال الّتي يبيعونها في القاعدة الأمريكيّة للتّبادل التّجاري؟».

«من الأسـهل شـراء أجهزة الاتّصال ومبادلتها بالسّـجائر أو بيعها في السّوق السّوداء حيث يمكن كسب ثروة من ذلك».

قـال ميدلـوك مازحـاً مـن آخـر الطّاولـة: «سـأبدأ صنـدوقَ تقاعـدي هنـا في سـايغون». «المـرّة القادمـة الّتي أكـون فيها في البلدة سوف أبدأ بتخزين الشّوكولاته».

كانـت هنـاك وقفـةٌ ولحظـة رعـب لأنّ هيلـين لم تسـمع نصف كلماتهـم فقـد كانت تائهةً في الشّـوكولاته الخاصّة بذكرى الجنديّ ذي الشّـعر الأحمر المشـقرّ، ثمّ سـأل ميدلوك إن كان أحدهم قد رأى نتائج مباراة كرة القدم في الجريدة. لقد استمرّ العالم في الحياة.

كانت هيلين تشـرب القهوة عندما دخل لين: «هل يمكنني أن أتحدّث معك؟».

شـعرت بالإرهـاق وعـدم القـدرة علـى التّعامـل معـه. كانت علاقتهمـا متعبةً لكليهمـا. تنهّدت لكنّها لم تُردْ أن تجعل الأمور أسوأ: «هل من الممكن تأجيل الموضوع؟».

«أخبرت دارو أننا عائدون إلى سايغون الآن، يريدك أن تطيري اليوم إلى (دلتا ميكونغ)».

قالت هيلين بتردّد «أهو بخير حقّاً؟»، «أمّا عن الأمس...».
كانت هيلين تكبح مشاعرَها بما بدا أنّه نوبة غضب من جانبها.

«سوف أرى متى يكون وضعنا مناسباً للإقلاع».

مشى باستقامة مبتعداً لكنّه لم يردها أن تتلاعب به أكثر من ذلك فكان من الأسهل المحافظة على وضع مسافة بينهما. كان ذلك كلّه مقبولاً مع دارو. لكن هي أرادت أكثر، أرادت الكثير ودفعته خارج حدوده، فما أرادته كان أكثر ممّا كان قادراً أن يعطيه.

(8)
(تشا)
القرية

طار كلّ من هيلين ولين إلى منطقة ميكونغ الجنوبيّة في مقاطعة (آن غيانغ) الّتي حكمتها مجموعة (هوا هوا) وهي مجموعةٌ دينيّةٌ تابعةٌ للبوذيّة. وكانت تلك المجموعة معارضةً لمجموعة الفيتناميّين الشيوعيّين. كانت تلك المنطقة واحدةً من المناطق القلّيلة الآمنة في تلك الأنحاء، وهناك قرّر دارو البقاء واسترداد عافيته.

كان الهواء حارّاً ومبهماً والسّماء تلوّنت بلون أزرق ملحيّ. انتشرت مستنقعات (المنغروف) السّوداء لأميالٍ كما لو كانت محيطاً راكداً متحدّراً ومتصدّعاً. مرواً بعد ذلك بروافد نهر ميكونغ. نمت أنواعٌ مختلفةٌ من المزروعات بغزارة كالبابايا، أو الجريب فروت، نخيل الماء، المانغوستين، وكلّ أنواع البرتقال الّتي كانت تتساقط على الأرض إثر الأصوات المجلجلة لتنفجر أزهاراً حارّةً تحت أشعّة الشّمس. كان التّراب غنيّاً جداً من تفريغ المحاصيل على طول العام، ومؤونة الطّعام المحليّة بقيت وافرةً حتّى في وقت الحرب، ممّا سمح للقرى وسكانها بالاستقرار بشكلٍ واسع حول القنوات والأنهار بدل

التّمركز بشكلٍ ضيّق كالمحرومين خلف سياج البامبو كما في الشّمال.

بعد أن عبروا مهبط الطّائرات الطّينيّ استطاعت هيلين أن ترى دارو واقفاً بجانب سيّارة جيب مع مدنيّين آخرين. كان واقفاً باستقامة وبهيئة رسميّة زيادةً عن اللّازم قياساً بهذا العالم الواسع الرّطب. كان يرتدي قميصاً أبيضَ قصير الأكمام وذراعه الأيمن مسنودةٌ بحمّالة قطنيّة، بدا أكثر نحولاً وشعره البنّي أقصر وعيناه غير ظاهرتَين خلفَ لمعان نظّارته.

أحنت رأسها تحت اندفاع محرّكات الطّائرة وركضت لتعانقه حتّى جفل عندما ضغطت على كتفه. تبعها لين منسيّاً.

واقعة إصابة لين فاجأتها بقوّةٍ جديدةٍ وأخافتها مرّةً أخرى: «هل أنت بخير؟».

«أنا بخيرٍ لولا معاملتك الخشنة». ابتسم وأبقى بينهما مسافةً: «أقدّم لك بعض الأصدقاء الّذين عرضوا أن يستضيفونا حتى يشفى كتفي».

كان كلاهما يعمل لصالح وكالة التّطوير في الولايات المتّحدة الأمريكيّة حيث يتعاملان مع إنتاج الأرزّ والرّي في المنطقة. كان (جيري نيكولز) الأصغر بينهما يتمتّع بوجه محروق من الشّمس وشعر أشقر مائل للبياض متأثراً بوجه الشّمس أيضاً ممّا أعطاه شكلاً لبنيَّ البشَرة. صافح هيلين وابتسم وفمه يضيق بأسنان كبيرة. تمتّع الرّجل الآخر (تيد ساندرز) بشعر مقصوص قصيرٍ جداً وقد كان أيضاً عسكريّاً متقاعداً وعاملها بكلّ تهذيبٍ ورسميّة.

سألته هيلين: «إلى متى أنت باقٍ هنا؟» أغضبها سلوك دارو أنّه افترض عدم وجود شيءٍ أفضل عندها لتفعله.

«تبدو هذه الأسابيع الأربعة كأنّها إلى الأبد لكنّي لم أقضِ عطلةً منذ خمس سنوات لذا حان وقتها».

لم يلحظ أحد تردّده إلا لين. هو فقط استطاع أن يفهم كيف كان دارو يساومهم والطّائرة آخذة في الهبوط، كم مرّة يمكن للمرء أن ينقذ نفسه دون أن يتعرّض للأذى؟ كان يعتريه خوفٌ من أنّ ذاك التّحطم قد جعله عاجزاً من جديد كما حصل في (إنغكور).

وصل لين إليهما وتحرّك دارو ليعانقه. وبعد أن رأت هيلين الصّداقة السّهلة بين الرّجلين. فكّرت بمدى غبائها في معالجة الأمور.

«اعتنيت بها بشكل جيّد».

«لكنّك تعمل بلا إتقان مَن دوني الآن على ما يبدو». كان على استعداد أن يقدّم أيّ شيء ليعود هو ودارو من جديد إلى القرية كما كانا في إنغكور. لقد غيّرت امرأةٌ كلّ شيء.

«هذه المروحيّات الملعونة تبدو غير قادرة على البقاء في الجو».

صعدوا إلى سيّارة الجيب، جلست هيلين على تلك المقاعد الكتّانية المغبرّة الحارّة بعد أن داست على الأسلحة نصف الآليّة الملقاة على الأرض. قاد (نيكولز) السّيارة في طريق قصير مبتلٍّ وموحل إلى قريةٍ صغيرة فيها منازل من قشٍّ تعترض دوائر واسعة في نهر هاو. توقّفت سيّارة الجيب أمام كوخ صغير في ظلّ أيكة من شجر النّخيل وجوز الهند والمانجو.

«البيت السّعيد». قال دارو.

سأله تيد: «هل أنت متأكّدٌ من أنّ هذا الكوخ مناسبٌ؟».

«إنّها فتاةٌ تتمتع بذوق بسيط».

قال نيكولز: «لم نتحوّل إلى سكّان أصليّين هنا مثل دارو فإذا أتعبك المبيت هنا نستطيع أن نقدّم لك شرائح اللّحم وحمّاماً ساخناً».

«اذهبوا يا شباب فإذا غيّرت رأيها فسنأتي إلى الغداء».

تجاهل الرّجلان لين الّذي كان بالكاد يخرج من سيّارة الجيب مع حقيبته قبل أن تمضي السّيارة وتملأه بالغبار.

كانت مقدّمة الكوخ شرفةً ضيّقةً تطلّ على أرض موحلة وسقف من القشّ مدعوم بأعمدة من الخيزران. كمّا شكّلتَ أحواضٌ من الصّلصال امتلأت بمياه المطر حدوداً مع الخارج. كان الهيكل من الخيزران، أما الجدران والأسقف فقد تشابكت فيها أوراق النّخيل مع طبقة من قشّ الأرزّ على القمة الّتي كانت رائحتها كالعشب الكثيف في حرارة ذلك اليوم ممّا ذكر هيلين بالنّوم في مخزن الإسطبل عندما كانت طفلةً.

كان في الدّاخل غرفةٌ واحدةٌ أرضها يملؤها الطّين، فيها طاولةٌ خشبيّةٌ منخفضةٌ تستخدم للأكل والجلوس والنّوم. كان يوجد أوان فخاريّة مملوءةٌ بالأرزّ حول أطراف الغرفة. وفي الزّاوية كان هناك حزمةٌ من البسط المحيكة.

كانت امرأةٌ شابةٌ ترتدي بيجامة زرقاء اسمها (نجان) تحمل صينيّةً فيها أكوابٌ صغيرةٌ من عصير المانجو. دخل رجلٌ فيتناميّ أكبر سنّاً فانحنت له. كان رئيس القرية واسمه هوتنغ، رجل راق وأنيق بشعر فضيّ مسترسل وملامح قد ليّنَها الزمن كما يليّن الحجر الأملَس. بعد أن رحّبَ بهما بقي لفترة قصيرة وشاركهما بكوب من العصير قبل أن يغادر.

«منطقة (آن غيانغ) متعدّدة الجنسيّات ونحن معتادون على الغرباء خاصّة من الغربيّين. وحفيدتي تعيش في سانت لويس» قال.

قال دارو: «حقاً».

«لم نسمع عنها منذ عامين لكنّها أخبرتنا في رسالتها الأخيرة أنها في سانت لويس حيث يهطل الثّلج. وتتحرّك الأشياء بسرعة كبيرة».

«أنا متأكّد أنّها تقول الحقيقة».

«هكذا تعلّمت الإنجليزيّة الممتازة».

تخيّلت هيلين الحفيدة وهي تعيش وحيدةً في المدينة العظيمة وتعمل لساعات طويلة في عمل خفي، لكن مع ذلك كانت مشهورةً في مدينتها. بعدَ مغادرةً هوتنغ حملت نجان حقائبهما إلى الدّاخل.

«عليّ أن أسترخي على الأقل مرّةً واحدةً في الشّهر فما من فائدة لمصوّر بذراع واحدة. أتمنّى أن أستردّ عافيتي خلال أسبوعين. فقلتَ لنفسي لمَ لا نأخذ استراحةً واسترخاءً سويّاً في القرية». أتمنّى أن يكون الأمر بتلك البساطة. منذ الحادث وهو يصاب بالتّعرق اللّيليّ والأرق والاهتزاز وكلّ شيءٍ يذكره بالانتقام. لم يتمكّن من القول بصوتٍ عالٍ إنّه كان يتمنّى أن تنقذه.

«وافترضت أنت أنّي سأترك كلّ شيء؟».

التقط دارو يدها وقبّلها. لم يتعوّد على كونها متحفّظةً وصعبةً وكاد يتمنّى صحبة النّساء الوطنيات ورغبتهنّ المنصاعة له، وبعد وداع الزّعيم عادت هيلين تحت ظلّ السّطح وجلست، لكن لم يكن الطّقس أكثر برودةً من الوقوف على الطّريق.

قال دارو: «ما رأيك يا لين؟ يبدو أنّك بحاجةٍ إلى استراحةٍ أيضاً».

قال لين: «إنّا بحاجةٍ للقيام ببعض المهامّ».

«ابقَ هنا وخذ قسطاً من الرّاحة فقد جهّزوا لكَ مكاناً على الطّريق». أراد أن يقول له ابق هنا بصحبتي.

«سأعود في نهاية الشّهر». كان هناك حدسٌ ضئيل يخبره أنّ دارو كان يتوق أيضاً إلى الأيّام الخوالي في إنغكور. لكنّه بدلاً من ذلك قام بربط كليهما مع هذه المرأة الواحدة. تذكّر كيف كانت ماي تغضبه ومع ذلك كان مستعدّاً أن يعطي أيّ شيءٍ ليشعر بذاك الغضب من جديدٍ، هل كان دارو يشعر بذات الإحساس مع هيلين؟

«ما الّذي ستجده لتفعله هنا، هنا في وسط اللا مكان؟» سأله دارو.

تحدّث مع نجان بالفيتناميّة وضحكا.

«ما المضحك؟» قالت هيلين.

«المضحك هو قوله: إنّنا في وسط اللا مكان فالجميع يعرف أنّ هنا مركز الكون».

«لا تتصرّف معي كما لو أنّك مثل بوذا» قال دارو.

تكلّم الرّجلان خلال الغداء عن معارفهما وعن العمليّات القادمة الّتي يمكن أن يكونا مهتمّين بها ويحصولها، مع أنّهما وافقا أنّ كلّ شيءٍ يمكن أن يتغيّر خلال شهر.

«سأبقى على اطّلاع بالأمور». قال دارو.

فاجأ هيلين كيف تصرّف لين بشكل مختلف تماماً الآن حيث كان مسترخياً وصريحاً مع دارو بينما كانَ معها مرَهقاً وشديد التّكلّف.

تنهّد دارو ووضع طبقه جانباً وقال: «سمعت أنّكما تعرّضتما لمشكلة خارج منطقة (بليكو)؟».

قال لين: «نعم، لقد أرسلوا حملة انتحاريّة، فانتظرنا إلى الصّباح التّالي ودخلنا».

توجّه دارو بحديثه إلى هيلين قائلاً: «هل كان الأمر سيّئاً؟».
تابعت هيلين الأكل وقد أحرقها الذّل.
«لا بأس».
عندما كان لين جاهزاً للمغادرة، مدّ يده إليها لكنّها تحرّكت حوله وعانقته، كان عرضاً صامتاً من أجل السّلام «عد بسرعة ولنستمتع سويّاً نحن الثّلاثة، حسناً؟».
أومأ لكنّه كان قد مشى في طريقه على الدّرب الطّينيّ. كان يحبّ كليهما كلّاً على حدة، لكنّه كان يشعر بالخجل أنّه لم يكن يريد أن يراهما معاً.
سألت هيلين: «أين تظنّ أنه سيختفي؟».
«ربّما لديه فتاةٌ جميلةٌ صغيرةٌ عرفها في البار أو أنّه جاسوسٌ لصالح فيت كونغ».
ضحكت «ماذا؟ لين؟».
«عليك أن تبدئي برؤية باطن الأشياء وتبحثي عن القصّة الحقيقيّة».
«تذكّرني بأسلوب ماك كراي بحديثك هذا».
«كنّا في إحدى المرّات في سوتشي وقد تحطّمت كاميرتي فقام بعمل قطع احتياطيّة من لا شيء. قلقت على الفيلم وقال إنّه سيظهُره في ملجأ تحت الأرض إذا أردت بما أنّ المكان كان مظلماً، وقمنا بذلك فعلاً تحت ضوء النّجوم. كان يسافر ومعه طبقان من الخزف؛ واحدٌ من أجل مظهِّر الأفلام والآخر من أجل الّذي يصلحها. كان يربط حجراً صغيراً في نهاية الشّريط ويضعه في الجدول ليغسله. فقط عناصر جيش فيتنام الشّمالي يتعلّمون ذلك».
ضحكت هيلين وقالت: «أنت تمزح، هذا ليس لين، مستحيل».
جلس كلّ من هيلين ودارو عند باب الكوخ في وقت الغسق.

وقدّمت لهما نجان الغداء الّذي كان عبارةً عن أطباق من الأرزّ الدّبق والسّلطعون والقريدس المقليّ مع الأرزّ، ثمّ انحنت وانصرفت. أرسل العاملون في الوكالة الأمريكيّة للتّطوير الدّولي برّاداً من الجعة وقامت هيلين بوضع زجاجةٍ مثلّجة على رقبتها.

كان فيه شيءٌ من صفات المؤذي عندما كان مع أناس آخرين، ولكن وحده كان يبدو متعباً وشارد الذّهن. ومع أنّها كانت سعيدةً لوجودها هناك لم يكن لديها وقتٌ لتتباطأ في المهمّة. مرّرت يدها على النّدوب في ذراعه السّليمة، ودفء جلده جعلها تشعر بمدى سعادتها لوجودها معه هناك مرّة ثانيةً.

«سأعرف على الأقلّ سبب هذا النّدب الجديد».

«إنّه علامةٌ تدلّ على أنّ شيئاً أكثر سوءاً لم يحدث وأنّه علامةٌ على أنّي قاومت وعشت».

«أوقفني لين عن الذّهاب إلى تلك الحملة».

«عن أيّ حملة تتكلّمين؟».

«في بليكو أردتَ أن أظهر كم أنا مذهلةٌ وظننت أنّه كان جباناً لعدم سماحه لي بالذّهاب».

«إنّها تجربةٌ، لكنّه حارسك».

«من يحرسه هو إذاً؟».

حلّ الظّلام وهدأت الأدغال فجأةً. والصّوت الوحيد المسموع كان نبض الشّعلة في لمبة الكيروسين. وضرب الماء على القوارب الرّاسية على طول ضفّة النّهر. حلّقت بعض الخفافيش الصّغيرة فوق الأشجار والنّهر في دوائر واسعة كما لو أنّها ثملةٌ.

«أُحبّ هذا البلد وأحلم أن أصوّر الجنوب والشّمال وهما في سلام». قال دارو.

«لماذا طلبتَ منّي أن آتي إلى هنا؟ أعني أنّه كان يمكن أن نلتقي في سايغون».

«هذه هي المرّة الثّالثة الّتي أكون فيها في مروحيّة وتتعرّض للإنزال، مرّةً نفد الوقود وارتطمت بطرف التّلة، ومرّة تمّ إطلاق قذيفة علينا، كان ذهني صافياً دوماً قبلها وجاهزاً لكن هذه المرّة كلّ ما استطعت التّفكير به هو أنت».

«هذا شيءٌ جيّد أليس كذلك؟» ارتشفت هيلين رشفةً طويلةً من الجعة. كلّ كلماته كانت صحيحةً لكنّها تساءلت إن كانت قد أتت متأخّرةً على مسامعها. «ماذا؟ فكّرتَ بي بالضّبط؟».

قال: «لقد حوّلتني إلى شخصٍ أنانيّ وإلى شخصٍ طامعٍ أن يعيش الحياة من جَديد».

في منتصف اللّيل أوقظ هيلين صوت خشخشة على السّقف. امسكت بضوء كهربائيّ وأبعدت به النّاموسيّة الّتي كانت تقيهم البعوض أثناء النّوم ووجّهته إلى الأرض. بدا لها في الضّوء أبو بريص مائلاً إلى اللّون الأخضر في الزّاوية.

وفي فمه جسم عقرب يهتزّ. وبحركة سريّة كما اللّصوص مشت هيلين حول بساط القشّ ووقفت تشاهد اللّيل.

كان ضوء القمر الذّهبيّ معلّقاً فوق شجرات النّخيل المعزولة. كان هناك برودةٌ خفيفةٌ في الهواء وما زادها روعةً، شدّة الحرارة الّتي سبقتها.

أعطت أسقفُ القشّ الباهتة المحيطة بالكوخ هيلين شعوراً بالهدوء والحماية. كلّ ما خطر ببالها أنّها أرادته وأصبح في متناول يدها وكلّ شيء بخير. لو توقّف الزّمن في تلك اللّحظة! لكنّ شيئاً ما كان قد تغيّر مسبقاً.

لم يعد هناك مجالٌ للعودة. لم يعد هناك مجالٌ إلا للتّقدم؛ صورة بعد صورة بعد أخرى. لم يكن المشهد أمامها هو نفسه لكنّه لقطةٌ لصورةٍ محتملة. أوسع فتحة وأبطأُ مصراع كاميرا موجود، كانت تختَرق كلّ قَطرة ضوء ممكنة. كان هناك تعدّدٌ بسيطٌ للعمق، والتّركيز كان علىَ شيءٍ واحدٍ. لكن هل كانوا هم الشّيء الّذي وجب التّركيز عليه؟

شاهدت عن مسافة امرأةً عجوزاً تخرج من أحد الأكواخ وتمدّد ذراعيها فوق رأسها تحت ضوء القمر. مشت إلى البئر وسحبت دلواً منه وشربت بشهيّة من المغرف، فصوّرتها. سحبت دبوساً من الكعكة الّتي خلف رأسها وتركت شعرها الفضّي الطّويل ينسدل على كتفيها، فصوّرتها. مشت إلى حافّة النّهر وإلى رصيف السّفن الخشبيّ حيث علّقت قدمها الحافية على حافة القارب الّذي كان يضرب بمرساة. لم تشعر بالإزعاج في الإبهام حتّى توقّف الضّجيج. انحنتَ المرأة بحركات شخص خبير متدرّب وشدّت الحبل أكثر. ثمّ مشت عائدةً عابرةً البئَر بين أَجمة منَ الأشجار. وباستخدام مصراع كاميرا بطيء بما فيه الكفَاية كان من الممكن لتلك المرأة أن تختفي وتصبح شبحاً.

ظهرت نجان من حول زاوية البيت وقالت: «أتحتاجين شيئاً أحضره لك؟».

«لا». أزعَجها ظهور الفتاة المفاجئ قاطعةً حبل أفكارها لكنّها حاولت ألا تظهر ذلك وقالت: «لا أستطيع النّوم».

طوت نجان قدمها ثمّ مدّتها. راقبت هيلين ضفّة النّهر كما البلشون الأبيض: «ليلٌ دافئٌ».

«مَن كانت تلك المرأة العجوز الّتي بجانب رصيف القوارب؟».

«لا أحـد. هي مجرّد امرأة عجـوز. من الأفضل أن تعودي إلى النّوم».

شـاهدت هيلين نجـان تختفي حول المنـزل حتّى قطع صوت دارو ذلـك الهـدوء بينمـا ضحكت هـي بفيضٍ كبيرٍ من السّـعادة لأنّها لم تعد مستيقظةً وحدها.

قال: «لماذا أنت مستيقظةٌ؟».

«هذا المكان يشـبه (جراند سـنترال)، عدني أن نبقى هنا إلى الأبد».

«تعالـي ونامـي. كلّ ما أعدك به هو فطائر الأناناس للفطور، وقضاء يوم في الصّيد».

أدارت وجهها عن سواد وغموض القريـة. استيقظوا عند الفجر وانضمّوا إلى اجتماع الفلاحين الّذين ذهبوا إلى حقول الأرزّ بعد أن دعاهـم إليه هوتنغ. طلبت هيلين من نجان أن تعدّ القهوة في الصّبـاح لكنّ الفتاة لم تكن تعرف إلا كيف تغلي الشّـاي. عندما عـاد دارو بعـد أن أخذ حمّامـاً كان يحمل بيده السّـليمة صينيّةً فيهـا إبريـقٌ مـن القهوة الفرنسـيّة وأكـوابٌ. صبّ كأسـين بينما جلسا معاً يشاهدان الفجر يلوّن قبب أشجار النّخيل.

سألت هيلين: «من أين حصلت على هذا؟».

قـال وهـو ينحنـي ويقبّـل عنقهـا وكتفهـا ومرفـق يدهـا: «الصّحافيّ الجيّد لا يكشف مصادره أبداً».

ثرثـرت النّسـوة علـى الطّريـق الطّينيّ لمسـافة نصـف ميل. بينمـا الأطفـال كانوا يتنقّلون جيئةً وذهاباً كما طيور السّـنونو. وكان هنـاك فتاتـان صغيرتان تقصان قصةً عن شـبح يعيش في شـجرة ويـوزّع المـال. ضربتهمـا الأمّ علـى أذنيهما لأنّهمـا كذبتا لكنّها اعترفت أنّها احتفظت بالنّقود. عندما رأت الفتاتان هيلين

صرختا وركضتا بعيداً. بقي الرّجال هادئين يدخّنون سجائرهم وعيونهم على السّماء يستغرقون في طقس ذلك اليوم. على حافّة حقول الأرزّ خلعت النّسوة صنادلهنّ وخضْنَ في الماء المالح قليلاً. ربطن قبّعاتهن تحت ذقونهن ليحرّرن أيديهن وبدأن بالحركة والتّمايل إلى الأمام وإلى الخلف عبر صفوف حقول الأرزّ الأخضر ليزلن العشب الضّار.

إنّه لمعجزةٌ أنّ الحرب لم تلمس ذلك المكان. كان بالإمكان الافتراض بأنهم يعيشون في وقت السّلام لكنّهم كانوا مدينين بذلك إلى مجموعة (هوا هوا).

قامت هيلين بالتقاط الصّور والاستماع إلى نصائح دارو الّتي تخصّ الزّراعة. أشارت إلى ثلاث فتيات صغيرات ليقتربنَ أكثر بينما كنَّ منكبّات على عملهنّ، ووجوههنّ مختبئةٌ تحت قبّعات مخروطيّة متطابقة. وما يميّزهنّ عن بعضهنّ اختلاف أشكالَ قمصانهنّ.

كانت مياه الصّباح المضاءة بضوء الشّمس تمتدّ خلفهن. أحاطت بهن نبتات الأرزّ الخضراء البرّاقة الصّغيرة كما لو أنّها ضربات ريشة رقيقة.

«هنا لديك الوقت لتحريك الأشياء. لكن في الميدان عليك أن تجدي ملاذاً للصّورة؛ كوجه جنديّ أو خلفيّة وحينها فقط يبدأ التّصوير، لا مكان للخطأ في التّركيز على وجه. صوّري طوال اليوم، ومن الممكن أن تحصلي على صورة واحدة جيّدة».

توغّل جميع الفلاحين أكثر في الحقول وجلس كلٌّ من هيلين ودارو تحت شجرة عند الضّفة. تلاشت غيومٌ بيضاء عاليةٌ في الحرارة المرتفعة حتّى أصبح لون السّماء أبيض قاسياً وفارغاً كما قشرة البيض.

عندما لم يكن أحدٌ منتبهاً لمست هيلين دارو على صدره وركبته. وقد بدأ شعورها بالرضا بسبب قربه الجسديّ وشعورها بالتحفز الّذي أحسّت به عند بداية وصولها، بدأ يتلاشى.

«تريّتين عليّ كما لو أنّي كلبك المدلّل».

«ماذا كانت لعبتُكَ المفضّلة عندما كنت صغيراً؟».

شاهدها تتمدّد على العشب وشعرها ملفوفٌ حول حلقها وأجاب: «لا أذكر أنّني كنت ولداً صغيراً».

عدّلت هيلين جلستها وقبّلت جفنيه مع أنّ القرويّين سيرونها. لم ترغب حينها بسماع تفاصيل حزينة. «أنت كلبي المدلّل، كلبٌ ذهبيٌّ من النوع الصّياد المكتشف».

عضّ دارو أصابعها بشكل خفيف وقال: «الصيّاد جائعٌ».

ظهرت نجان في وقت بعدَ الظّهرِ ومعها سلّة من الطّعام. وبعد ان وضعتها خارجاً جلست في الظّل على مسافة منهما متجاهلةً دعوتهما لها لتنضمّ إليهما. بدأت إحدى النّساء بغناء ترنيمة رخيمة (كا داو) وانضمّت إليها بقيّة النّسوة لغناء المقدمة.

قالَ دارو: «يظنّون أنّنا عديمو الفائدة، فلو كانت ذراعي أفضل لانضممتُ إليهنّ».

«حقّاً؟».

«نعم أكيد، لمَ لا؟».

وقفت هيلين وخلعت صندلها ورفعت (بنطالها) عند القدمين.

«ماذا تفعلين؟ عودي إلى هنا».

دخلت إلى الماء فيما بينهنّ، فتوقّفت النّسوة عن العمل وبدأن بالإشارة والتحدّث والضّحك بحماس. سارعت نجان إلى طرف الماء وهي تضحك وتغطّي وجهها بيديها.

قال دارو: «كنت أمزح. جعلت من نفسـك قارياً العرض». لكنّ هيلين لوّحت له بعدم اهتمام بما يقوله. كانَ يمتلئ بالحسد وهو يدرك اندفاعه السّابق.

تفتّـت الوحـل بالماء بين أصابع قدميهـا وغرقت عدّة بوصات في الطّين ثمّ إلى منتصف السّـاق واسـتطاعت أن تشـعر بأشياء تفـرّ بـين قدميها كلّ مـرّة كانت ترفـع فيها قدماً، وهو انسـحابَ الطّـين علـى كاحليهـا. ظَهرت صـورة مايكل دون دعـوة، وتذكرت صراعه ضدّ سـحب الطّين وهو عاجزٌ يطلق نيرانه عندَما خانته المروحيّـة وانطلقـت، والألـم والذّعر الّذي أحسّ بـه عندما أدرك أنّه يُحتضر، لكنّها أبعدت تلك الصّورة عن مخيّلتها سـريعاً. لم تكن لتفقد ماء وجهها وتعود إلى الضّفة، فلوّحت بيدها وتوغّلت أكثر.

بعـد أن انضمّت إلى خطّ النّسـاء أرتهـا إحداهنّ طريقة زرع صـفٍّ مـن النّباتات. وعندما قامت هيلـين دون قصد بنزع إحدى نبتـات الأرزّ أمسـكتها المرأة وأبعدتها بعيداً وهـي تؤنّبها، وأعادت غرسـها مـن جديد. كان هـذا عملاً جادّاً يشـكّل فرقـاً بين الأكل وعدمه. لم يكن هؤلاء النّاس سيّئين، وهي والأمريكيّون الآخرون لم يكونوا سـيّئين أيضـاً، هي الحرب فقط الّتـي جعلتهم يبدون على تلك الصّورة.

بدا المشهد جميلاً عن بعد لكن بالقرب من العمل كان الوضع مُرهقاً. عذّبتها الحرارة، ووجوه النّسـوة يملؤها العرق والقطرات تسيل على أنوفهن وذقونهن.

أحسّت هيلين بألم في ظهرها بعد ساعة من ضغط الانحناء المستمرّ فاستقامت لتُهدّئ الألم وهي تلكم أَسفل ظهرها محاولةً تدليكـه. اسـتمرّت نظّاراتهـا الشّمسـيّة بالانـزلاق فاضطرّت أن

تضعها في جيبها. أعطتها إحدى النسوة قبّعةً لكن مع ذلك فإنّ الشّعاع المنعكس على الماء أعماها فاضطرّت أن تغلق عينيها نصف إغلاق لترى دارو والضّفة. فاجأها مظهره من بعيد بكتفيه المنحنيّين ورأسه المنخفض كأنّه تماثل إلى الشّفاء تقريباً.

بينما كانت الأقدام تحفر العمق ملأت الهواءَ رائحة عصيدة حامضة ورائحة طحالب خضراء ممتزجة مع عفن الفضلاتَ الّتي تستَخدم كسماد. غناء النّسوة كان الشّيء الوحيد الّذي جعلها تستمر كأنّه كانَ سحراً.

تذكّرت صوت الإيقاع عندما كانت صغيرةً تذهب مع والدها إلى القاعدة العسكريّة لتأخذ تعليمات التّدريب العسكريّ بينما كانت تنتظر بنعاس على طريق أرض الميدان المعشبة.

بعد العمل لنَصف يوم تشكّلت البثور على يديها، أعادت القبّعة ومشت بإجهاد وتثاقل إلى الضفّة. فقد أحسّت بتلك الطّريقة المحدودة بما وصفه لين أنّه حجرٌ في جدار غير مرئيّ إلا كجزء من كلّ. وعندما توقّفت على الأرض الجافّة من جديد كان دارو مَتّكئاً على شجرة يقرأ كتاباً.

«بُثور». قالت وهي تمدّ يديها وراحتيها إلى الأعلى.

ابتسم وأغلق الكتاب وقال: «لماذا؟ علامةٌ على المعاناة؟».

ابتسمت ومسحت يديها المبلّلتين بقميصه: «لن آكل الأرزّ مرةً أخرى بالطّريقة نفسها».

كانت هيلين تشعر بالرّاحة في البداية لكونها بعيدةً عن القتال لكن بينما مرّ الوقت عادت أفكارها إلى الجنود الّذين التقت بهم، إلى ما حدث لهم وإلى معناه. ضايقها الفضول القديم وظنّت أنها لن تستطيع الاستمرار وأنّها ستحتاج لأن تختلق عذراً لتسرع في العودة إلى سايغون من أجل الأهميّة

البادية للأحداث ورغبتها أن تكون هناك لتنقلها. لكن مع مرور الأيّام أصبح الأمر صعباً؛ أن تتذكّر شكل وطعم الخوف الّذي غمرها، فتوقّفت عن تصديق قوّة ذلك الخوف. أثّرت فيها المسافة والأرض. وإغواء الحرب قد تلاشى وأصبح أهدأ وفقد وجهه المفترس. تقلّص العالم إلى حجم قرية ثمّ انفتح مجدّداً إلى اللانهاية في وقت واحد.

أصبحت حياتهما نَسقاً من الإشراقات والغيابات للشّمس، إضافةً إلى همس الرّيح في حقول الأرزّ النّامية، وإلى غيوم صباحيّة تتلاشى في حرارة بعد الظّهر المعدنيّة اللّماعة. تباطأت حركتهما إلى سرعة الأنهار الكثيفة الجارية وإلى هبوط ثقيل لأقدام جواميس الماء. أصبحت أذناهما معتادة على الشّرنقةَ الفيتناميّة، يعيشان كالأطفال الصّغار غافلَين عن المعنى إلا من اجتهاد نجان والكلمات البطيئة الّتي تتطلّب جهداً للفهم، كما لو أنّ نجان ممرّضة تجعل كلّ شيء مريحاً. أفكارهما أيضاً أصبحت بطيئةً وممتلئةً بضوء الشّمس الّذي كان يمرّ بين أوراق النّخيل والحرارة الّتي تُرخي العضلات، والضّغط الّذي أثر على جسديهما حتّى أصبحت الحرب شيئاً خارجاً عن كيانهما.

جاءت الأمطار الموسميّة ونقر الماء على أوراق الموز العريضة وأشجار المطّاط الّتي سيّجت طريق القرية. فهناك رائحة المطر الثّقيلة على الأرض، والقطرات تضرب على الأسقف القشّية، والجداول الصّغيرة تتموّج في زوايا الجدران.

بعد الظّهر كانا يستلقيان في ظلام كوخهما تحت الشّبكة الواقية من النّاموس وهما يرتديان أخفّ الملابس، منقوعَين في عرقهما. كان دارو يمرّر إصبعاً بكسلٍ على ذراع هيلين الرّطبة من الدّاخل وعلى رقبتها..

«سآخذك إلى سويسرا».

«حقاً؟ لماذا سويسرا؟» همست وهي متردّدة أن تكسر اللّحظة بصوتها.

«إلى نزل صغير فوق أعلى جبل وهو جبل (مونتي روزا) العالي جدّاً لدرجة وَجود ثلوج في الصّيف حيث سنلتجئ إلى فراش من الرّيش أمام نارٍ مستعرة ولن تستطيعي التّذكر أنّنا شعرنا بتلك الحرارة».

«لنذهب الآن». كان ذلك كشفاً أنّه بإمكانهما أن يكونا سويّاً في مكان آخر من العالم، في مكان لا حرب فيه.

«قريباً».

غيّرت هيلين اتّفاقهما الضّمني بألا يتكلّما عن المستقبل بعد أن وعت أنها أصبحت قريبةً جداً من الحافّة. ومع أنّها هي ذاتها لم تكن ترغب بالمغادرة، لكنّ تردّده شجّعها. قالت: «سأفتقد طبخ نجان وكيف تغطّينا بالنّاموسيّة في اللّيل وهي كيف تستمع إلينا كلّ ليلة». توقّفت وتابعت: «يجب ألا نكون هنا، أليس كذلك؟».

«ماذا تعنين؟».

«في هذا البلد».

«لا».

«إذاً لماذا نبقى؟».

«نريد أن نعرف نهاية القصّة».

«كيف تظنّ أنّ قصّتنا ستنتهي؟».

عبس دارو وقال: «كنت في أوروبا الشّرقيّة أغطّي الهنغاريّين الّذين كانوا يهربون من بلادهم قبل أن يستولي عليها الشّيوعيّون. كان الطّقس ليلاً أقلّ من درجة التّجمّد، والرّوس كانوا يجولون الأراضي الحدوديّة بأسلحتهم الآليّة. كانت الأراضي هناك

مسطّحة دون أيّ نقاط للاستدلال. وكان النّاس يضيعون وهم يعبرون الحقول في الظّلام ويمشون لساعات طويلة في دوائر فإمّا أن يتعرّضوا للاعتقال وإمّا أن يموتوا بسببٍ انكشاف أمرهم. لذا كان المزارعون النّمساويّون على الجانب الآخر من الحدود يبدؤون بإشعال المواقد في حقولهم، والّتي يمكن رؤيتها عن بعد أميال. ليلةً بعد أخرى استمرّت النّار بالاشتعال حتّى اضطرّوا إلىٰ حرق محاصيلهم لتستمرّ النّار بالاشتعال وإذا استطاع النّاس الوصول إلى مسافة يستطيعون من خلالها رؤية النّار. كان ذلك بمنزلة فرصة لإنقاذ أنفسهم. كان إشعال تلك النّيران في ذلك الوقت يبدو كأنّه أفضل شيء يمكن فعله في العالم. فإن تسليطي لضوء صغير، ووجودي هناك جعلني أشعر أنّ حياتي أكبر ممّا كانت عليه منَ قبل».

كان هوتنغ يدعو دارو أن ينضمّ إلى رجال القرية حيث كانوا يجلسون في بيتِ شعبيّ بسيطِ في مركز القرية الصّغيرة ليشربوا الجعة.

حاولت هيلين أن تقرأ إلى جانب ضوء المصباح لكنّها وجدت التّركيز على كلمات الصّفحة مستحيلاً، كانت الكلمات في غاية التّجريد والبعد مقارنةً بضوء القمر بين الأشجار في الخارج أو الحلاوة الكثيفة للجريب فروت وبراعم ثمار (الفرانغيباني). أغلقت كتابها وأطفأت المصباح وحدّقت في سماء اللّيل. كانت الكلمات غير مجدية لأنّها وصلت إلى نقطة من السّكون التّام في حياتها، خاليةً منَ الرّغبة فلم يكن هناك شَيءٌ يمكن إضافته ليخلّ توازن كمال الحاضر.

قلقت من كلمات دارو لأنّها صدّقتها إلى حدّ ما. صورة الكابتن تونغ خلقت عناوين، لقد فتحت الأعين ولم تجعل موت

الرّجل العجوز يذهب سدىً. كما أن كلمات دارو جعلتها تشعر بأنّ حياتها كانت أكبر وأهمّ من ذي قبل. لكن لتعيد ذلك كان على هيلين أن تخرج في مهمّات مرّةً بعد مرّة بعد مرّة. تاقت إلى وجودها في ذاك البيت السّويسريّ إلى درجةٍ كادت أن تكون قادرةً على أن تدير ظهرها للكابتن تونغ وكلّ من ماثله لتكون في ذاك الكوخ. ما خطب هذه الحياة الصّغيرة الأنانيّة؟

كانت نجان تدخل في اللّيالي الّتي كانت فيها هيلين وحيدةً وهي تحضر طبقاً من الماء المعطّر ومنشفةً تصرّ على أن تجعلها تستحم بها. عندما رفضت هيلين في البداية كانت نجان تصرّ حتّى توافق هيلين وهي متردّدةٌ.

كان عمر الفتاة عشرين عاماً فقط وكانت أرملةً وأمّاً لطفل في الثّانية. كانت عيناها مشرقتين وصافيتين، وجبهتها عاليةً، وكانت هيلين تراها في غاية الجمال.

«لماذا ليس لديك حبيبٌ يا نجان؟».

ضحكت وعصرت الماء من الإسفنجة وجعلته يسيل على ذراع هيلين: «لا أحد يهتمّ بي».

«ليس هذا ما سمعته. فقد قالت امرأة في القرية إنّه تقدّم لك فلاحٌ في منتصف العمر وقد تمّ رفضه».

ارتجفت نجان وقالت: «شخص يدعى (منه)؟ لقد درست لسنة واحدة في سايغون فأنا أريد أن أصبح معلّمةً وأتعلّم المزيد من الإنجليزيّة».

«لكن بلا حبيب؟».

عبست نجان وأدارت هيلين وتحرّكت حركات نظاميّة متكرّرة على ظهرها: «لا أريد أن أكون زوجة مزارع. أريد أن أعود إلى سايغون وأدرس لأصبح معلّمةً».

«دونَ (منه)؟».

وضعت نجان يدها على ظهر هيلين وهمست ضاحكةً: «هو قبيحٌ وكبيرٌ في السنّ ورائحته مثل الجاموس». وضحكت هيلين.

«تريدين رجلاً شاباً ووسيماً؟» استطاعت أن تشعر برأس نجان يومئ على ظهرها.

«رجلٌ جيّد مثل زوجك».

لم تصحّح لها هيلين وقالت: «ألا يعجبك أحدٌ؟».

«لين».

صمتت هيلين للحظة ثم قالت: «يا للهول!».

«ماتت زوجته ولا عائلَة له ولا أولاد».

سحبت هيلين الغطاء حول نفسها وجلست وسألتها: «هو أخبرك بذلك؟».

ابتسمت نجان وأومأت ووقفت لترمي محتويات القدر المليء بالماء بين الشّجيرات: «أليس لديك صديقات من النّساء أيضاً؟ هذا مناسب».

تظاهرت هيلين بالتثاؤب وقالت: «سأذهب إلى النّوم الآن».

غادرت الفتاة الغرفة بعد أن لاحظت هيلين استقامة ظهرها والانحناء الرّقيق لقدميها.

وحيدة ونفَسها عميقٌ وبطيءٌ تأمّلت بمأساة عائلة لين. إذا كان معنى وجود المرء أن يكون حجراً في جدار، فماذا يعني عدم وجود أحد إذاً؟ أن يكون الإنسان مركباً بلا مرسىً؟ ماذا يعني في فيتنامَ ألا تكون جزءاً من عائلة؟ هل كان ذلك إجابةً عن سبب الحزن الّذي أحسّته؟ هل كانَ ذاك سبب إخلاصه لدارو؟ انتظرت أن تسمع خطا دارو وهي نصف نائمة، انتظرته أن يخلع ملابسه وأن يعبر النّاموسيّة البيضاء المحيطة

بسريرهما حيث كانت تنثني خلفه لكي تجدها شفتاه، كان زوجاً بكلّ معنى الكلمة.

هدوءٌ تامٌّ وتواصلٌ تامٌّ، ومع ذلك كانت تعاني لتبقى في حاضر سعادتها حيث كانت أفكارها تعود بها مرّةً بعد أخرى إلى لغز لين. كانت تفكّر أيضاً بما حدث في الحملة في بليكو. سبرت خبايا تلك الحملة كما لو كانت ضرساً يؤلمها وهي تتحقّق من تأثير أخطائها. لكنّ تلك الأخبار الّتي سمعتها من نجان أخذت حيّزاً من تفكيرها أيضاً. هل كان صحيحاً أنّه فقد عائلته؟ وماذا عن موقف دارو المتفائل من إمكانيّة أن يكون جاسوساً؟ إلى أين ذهب الآن بينما كانت تخيّم في تلك القرية المنعزلة.

شكّت في أنّها حتّى إن أغلقت عينيها عن شرور العالم في الكابتن تونغ لتعيش في سعادتها المنعزلة بكوخ في سويسرا، فقد كان ذلك خيار شخص أحمق لأنّ دارو كان قد اتخذ قراره منذ زمن بعيد قبل أن يلقاها.

تحوّل حذر القرويّين إلى لطف، ودارو وهيلين مطوّقان بحياة القرية. بذرةً بذرةً. انتهى قلق هيلين حين أصبحت جزءاً من جدار لين. كان التّفكير بالعودة إلى المعركة جنوناً. لكن بينما استعادت ذراع دارو قوّتها، قالت إنّها كانت تستمع إلى شبكة فيتنام للقوّات المسلّحة على الرّاديو وكانت تقرأ أيّة صحف تستطيع أن تستجديها من مجمع المركز الأمريكي للتّطوير الدّوليّ.

كلّ صباح ومساء كانت هيلين تنضمّ إلى النّسوة لتستحمّ في النّهر في منطقة أعلى التّيار في القرية وهن يضعن حولهنّ أغطيةً قطنيّةً. كانت النّسوة تتعرّى تحت الضّوء المخضرّ الّذي يمرّ بالأشجار ويتّكئ على الضّفة. كنّ يغتسلن بالصّابون بينما يتحدّثن بعضهنّ إلى بعض، حيث تجد أجساد المراهقات

الجميلة النّاعمة إلى جانب الأطراف القويّة الغامقة للنّسوة الأكبر سنّاً. العديد من النّسوة المتزوّجات وقفْنَ ببطون ناتئة بينما كنّ يرضعن أطفالهنّ من أثدائهنّ.

كانت نجان تبقي نفسها بعيدة عن هيلين أثناء الاستحمام. كانت الفتيات يشعرن بالخجل بالقرب منها. منذ حديثهما فكّرت هيلين أنّها ندمت على بوحها بأسرارها. وقفت فتاتان صغيرتان عاريتان في مكان ضحل وهما يغسلان أنفسهما وهيلين تشاهدهما. نادتهما لكنّهما ركَضتا بعيداً.

أهدت هيلين الفتيات بعض ألواح من صابون (أيفوري) وسببت اهتياجاً كبيراً عندما أخرجت شفْرةً وجلست على صخرة لتحلق شعر رجليها.

كانت قد استعادت بعضاً من الوزن الّذي خسرته في المعركة. كانت تنام لساعات طويلة نوماً عميقاً بلا أحلام تغذّيها الحياة الغنيّة من حولها.

كانت هيلين ودارو يذهبان أسبوعيّاً إلى المركز الأمريكيّ للتّطوير الدّوليّ الّذي كان مقرّه في مبنىً فرنسيّ استعماريّ قديم في البلدة المجاورة من أجل الطّعام الأمريكيّ ولتبادل الحديث. كان نيكولز قد تقاعد لتوّه من الخدمة العسكريّة وحاول الآن أن يؤسس مشاريع ليزيد الإنتاجيّة الزّراعيّة. كان مسؤولاً عن بناء مخازن للأسمدة والمبيدات الحشريّة والحبوب المطوّرة الّتي ستتمّ زراعتها. وقد تناقلت الشّائعات أنّه أحبّ نمط الحياة الّذي يضمن له عشيقته الفيتناميّة الشّابة، كان لديه الكثير ليتركه خلفه إن قرّر الرّحيل.

كلّما طال بقاء هيلين في القرية ساقت أعذاراً أكثر لكي لا تزور المقرّ الخاصّ بالوكالة الأمريكيّة للتّطوير الدّوليّ. شعرت

بأنّها خرقاء أمام الخدم الفيتناميّين الّذين كان يعاملهم الرّجال الأمريكيّون بطريقة سيّئة. بدا دارو غير واع أو أنّه قد اختار ألا يلاحظ ما يجري حوله. كان يشرب الويسكي ويسمع الموسيقى بسعادة وهو يتصفّح المجلات والجرائد.

كانَ صوت نيكولز وساندرز عالياً في محادثتهما والموسيقى الّتي عزفاها. ارتجفت هيلين في هواء المكيّف البارد. قطع لحم (السّتيك) الكبيرة المشويّة ومشروبات الكوكتيل الّتي لا تنتهي جعلت هيلين تشعر بالملل. قامت بالبداية بإحضار منشفة معها من أجل إظهار الوجه الحضاريّ لحمّام ساخن. لكن بينما مرّت الأسابيع وجدت نفسها تفضّل الاستحمام في النّهر.

خلال الأمسيات الطّويلة كانت تشاهد عشيقة نيكولز في الساحة الخلفيّة؛ تلك الّتي كانت نساء القرية يتكلّمن عنها. كانت في الخامسة عشرة فقط وعائلتها كانت قد تبرّأت منها بسبب تلك العلاقة، لكنّهم كانوا قد اشتروا قطعة أرض بمال كانت قد أرسلته. كانت قد تلقّت أموالاً من نيكولز لتصرفها خلال أسبوع أكثر ممّا كان يكسبه والدها من الزّراعة خلال سنة. لم يسألها نيكولز أن تشاركه الوجبات كما لو كانت فتاة ضالّة، كانت تبقى جالسة في الساحة الخلفيّة على الطرف وهم يقضون أمسياتهم.

سألته هيلين وهي تأخذ قطعةً من البطاطا الخمريّة المخبوزة المستوردة من الولايات المتّحدة: «لماذا لا تطلب منها أن تنضمّ إلينا؟».

استدار نيكولز ونظر إلى الفتاة الّتي كانت تمشي في الرّدهة بكعبها العالي غير المتوازن: «(كيو)؟ هي أكثر سعادةً عندما تكون وحيدةً، تأخذ وقتاً للرّاحة».

«أنا متأكّدةٌ من ذلك». قطعت هيلين وجبة السّتيك بسكّين لحم كبيرة كمنشار.

أغلق نيكولز عينيه قليلاً وأصبح جلده أكثر احمراراً: «قلت إنّ لديها لساناً حادّاً».

قال دارو: «قلت إنّها كانت حادةً جدّاً بالنّسبة لك ولن تستطيع التّعامل معها». نظر إليه نيكولز للحظة وبدأ بتقييم الأشياء ثمّ ليقرّر أن يعدّ الأمر مزاحاً وينفجر في ضحكة عالية: «هذا هو، هذا ما قلته عنها، حسناً». ثمّ وضع (الكاتشب) في صحنه.

تحوّلت الغرفة إلى الصّمت. ظلّ طعام ساندرز دون لمس، تنحنح ساندرز. كان قد فقد الكثير من الوزن منذ وصول هيلين ودارو إلى القرية. خمّنوا أنه اعتاد على الغليون: «لا بدّ أنّك تموتين شوقاً لتعودي إلى الحياة في سايغون».

أجابت هيلين: «ليس حقيقياً».

قال دارو: «أنا جاهزٌ لفحص هذه الذّراع، أرسل أحداً ما حالما تصل رسالةٌ من مساعدي».

قالت: «هل تواصلت مع لين؟».

شعرت أنّها تعرّضت للخداع ليس فقط لأنّ دارو كان يخطّط للعودة منذ البداية، لكن أيضاً بسبب شعورها بالرّعب لفكرة العودة. لماذا اختار هذه الجلسة العامّة ليعلن نواياه؟

ابتسم نيكولز وقال: «يا إلهي هل تسبّبت بأيّة مشكلات؟ كانوا قد قاموا مسبقاً بإسناد بعض المهمّات لي».

قال دارو: «سأقوم قريباً بأخذ صور افتتاحات لبعض المحالّ في (أماريلو)».

«سأتنازل عن أيّ شيء لو استطعت أن أكون في سايغون الآن». قال نيكولز وهو يبلع لقمة لحم صغيرة ويلحس شفتيه برقّة.

«يبدو أنّك بخير هنا». قال دارو مومئاً برأسه في اتّجاه الفتاة الّتـي كانـت قـد غـادرت. وكان قد تعمّد وخـز هيلين مشـيراً إلى نزعتها في التّملك.

«سـاندرز كان يحصـل علـى دخـان الغليون وأنـا أحصل على الهـزّة». نظـر نيكولـز باتّجاه الفتـاة الّتي كانت قد غـادرت «لكن هناك الكثير من الخيارات المتاحة في سايغون».

استأذنت هيلين في الخروج إلى القاعة. كانت تكره أولئك الرّجـال وتكـره دارو عندمـا يكـون معهـم. كانت تلـك زيارتها الأخيـرة. وضعت أحمر الشّـفاه أمام المـرآة وهي تفكر في عذر للمغادرة.

جفلـت عندمـا خرجـت كيـو مـن الغرفـة كمـا لـو أنّهـا قـد لاحظتهـا. بـدت الفتاة أصغر سـنّاً عـن قرب. أشـارت إلى أحمر الشّـفاه مبتسـمةً وهي تكشف عن السـنّ الأماميّة الّتي بها ثقب كبير. أشـارت إليها هيلين أن تجرّبه. أغلقت كيو شـفتيها بخجل ووضعت اللّون على شفاهها.

لـمَ لم يأخذهـا نيكولز لتصلح سـنّها؟ قـرّرت هيلين بعد أن أحسّـت بالحنـق أن تأخـذ الفتـاة بنفسـها إلى طبيب الأسـنان. تأمّلت كيو اللّون الورديّ اللامع على شفتيها بجديّة كبيرة، كانت شـديدة الحزن والحكمة بالنّسبة لعمرها. انسَي طبيب الأسنان، احتاجـت الفتـاة أن تُؤخـذ بعيداً عن هناك وتوضع في مدرسـة. كيف يمكن لهيلين أن تتدبّر ذلك؟

أعادت كيو أحمر الشّفاه لكنّ هيلين ربّتت حول أصابع الفتاة لكـي تحتفظ بالأنبـوب وقالت: «هـذا لك». عندمـا دخلتا غرفة المعيشـة كان نيكولز متمدّداً على أريكـة الجلوس وهو ثمل. نظر نظرةً واحدةً إلى كيو وقال: «تعالي إلى هنا! تعالي الآن!».

ظهر عرقٌ نابضٌ على صدغ كيو وكان يظهر مع اقترابها أكثر فأكثر.

قال دارو عندما وقفت هيلين ولاحظ عدم اقترابها للجلوس إلى جانبه: «دعها وشأنها».

أمسك نيكولز كيو من ردفها وسحبها إلى حضنه وهو يمسح فهما بكمّه: «تبدين كعاهرة يا عزيزتي لا تبدين بحالة جيّدة، عاهرةٌ ومغطّاةٌ بتلك الأشياء». ربّت على خدّها وقال: «تلك هيَ فتاتي، فتاتي الجيّدة النّظيفة».

استدارت هيلين ومشت خارجةً.

قال نيكولز: «ما الخطب لا أريد منك أن تريها الأشياء السيّئة».

تعثّر دارو في الخارج على الطّريق الترابيّ عندما حاول إعادة لبس حذائه: «هل سنمشي إلى البيت؟».

مشت هيلين في الطّريق دون أيّة كلمة. كان الظّلام والهواء الدّافئ مريحين.

«هل أنت غاضبة منّي؟».

«لا. ليسَ منك. لمَ لم تقلْ أيّ شيء؟».

«إذا كنت انتقائيّة فلن تحظي بالكثير من الأصدقاء هنا».

«لن أعودَ إلى هناك أبداً».

«حسناً لكنّك تعاقبين الفتاة أيضاً».

تباطأت هيلَين وهي تحرّك الحصى لتخرجها من حذائها. ضحك دارو وأمسك بذراعها. سألته: «ما الذي يضحكك؟».

«يا لك من صارمة وصالحة. وكم كنت غاضبةً، لم يكن لديّ فكرةٌ أنّك هَكذا».

لم تقل هيلين شيئاً.

«لقد أضعت تلك الميزة في الماضي لكنّي معجبٌ بها الآن».

«أنـت تسـخر منّي. وأنت لـم تخبرني بخططـك بالعودة إلى العمـل». قالـت، كانت تعلـم أنّ غضبهـا لما حدث لكيـو كان أيضاً غضباً لنفسها.

«كان الأمـر، فلم أرد أن يكون شـيئاً رسـميّاً».. قـال دارو فجأةً بجديّة: «جميع الأشياء الجيّدة تنتهي».

أثارت التّحضيرات لاحتفال الصّيف الهياج في القرية، وكان كلّ مـن هيلين ودارو مدعوَّين للمشـاركة. عرف هوتنغ خططهما بالمغادرة لكنّه أصرّ على بقائهما في الاحتفالات.

خرجت هيلين عن سـكونها وكلّ ما اسـتطاعت التّفكير به أنّها كانت تفقد شيئاً أرادته. لكنّها لم تستطع إخبار دارو ماذا كان ذلـك الأمر وهو تفكيرها بالاختيـار بين وجودهما معاً أو الحـرب، فلن تسـتطيع أن تحصـل على الاثنين معـاً. بدا لها أنّها لم تستطع المرور خلال القرية من الخارج كما كان الوضع من قبل. كان من المستحيل عليها أن تغطّي الحرب بإحساسها بالوفاء لكلا الطّرفين المتنازعين على حدٍّ سـواء. هل كان ذاك ما حدث لماك كراي؟ تسـاءلت هل كان مواليـاً لعدّة أطراف في الوقت ذاته؟

تمّ ذبح الخنازير وأخذت صرخات الذّبح تطاردها حتّى هربت إلـى النّهـر. عندما عـادت كان البيت المشـترك مليئـاً بالمصابيح المعلّقة. تمّ إجلاسـهما في مكان شـرفيّ إلى جانب القائد. تكلّم عن إمكانيّة غلاء تكلفة إرسـال رسالة من أمريكا خاصّة سـانت لويـس ولـم تعرف هيلـين مـاذا كان عليها أن تفعـل إلا موافقته بالـرّأي. قـال هوتنـغ: «أعرف أنّه يتمّ تشـتيت الفتيات الشّـابّات. لكن كيف يمكنها أن تنسى أصلها ومن أين أتت؟».

تمايلت النّسوة تحت صوان من الطّعام والأطباق الشّهيّة مثل الأرزّ الدّبق، وكعك الأرزّ الحلو المسلوق، ولحم الخنزير المقطّع مع أغصان الخيزران، تمّ شرب الأنخاب مع كحول الأرزّ المخمّر. أمضى دارو ساعات طويلةً مع المترجم في محاولة معرفة ما يجب عليهم المساهمةَ به. ثمّ تمّت الموافقة على الجعة للكبار والآيس كريم للأطفال.

تمّ أخذ محراث مزيّن إلى حقل الأرزّ المشترك خارج القرية وكان ذلك خلال فتْرة بعد الظّهر ليوم الاحتفال، حيث تمّ حرث أخدود احتفاليّ.

تجمّع القرويّون لاحقاً في المنزل المشترك من أجل طقس تشريع القانون الخاصّ بحصاد الأرزّ، لقد كان طقساً للخصوبة يتمّ فيه اختيار أربع من فتيات القرية لتمثيل الغيم والمطر والرّعد والبرق.

تمّ نسيان العمل وتُركت الحقول دون رعاية، ولبست النّسوة أفضل أثوابهنّ وغسلت الفتيات غير المتزوّجات شعورهنّ بماء العطر وتركنه منسدلاً طويلاً على ظهورهنّ. كانت هناك أطباقٌ كثيرةٌ من الطّعام، وكان يمكن رؤية حشد من النّاس منشغلين بلعب لعبة ما في أيّ ساعة تقريباً.

تعافتْ يد دارو بشكلٍ جيّد حيث كان بإمكانه التّخلص من حمل الأشياء، وقام هو وهيلين بتصوير سباقات القوارب ومسابقات الطّيارات الورقيّة ومسابقات طبخ الأرزّ وصنع كعك الأرزّ والقتال بالعصيّ والمصارعة والرّقصات التّقليديّة.

قال دارو: «أحبّ هذا، سنسافر في أنحاء العالم ونقوم بالتّصاميم الحضاريّة ونصوّر الحياة البرّية في إفريقيا ولن يكون هناك حربٌ بعد الآن».

قالـت: «أتعدني بذلـك؟» محاولةً الا تُظهـر مدى رغبتها في الإجابة.

فـي اللّيلـة الأخيرة أضيئت الألعـاب النّارية على طول النّهر وظهـرت انعكاسـات أشـرطة مـن الضّـوء علـى الماء حيـث هرب العشـاق الشّـباب إلى الظّـلام. وضحك هوتنف لأنّ عـدّة زيجات جديـدة سـيتمّ الاحتفـال بها بعـد انتهـاء الاحتفال الرسـميّ. كان قـد حـرّض نجان لتعيد التّفكير بمشـكلة (منه). رأت هيلين الاثنين يمشيان على نحو مريك على ضفّة النّهر، ونجان عابسةً لكنّ القائد هزّ رأسـه وقالَ: «نجان رفضت الاستقرار فقد انتقلت إليها الأفكار الجديدة غير السّعيدة».

في الصّباح التّالي عند الفجر عاد كلّ شيء إلى حالته الطّبيعيّة والنّسـوة مختبئـاتٌ مـن جديـد تحـت ثيابهـنّ الغامقـة وقبّعاتهنّ المخروطيّـة، والرّجـال منحنـونَ لثقـل جرّافاتهـم. عـادت الحقـول مسكونةً من جديد وعاد الهواء ليمتلئ بالأغاني الاحتجاجيّة، وكان الأسبوع الماضي بعيداً ومنفصلاً كما لو أنّه كان حلماً. حلمت هيلين حلمـاً ثالثاً يجمعها بدارو غير السّـفر إلى سويسـرا أو الحرب، وهو البقاء في القرية عاماً كاملاً حتّى الحصاد التّالي.

تجاهلـت حقيقـة كتـف دارو الّـذي تماثـل للشّـفاء، لكـن بعـد انصرافهـا عن نيكولز وَكُلَ مَن مثَّله. ذهب دارو وحيداً ليقضي أيّامه فـي مجمع الوكالة الأمريكيّة للتّطوير الدّولي. كان قد غيّب نفسـه عن المكان مسبقاً قبل ذلك. كان بالكاد شيئاً قد بدأ ثم انتهى.

بينمـا كانـت عائـدةً مـن الاسـتحمام فـي النّهـر فـي أحـد الصّباحـات ظهر لين على الطّريق فخفق قلبها. «أراك قد عدت» قالـت له عندما أصبحا على مسـافة تحدّث مـع بعضهما. مدّت يدها ولمست ذراعه: «كنت مرتعبةً من هذا اليوم طوال اليوم».

(9)
(الجنّيّات)

كان لين قد احتفظ بصورة مسبقة له مع هيلين حين كان غائباً، كان يحلم ويحدّق بها غالباً طوال الشّهر الّذي كان وقتاً صعباً لبعده عنها، لكنّه أجبر نفسه على ذلك الوضع. عندما لمحها للمرّة الأولى على الطّريق التّرابيّ صدم من كيفيّة امتلاء جسمها وكيف تحوّلت بشرتها إلى اللّون البرونزيّ وبدت أصغر سنّاً وظهر تورّد في هيئتها لم يره من قبل. لكن حالما اقترب منها اخشوشن وجهها ونزل للأسفل عندما تعرّفت عليه فأصابه الجمود.

«قال دارو إنّه حان وقت الرّحيل».

«أعلم ذلك». مشت بخطاها خلفه عائدَين إلى القرية. كان أحمقَ ووبّخ نفسه بقسوة لإضاعته وقتاً طويلاً في الأحلام.

بعد ظهر ذاك اليوم سلّم لين هيلين إلى ذراعي دارو، كان رجلاً متعباً. وبعد أن استأذن منهما وهو يودع معدّات كاميرته في مجمّع الوكالة الأمريكيّة للتّطوير الدّوليّ، لبس ملابس فلاح بسيطةً ومشى على الطّريق التّرابيّ. وفي خارج القرية مشى إلى انحدار ضفّة النّهر إلى منطقة عشبيّة معزولة وخلع ملابسه ونزل ليسبح.

كان العشب على ضفة النّهر كثيفاً وطويلاً. ظهرت فيه ضربات المنجل باتّجاه معين ثمّ بالاتّجاه المعاكس. كما لو أنّه مرجٌ محصودٌ باليد. ذكّرته البقعة بالمكان الّذي كانت تغويه فيه ماي في أيّام دراستهم وهي تغنّي له.

احس بالمياه تغطي جسمه وكانت الوحدة متعةً عميقةً. وكانت راحته في عدم اضطراره للكلام. ففي حياته الماضية كان يعيش في خياله كثيراً ويكتب في دفاتره وكان ذلك جهداً مستمرّاً ليبقي عقله متوجّهاً نحو العالم محاولاً فهم الآخرين أكثر ممّا يفهم نفسه وليعيد كتابة أفكاره في لغة أجنبيّة.

بعد سباحته أعاد تسلّق الضّفة العشبيّة ولبسَ ملابسَه وغفا تحت الأشجار.

أيقظه صوت ضحكات الأطفال في وقت متأخّر بعد الظّهيرة. كانت هناك فتاتان صغيرتان تصطادان القريدسَ والسّلطعون في المياه الضّحلة من أجل الغداء. وكانتا منهمكتين في رشّ المياه على بعضهما أكثر من اهتمامهما باصطياد أيّ شيء.

نهض لين مباغتاً الفتاة الأصغر فوقعت على ردفها في الماء. وبّخته الفتاة الكبرى قائلة: «لقد أخفتنا».

قال لين: «أنا أسفٌ، اقتربا مني وسأعطيكما هديّةً». ضحكت الفتاتان واقتربتا أكثر وأعطى لين كلّاً منهما قطعةً من علك الفواكه الطّريّ.

كان وجه الفتاة الكبرى بيضويّاً ناعماً كحصى النّهر المصقول، ربّت لين على شعرها الحريريّ الشّديد السّواد وهي تقسم القطعة الأولى إلى نصفين وتعطي النصف لأختها وتضع الثّانية في حزام خصرها المحيط بسروالها لتحفظها بأمان.

سألت الأخت الصّغرى: «هل تحكي القصص؟».

«كنت أفعل ذلك».

«أرجوك، أرجوك».

أجابها: «هناك قصة واحدةٌ خطرت ببالي:

يحكى أنه كان هناك حطّابٌ فقيرٌ توفّيت زوجته. وكان في غاية الوحدة. ورأى في السّوق صورةً جنّية جميلة فوقع في حبّ تلك الصّورة. فأخذ الصّورة إلى بيته وعلّقها علَى جداره وكانَ يحدّثها في اللّيل واضعاً طبقاً من الأرز وعيدان الطّعام أمامها في أوقات الوجبات.

عاد أحد الأيام إلى بيته فكان كوخه نظيفاً وكان هناك طعامٌ شهيٌّ محضّرٌ له ليأكله. كان ذلك يحدث كلّ يوم دون إشارة عمَّن كان يأخذ على عاتقه الاهتمام به. فقرّر الحَطّاب حلَّ اللّغز فتظاهر أنّه ذاهبٌ إلى عمله في أحد الصّباحات لكنّه عوضاً عن ذلك عاد ليسترق النّظر من خلال صدع في الجدار ليجد الجنّية في الصّورة تعود للحياة فيسرع إليها ويَطلب منها البقاء والزّواج منه، وكنوع من التأمين قام بوضع الإطار الفارغ في خزانة، فعاشا مع بعضهما بسعادة وأصبح عندهما ثلاثة أولاد.

كبر الأولاد الثّلاثة وأصبحوا بَالغين أمّا الحطّاب فقد أصبَح عجوزاً لكنّ الجنّية بقيت صغيرةً وبشكلها نفسه؛ ذلك الشكلُ الّذي كانت عليه عندما خرجت من الصّورة، لأنّها خالدةٌ. بدأ أهل القرية بالكلام عليهم وقرّر الأولاد في النّهاية مواجهة أبيهم وعندما أخبرهم بالحقيقة رفضوا تصديقه. فتح الأب الخزانة بغضب وأظهر لهم الإطار الفارغ كدليل على كلامه لكنّهم مع ذلك اسَتهزؤوا به. عندما غادر إلى العملَ واجه الأولاد أمّهم الّتي أنكرت حتّى ذكروا لها الإطار فتوسّلت إليهم أن يردوه لها وعندما فعلوا اعترفت بالحقيقة وودّعتهم وعادت إلى الصّورة إلى الأبد».

سألت الفتاة الصّغيرة: «هل عادت الجنّية؟».

«نعم في الحقيقة يوجد جنّية في قريتكم الآن».

«حقّاً؟ أين؟».

«ابحثوا عنها، لها شعرٌ ذهبيّ طويلٌ».

«من أنت؟» سألت الفتاة الكبرى.

«أنا شبح هذه الشّجرة ألم تتعرّفا عليّ؟».

«لا».

«في كلّ مرّة تأتينَ فيها إلى هنا سأعرف إن كنت فتاةً صالحة وقمت بالتقاط السّمك من أجل أمّك».

«لقد كنّا سيّئتين اليوم فقد لعبنا ولم نصطد أيّ سمك».

ضحك لين ومدّ يده في جيبه وأخرج بعض النّقود المعَدنيّة: «أخبرا أمّكما أنّكما وجدتما هذه في الطّريق لكي لا تعرّضا نفسيكما للمشكلات هذه اللّيلة على الأقل».

مالت الفتاة الصّغرى ولمستْ ركبته: «أنت شبح؟».

أومأ لين ببطء محاولاً جهده للتّصرّف كشبح.

سألته: «هل ستكون هنا غداً؟».

«سأكون هنا دائماً، لكن ربّما لن تكونا قادرتين على رؤيتي».

استلقى لين عند الغروب على العشب الدّافئ على الضّفة واستنشق الرّائحة الثّقيلة لزهور الجريب فروت في هواء المساء. أغلق عينيه متذكّراً رائحة شعر ماي بعد أن تغسله وتضيف إليه بضع قطرات من زيت الحمضيّات لتبلّله فكان العطر يتغلغل في سريرهما، وعندها كانت تستلقي وتجعل الغرفة أيكةً مظلمةً ليجدها فيها. خصّص لنفسه فكرةً واحدةً عنها في كلّ يوم، وإلا لما كان قادراً على الاستمرار. كان يكنز ذكرياته كما كان الرّجال الآخرون يكنزون السّجائر أو الشّوكولاته.

كان اليـوم هـو الذّكرى السّـنويّة الثّالثة لوفاتهـا وكانت فترة الحـزن الرّسـميّ قد انتهـت لكنّه أحـسّ أنّه كان قـد فقدها منذ مئات السّنين، وأيضاً فقط البارحة.

كان في بعض الأوقات يصاب بالفزع عندما يشعر أنه غير قادر علـى تذكّـر تفاصيل وجهها بوضوح كما من قبـل. كان قلقاً علىَ آلاف الذّكريات لجسـم اختفى من ذَاكرته. كان الوقت كالكيمياء يدفـع الصّـورة بعيداً جدّاً ويغلفها بالضّبـاب، آلمه أنّه كان يعتمد على عدّة صور لها أكثر وأكثر، وكان كلّ ما يجعله يحبّها هو شيء غائب عن الصّوَر. بدت الصّور قليلة الوفاء كأنّه كان ينظر ويحلم بشخص غريب.

اسَتيقظ َوقت الفجر في الصّباح التّالي واغتسـل في النّهر مـن جديـد وانطلق إلى مكان (كان ثو) وهـو يتمنّى أن يركب مع الغرباء في رحلتهم إلى الشمال.

حالما وصل ذهب إلى مقهىً خارجيّ وجلس على طاولة مستر باو.

كان قد رأى مستر باو منذ شهر لكن رأى وزنه زائداً جداً وكأنه لم يره منذ عام.

قال باو: «ما الّذي أخّرك؟».

«لقد احتجت وقتاً للمغادرة».

«لـم يكن هناك شـيءُ جيّد بقدر صـورة الكابتن تونغ منذ أن تحدّثنا آخر مرّة».

أشعل لين سيَجارةً.

«لماذا ليسوا معك؟».

«دارو جريحٌ وهم لا يَذهبون إلى المكان الّذي أرشدهم إليه بل بالعكس أنا خاضعٌ لإرشاداتهم».

«أنت صديقهم، مهّد الأمر لذلك».

كره لين مقولة باو الكونفوشيّة ومكره الفلاحيّ. كانت تلك الخطب المملّة تغمر الحفلة.

غيّر باو اتجاه الحديث: «كيف حال عائلة زوجتك؟».

«لا أعرف، أتصور أنهم ليسوا بخير منذ أن تواصلوا معي».

أومأ باو: «عليك أن تؤدّي واجبك تجاههم كما تؤدّي واجبك تجاه بلدك».

ازداد غضب لين: «ما علاقة أداء الواجب ببيع الأفيون؟».

ضحك باو ضحكةً خفيفةً: «لقد نسيت مع من تتكلم».

«دارو وهيلين في القرية يتعلّمان كل شيء عن فيتنام. أظنّ أنّ هذا أمرٌ جيّدٌ».

«أوافقك، في المرّة القادمة الّتي أراك فيها، لديّ قائمة تسوّق؛ الخبز والسّجائر وربّما البراندي هذه المرّة».

طاف لين في قرية عائلته أو في ما بقي منها بعد غيابه عنها منذ اللّيلة الّتي أخذوهم منه فيها. كانت (ثاو) أخت زوجته تعيش في كوخ مجاور. وحال وصولهم إلى سايغون تمّ إلقاء القبض على زوجها وتقديمه إلى الجيش ممّا أجبرها على العودة إلى القرية لبقائها دون دخل. ثم تواصلت مع لين بعد انقطاع أخبار زوجها لمدّة عام.

لم يخبرها أنّ إصاباتهُ مع جنود جيش فيتنام الجنوبيّ كانت جسيمةً. حيث كان الضّباط يلقون بالموظّفين الّذين خضعوا بالكاد لتدريب بسيط إلى أوضاع خطيرة ليرضى عنهم مستشاروهم الأمريكيّون، وهم يبقون بعيدين بأنفسهم عن أيّة أحداث.

«لمَ لا يخبرني أحدٌ إن كان حيّاً أم ميّتاً؟» قالت. لم تكن ثاو

ممّن يضخّمون الأمور ويعطونها أكبر من حجمها: «كيف لي أن أتزوّج مرّةً ثانيةً إن لم أعلم؟».

قالت إنّ أصحاب زوجها كانوا يتنقّلون في منطقة المثلّث الحديديّ عندما رأوه آخر مرّة. النّكتة كانت أنّ الحصاد الأساسيّ من المنطقة هو المناجم. خمّن لين أنّه تمّ التّغاضي عن الجثّة. شعر لين بالاكتئاب بعد السّلام الزّائف لجيانغ في تلك المنطقة التي ترك فيها هيلين ودارو. كانت الحقول مليئةً بالأعشاب وجواميس الماء الّتي تتضوّر جوعاً بأطرافها الجذّابة. كان يشاهد العائلات تحمل مقتنياتها وتدير ظهرها عن تراث الأجداد. وكانت الطّرقات مسدودةً واللاجئون يشكّلون أنهاراً لا تلين، تصبّ في المدن السّاحليّة في (نهاترانا) و(دانانغ) وسايغون. كان آسفاً من سوء تصرّفه مع مستر باو.

كانت قرية ثاو تخضع لعمليّة تفكيك، حيث يتمّ هدم الأكواخ قطعةً قطعةً ويتمّ نقلها إلى مكان آخر أكثر حظّاً. وكان بعض القرويّين يحزمون أمتعتهم للرّحيل وآخرون يبقون بين حطام منازلهم. وفي الأسبوع الّذي سبق تعرّضهم للتفتيش من الجند كشفوا عن مخبأ أسلحة تحت أحد الأكواخ وزوّادة كبيرة من الأرزّ تحت كوخ آخر. تمّ تفجير الأكواخ والمستودعات وتدمير محتوياتها مع الحفاظ على البشر.

كان كوخ ثاو لا يزال موجوداً. وكانت جالسة على الأرض في الدّاخل شاحبةً وعيونها حمراء. كان لديها طفلان؛ فتاة عمرها أربع سنوات وصبيّ كان لا يزال يرضع من ثديها. عندما ظهر لين بالمدخل، نظرت ثاو إليه دون أن تتفاجأ.

«جيّد أنت هنا. لا نزال قادرين على إحياء الذّكرى السّنويّة لوفاة ماي».

«هل أنت بخير؟».

«نحن علَى قيدَ الحياة. لكن ما الهدف؟».

وضع ذراعه على كتفها. أعاد شكل وجهها والطّريقة الّتي وضعت يديها على يديه ألمَ غياب زوجته.

قالت ثاو: «أشعر بالعار، أنت هنا وليس لديّ أيّ أرزّ أو خضراوات أو حتّى بخورٌ لأحيي ذكر أختي».

«اجمعي أغراضك، سنغادر».

«إلى أين؟».

«سأدبّر لك مكاناً للعيش في سايغون، فأستطيع العناية بك وبالأولاد أكثر هناك».

أحنت رأسها وابتعد الطّفل عن صدرها. رأى لين حلمتها صغيرةً وليّنة. وخمّن من نحول الطّفل أنّ حليبها كان قد جفّ.

«كيف تستطيع تحمّل نفقة إعالتنا؟».

«الأمريكيّون يعطونني أجراً جيّداً».

أعطت ثاو الطّفلَ للفتاة لكنّها أبقت قميصها مفتوحاً: «كنت دائماً شخصاً عمليّاً أكثر من إخوتك لأنك تلتصق بالرّابحين في الحرب».

ردّ قائلاً: «ستحصلون على علاج. الأطبّاء والأدوية في سايغون ونستطيع شراء الحليب».

نظرت إلى ثدييها وهي تضغطهما بطرف إصبع حتّى تشكّل سائلاً حليبيّ عليهما وقالت: «لم آكل شيئاً منذ أيّامَ».

هذا الاتّصال الفجائيّ مع عالم النّساء أربك لين، وشَبَّهُ ثاو بماي أشعل نيرانه. أبعد نظره عنها حتّى لا تلاحظ ارتفاع حرارة وجهه كأنّها كانت تشعر بوخز العار والضّيق في جسمه: «ستتحسّن الأمور الآن».

تمايلت وهي تحاول الوقوف على قدميها وتحدّثت مع الفتاة بحدّة وأمرتها أن تعتني بالطّفل. نظرت إلى لين واغلقت سترتها: «إذاً تظنّ أنّه قد مات؟».

«إذا كان على قيد الحياة فسيجدنا في سايغون».

جمعت ثاو صوراً صفراء من الهيكل لوالديها هي وماي وعدّة أطباق من البورسلان الرّقيق ومشط شعرٍ بالياً ووضعتها في سلّة.

قالت وهي تضع الملابس في السلة: «إذا كان ميّتاً فستكون رغبة ماي لنا أن نتزوّج».

«علينا أن نلحق بالقافلة الأخيرة، سنأكل غداً مساءً طبقاً حاراً من لحم الخنزير والمعكرونة».

ضحكت ثاو ضحكة ارتياح ووضعت يدها على فخذه. أخذ يدها ووضعها بين يديه ثمّ تركها.

«سأحاول أن أعمل مغنّيةً عندما أستعيد عافيتي وأمتلئ من جديد».

«لا تقلقي يا أختي، سأتأكّد من بقائك آمنةً من أجل ماي».

توقّفت ثاو عند الباب في أكثر بقعة ضوءٍ تظهر جمالها وقالت: «أتشعر بالوحدة دونها؟».

«الحرب تشتّتني».

«ألم تلاحظ أنّ الكثير من الأولاد يولدون في الحرب».

وقف لين في الخارج حاملاً الفتاة الصّغيرة بين ذراعيه. ثم حاول تهدئة ارتجاف يديه. لم تكن ثاو هكذا من قبل وعرف أنّ اليأس جعلها تلقي بنفسها عليه بتلك الطّريقة ومع ذلك أزعجه الأمر. نظر إلى أجمة النّخل وتمنّى أن يعود إلى الكوخ في (إنجيانغ).

بـدأ دارو بإعـادة الاتّصـال مـع لـين بعـد ثلاثة أسـابيع لكنّ لين أجاب بأن لديه أمراً يشـغله في سـايغون ويحتاج إلى أسبوع إضافيّ. بعد وصوله وانتهاء الاحتفال جهّز دارو خططه للمغادرة بينما كان مزاج هيلين يسوء أكثر فأكثر.

اقترح هوتنغ رئيس القرية رحلةً وداعيّة لاستكشاف الأماكن: «عليكـم أن تروا هذا، قلب المقاطعـة، فالغرباء لا يعرفونه». ظهر قاريـان مسـطّحان بسـوار. واقتسـم كلّ مـن دارو وهيلـين ولـين وهوتنـغ قيادة القوارب. هيلين جلسـت في المقدّمة ووجهها بعيد عمّن يحيطون بها في تأمّل ساكن.

ذهبـوا في البداية إلى فروع مختلفة من نهري ميكونغ وباسـاك. كانـت ألوان الأنهار تتغيّر مـن الأخضر إلى الأحمر إلى البنيّ وتمتلئ بالشّـقوق الثّقيلة المتزايدة الآتية من الجبـال. كانت القوارب متّجهةً إلـى جانب جدران من النّخيل المائيّ بدت غير قابلة للاختراق ثمّ قام أحـد رجال القـارب بتوجيه مقدّمة القارب باتّجـاه فتحة ودفع جانباً بعض أغصان العنب فوجدوا أنفسهم فجأةً يبحرون في قناة شريطيّة ضيّقة لا يزيد عرضها عن عرض القارب نفسـه. شـرح لهم القائد أنّ أبناء البلد فقط هم من يسـتطيعون الإبحار هنا، والميـاه الجاريـة لا يمكـن توقّعهـا حيث إنّه يمكن لأربعة أقدام مـن الماء أن تتحوّل إلى وحل في غضون ساعات وتسبّب للقارب أن يجنح عن مساره.

كانـت أغصـان النّخيل علـى الجانبين تلفـح الموجودين على القـارب وقد أسـقطت قبّعة هيلين عن رأسـها. كان الهـواء قريباً وثقيلاً ومليئاً بالحشرات.

«أيزعجك الذّباب يا حبيبتي؟» سـألها دارو بطبيعته الجيّدة وهو يعرف غضبها ويشعر بارتياح أكثر لمعرفته أنّها رغم كلّ شيء مثل باقي النّساء.

مـرّوا علـى أكـواخ وحيـدة مواجهة للمـاء ومداخلهـا مليئةٌ بالدّجـاج الّـذي يبحثَ بـين القَـاذورات، وأطفـالٌ عـراةٌ وعجائزُ يدخّنّ الغليون. عاش الفلاحون هنا منذ حصاد الفاكهة والزّهور في عمق الأدغال وتنقلوا بالقوارب حيث كان التّنقل على الأقدام مستحيلاً.

فـي كلّ مـكانٍ توقّفـوا فيـه كان الأطفال والنّسـوة يسـارعون للنّظـر إلـى الوجُوه البيضـاء. أنهت هيلين توزيـع الكيس المليء بالحلويّـات الّـذي أحضـروه قبل أن يصلـوا إلى وجهتهـم بوقت طويـل حتـى وصلـوا إلى جزيرة في وسـط جـزء واسـع من نهرَ الميكونَغ تشكّلت من رافدين تجمّعا وقد ترَسّب الطّين فيَهما.

«الأنهـار فـي منطقة الدّلتا تغيّـر اتجاهها فإمّـا أنّها تتزايد وإمّـا أن تجـفّ وتتشـكّل الأرض منهـا، كلّ شـيءٍ دوماً فـي حالة تغيير». قال هوتنغ.

قال دارو عابساً: «تبدو متعباً يا لين». كان هناك بالفعل دوائر سـوداء تحـت عينيه وبحوله أصبـح حاداً: «هل كانـت على الأقلّ جميلة؟».

ابتسـم لين الّذي كان يراقبهم منـذ عودته وكيف كانت عيون هيلين تطيل النّظر إلى وجه دارو بتساؤل.

قال دارو: «ربّما عليك العودة إلى الحرب لكي تستريح».

قال لين: «رّبما علينا أن نذهب لنرتاح سويّاً». انفجرت هيلين بالضّحك للمرّة الأولى منذ وصول لين.

عندمـا ربطـوا القـوارب عنـد الضّفـة المنحـدرة تسـلّقوها. كانـت الحـرارة في غايـة الكثافة فخمّنت هيلـين أنّ الأنهار تغلي مـن جرّائها. شـربوا الماء وأكلوا الأرزّ البارد علـى الغداء ثمّ تمدّد القرويّون تحت الأشجار ليناموا.

سأل هوتنغ: «متى ستعودون إلى أمريكا؟».

قالت هيلين: «قريباً».

«هل يمكنك - ربّما - الذّهاب إلى سانت لويس للاطّمئنان على حفيدتي».

قالت هيلين: «إنّها بلدةٌ كبيرةٌ جدّاً». وبعد أن رأت خيبة الأمل على وجهه تابعت: «أعطنا عنوانها».

ابتسم هوتنغ مرتاحاً أنّ مهمّته تحقّقت. أشار الرّئيس إلى كلٍّ من هيلين ودارو ولين للّحاق به لاستكشاف ما في الدّاخل: «يوجد معبدٌ في مركز الجزيرة».

«تعالي إذاً». قال دارو ممسكاً يد هيلين.

دفعوا حاجز الأجمة الكثيف وتوجّهوا في طريق ينمو فيه الكثير من النّبت. كلّ بوصة من هذه الأرض تمتلئُ بالأوركيد الأرجوانيّ الضّخم، كان نموّاً عنيفاً وافراً وكثيفاً.

تخلّف لين وراء البقيّة لكنّه توقّف عندما رأى الأزهار وقال: «سأنتظر عند القوارب».

قال دارو: «لا، تعال لن نأخذ وقتاً طويلاً».

«أفضّل أن..».

«تعال».

كانت الزّهور المعلّقة من الأشجار بشكل عنيف وبكثرة على الأرض وبين الصّخور الكثيفةُ تختنق في الازدحام البرّي لا ترى الضّوء وهي محبوسةٌ فيما يشبه الظّلام تحت قبب أشجار النّخيل الكثيفة وأشجار المطّاط.

قالت هيلين وهي تتحرّك باتّجاه بحر الأزهار ومزاجها السّيئ قد تحوّل إلى فرح: «هذه حديقةٌ مسحورةٌ».

أخذت برعماً صغيراً في يدها وقرّبته من أنفها لكنّ الرّائحة

كانت رائحة عفن خفيفةً فقط. وضعت الزّهرة خلف أذنها على كلّ الأحوال.

التقط لها دارو صورةً عندما استدارت وقال: «تلك هي فتاتي».

«هذا ليس عدلاً».

«انظري إلى هنا مرّةً ثانيةً».

«لا».

اقترب دارو خطوةً أخرى في الخضرة الكثيفة وقال: «هيّا».

«لا». ضحكت هيلين وركضت وهي تسحق الطريق وتطؤه بقدميها بما عليه من أغصان العنب والأوراق وبتلات الزّهور.

«عودي إلى هنا». صاح دارو ضاحكاً وهو يركض خلفها.

ركضت وهي تتصبّب عرقاً. ثم ركضت أسرع لسماعها الخُطا الّتي تركض خلفها وتابعت دون اهتمام حتّى مرّ ظلّ فجأةً من أمام وجهها ونظرت إلى شجرة (بانيان) ضخمة كان يتدلى منها مئاتٌ من زهور الأوركيدا تلونها بشعلةٍ من اللّون الأرجوانيّ.

كانت هناك زهرةُ أوركيد معلّقة من غصن طويل وبدت كبيرةً ورائعةً بشكلٍ خاصّ. خطت خطوةً أخرىً لتصلَ إليها وتعثّرت بجذع شجرةٍ مختبئ في الأجمة السّفليّة ووقعت فوق النّباتات.

«هل أنت بخير؟».

انحنى دارو إلى جانبها بينما ضحكت ولفّت على ظهرها، انحنى هو ونفض التّراب عن ركبتيها بينما وصل إليهما لين ورئيس القرية.

«هل تأذّت هيلين؟».

هزّ دارو رأسه وقال: «ليس بعد».

نهضت وهي تفتّش الأرض عمّا كان يخز ظهرها والتقطت عصوَين بيضاوين صغيرتين. قرّبتهما منها أكثر وبدأت ابتسامتها بالتّلاشي عندما أدركت أنّهما كانا عظاماً وأرتهما لدارو.

«عظامٌ بشريّة؟».

«هذه الجزيرة مقبرة». قال هوتنغ مسروراً.

سألته هيلين: «لمَ لم تخبرنا؟».

«إنّهم يدفنون الرّهبان هنا. كان أوّل راهب ناسك يعيش هنا وحده. وعندما أتى القرويّون لرؤيته بعد موسم الرّياح وجدوا عظامه هناك فقط وزهرة أوركيدا أرجوانيّة تنمو من قفصه الصّدريّ. قيل إنّ الأزهار هي إظهارٌ لتنويره، ونحن نقول إنّها الحظّ الجيّد».

أسقطت هيلين العظام على الأرض. لوّح هوتنغ بذراعيه مشيراً إلى هيلين بينما كان يتحدّث: «احتفظي بها فهي تجلب الحظّ الجيّد».

«ماذا تعني؟».

«تعالي، أنت لا تصدّقين هذا الهراء». قال دارو.

هزّ لين رأسه وقال: «الحظّ الجيّد. بعض النّساء يأتينَ إلى هنا لتصلّينَ لأنّهنّ يردْنَ الأطفال أو لأنّ لديهن البنات فقط، وأخريات يأتين للنّسيان».

سألت هيلين: «للنّسيان؟».

«لينسينَ أحزانهنّ. فإذا كنَّ في غاية الحزن لا يستطعنَ تحمّل أرض الأحياء».

نظرت إلى لين والتقت عيناهما وقال: «سأنتظر عند القوارب».

قالت هيلين: «أنا أيضاً». اختفى المزاج الطيب وبدت الجزيرة

الصّغيرة الآن مظلمةً وتصيب برهاب الأماكن المقفلة.

«ألا تريدان رؤية المعبد؟ أنتما لا تحبّان المرح». قال دارو.

أزاحت هيلين العظام بحذائها إلى تحت الأجمة. ووقفت وهي تنفض عن نفسها الغبار. ركع هوتنغ وهو يشبك يديه ببعضهما كما الحكيم وأخذ يغنّي بصوت خافت.

كأنّه كان ينتظر هذه اللّحظة، خلف الشّجرة ظهر راهبٌ يرتدي اللّون البرتقاليّ مشى إلى منتصف الطّريق وانحنى لهم. عاد لين وتحدّث معه مطوّلاً.

«هذا هو الرّاهب النّاسك للجزيرة وهو يدعونا لاحتساء الشّاي». ترجم لين كلامه.

جلسوا في معبد صغير دون وجود أغصان متشابكة معلّقة فوقهم بحرّية تامّة. حرّك الرّاهب الأغصان ووضع إبريقه الحديديّ فوقها وهو ينظر نحو الزّوار الغرباء ويقهقه.

«يقول إنّه لم يرَ وجوهاً بيضاء من قبل ويسأل لمَ أنتم هنا؟».

استهجن دارو وقال: «الحرب، أخبره أنّنا مصوّرون».

«من يريد صوركم؟».

ضحك دارو.

«يسأل أيّة حرب؟».

وقف: «الحرب بين الجنوب والشّمال».

«يقول: إنّ هناك حرباً دائماً. لكن لماذا يقاتل الغربيّون في حرب الفيتناميّين؟».

«ليعطوهم الحرّية».

هزّ الكاهن رأسه وفرك يديه على فروة رأسه الصّلعاء. ثم تحدّث مع لين بسرعة وهو يؤشّر ويضحك: «هذا غير منطقيّ، لماذا يموتون من أجل الفيتناميّين؟».

«أخبـره أنّ الأمـر معقّـدٌ وأنّـه متعلّـق بالسّياسـة الجغرافيّة وحركات الشيوعيّة ونظريّة لعبة (الدومينو) التي تخص سقوط جنوب شرق آسيا».

وقف الرّاهب وتثاءب وتحرّك باتّجاه شـجرة وأراح نفسه على جذعهـا. ضحك لين وقال: «كلماتـك لا تعني له الكثير، لا تعني له أكثر من تبوُّله على جذع هذه الشّجرة».

أومضـت عينـا دارو ثمّ ضحك وضحـك الرّاهب بصوتٍ أعلى حتّى احمرّ وجهه وعاد ليجلس.

«نحـن نرتكب أخطاءً أكبر وأكبر لأنّنا لا نسـتطيع الاعتراف أنّنا ارتكبنا الخطأ الأوّل. لا نستطيع تحمّل خسارة حربٍ مع بلد آسيويّ صغير».

ضحـك الرّاهب وغطّى فمه وقـال: «لكن عليكم القتال حتّى فناء آخر رجل في فيتنام».

نظـر دارو إلـى الأرض وأومـأ برأسـه: «أنـت أوّل رجـلٍ حكيمٍ التقيته».

هزّ الرّجل رأسه وصبّ الشّاي.

«إنّـه مجرّد راهب بسـيط خائف من أنّ الغربيّين سـيضيّعون أنفسهم بسبب التّدخّل في قدر فيتّنام».

نهض الرّاهب وانحنى لهم ومشى مبتعداً.

«لم يتحدّث هكذا خلال عام كامل. إنّه متعبٌ».

بعد شـرب الشّـاي، مشـوا عائدينَ في صمت، وبينما تسلّقت هيلين القارب الأوّل فقدت توازنها. كان دارو ينظرُ بعيداً إلى النّهر وهو عابسٌ، لكنّ لين مدّ يده إليها ليسندها لتستعيد توازنها.

كان صـوت السّـيارات الجبليّـة هو مـا يحرّك سـكينة اللّيل. كانـت المصابيح الأماميّة تضيء بينما ينـزل الجنود الأمريكيّون

والميليشـيات الفيتناميّـة حاملـين أسـلحتهم ليشـكّلوا نطاقـاً عسكرياً حول القرية ويبدؤوا التّفتيش من بيت لآخر.

لبس دارو قميصاً وسروالاً وركض إلى الخارج وقالَ: «ما الّذي يجري؟».

«أنـت هنا. أين هي آدامـز؟ جميع الأمريكيّين مطلوبون حالاً إلى مجمع منظّمة التّطوير الدّوليّ».

«أعطنا دقيقةً لنرتدي ملابسنا، ما الّذي يجري؟».

«تمّ الهجوم على أمريكيّ وقتله في المنطقة».

«من هو؟».

«إنّه جيري نيكولز أحد أعضاء منظّمة التّطوير الدّوليّة».

ظهرت نجان بينما كانوا يحزمون حقائبهم. وجثمت في زاوية الكـوخ وهـي تبكي. انحنت هيلين لتربّت علـى ظهرها لتطمئنها بينما دخل لين.

قـال لين: «سـأبقى هنا، فحين يبدأ التّحقيـق يحتاجون إلى مترجم».

«سنَلقاك في الصّباح».

تمّت مرافقتهم إلى سـيّارة جيب بينما تمّ جمع رجال القرية كقطيع إلى مركزها ووضعهم تحت تهديد السّلاح. وأثارت نساؤهم جلبـةً كبيرةً وعاليـةً وغاضبةً كما لو أنّهم طيـور تمّ إزعاجها في المبيـت. أمّا الأطفـال الّذين بدؤوا بالنّحيـب حيث أيقظتهم من نومهـم أصواتٌ قاسـيةٌ وغير مألوفـة. كان هنـاك مروحيةٌ تحوم فوق الطّريق والمصابيح الكاشفة تنيرُ قمم الأشجار بسطوع بالغ كسحابة ضوئيّة غريبة وكان الضّجيج يصم الآذان.

قالتَ هيلين: «لا أظَنّ أنّ علينا أن نترك لين».

قال دارو: «سيكون بخير».

عندمـا وصلـوا إلـى مجمـع وكالـة التّطويـر الدّولـيّ كانـت الحديقـة مضاءةً بنور كبريتيّ شـبحيّ. وفـي المركز كانت الجثث المحزّمة لكلٍّ من نيكولز وعشـيقته الشّـابة في بركة من دم بلون الصدأ. كانت أذرعهم وأرجلهم مربوطةً بالأسلاك وقدْ تمّ التّمثيل بجثتيهمـا إمّـا قبل الإعـدام وإمّا بعده، الإعدام الّـذي تمّ بأناقة فـي مؤخّـرة رأس كلّ منهما. ضرب دارو يده السـليمة على غطاء السـيارة عندما رآهما ثمّ أمسكها بيده المصابة. أتى الضّباط إثر قلقهم من الهيجان، لكنّه هزّ رأسـه. تحرّكت هيلين مبتعدةً فقد ضايقها ذلك العنف بعد تلك الفترة الهادئة. انتابها شعور بأنّها جاهلةٌ، مثل الشّـعور الّذي انتابها بعـد الحملة الماضية ولم يأت الوقت بفائدة تخفّف من ذلك. كان مظهر الفتاة كشبح بالنّسبة لها. لا يوجد مكان آمن في هذا البلد، هناك فقط أماكن مؤقّتة للهـروب إليها. كيو الّتي فقدت أشـياءها شـيئاً بعـد آخر، بيتها، أهلها وقريتها، ثم فقدت حياتها. ولا يمكن الآن إصلاح أيّ شيءٍ مهمـا كان صغيـراً حتّى لو كان عمرها. ذهب دارو بعد عدّة دقائقَ ليمـارس روتين وضع الأفلام في الكاميرا ليلتقط صوراً للجثث. من سيريد صوراً كهذه.

كانـت البلاطات البيضاء والسّـوداء داخل الفيـلا موحلةً من أحذيـة الجنـود. جلس سـاندرز على إحـدى الأرائك بعـد أن تمّ استجوابه وقال: «كان الجميع يحبّونه».

وقالت هيلين دون تفكير: «يحبونه بشقّ الأنفس». نظر الضّابط إليهـم واحمـر وجه سـاندرز. تمّ أخـذ هيلين ودارو إلـى غرفتين ولم يهتمّا بأن يتظاهرا بالشـجاعة ودخلا غرفةً واحدةً فقط. اسـتلقيا على السّـرير ذي الخشـب الفرنسـيّ المحفور بكامل ملابسـهما غير قادرَين على النّوم. وللمرّة الأولى لأكثر من شهرٍ لم يلمسا بعضهما،

كلٌّ تائه في أفكاره. لم ينته وقتهما في القرية فحسب، بل كان كأنه لم يكن. وكلّ شيء قبلوه دون سؤال كان وهماً.

استدارت إليه هيلين أخيراً وقالت: «ما رأيك؟».

«تسألينني من فعلها؟».

«قلتَ إنّ المنطقة كانت آمنةً».

«قلتُ إنّ مجموعة (هوا هوا) كانت مشرفةً عليها وهم الّذين يصادقون على كلّ ما يحدث، لا بدّ أنّهم سمحوا بذلك».

في الصّباح لم تسعد هيلين بمياه المغسلة الدّافئة بل تاقت إلى لون الخضار المنعش المحاذي للنّهر. لم يأت لين. تذكّرت أنّ النّسوة كنّ يتكلّمنَ عن كيو. إلى أي جانب كانوا ينحازون؟ قادهم الكابتن المسؤول عن التّحقيق بسيّارة وأعادهم إلى القرية ليدلوا بأقوالهم قبل أن يتمّ إطلاق سراحهم.

كلّما اقتربوا من القرية كانت حقول الأرزّ تبدو فارغةً كما كانت خلال الاحتفال. بدت القرية أصغر وأكثر وضاعةً من داخل سيّارة الجيب. استطاعت هيلين بالكاد تذكّر فرح وجودها في الحقول، بدا الأمر لها أنّها كانت منغمسةً وتدلّل نفسها وتصرّفاتها، والآن صارت بسيطة كالأطفال. حتّى كوخهما بدا بعيداً وغريباً وهما يحزمان معدّاتهما في السّاحة المركزيّة، تمّ جمع النّساء والرّجال والأطفال كقطيع وإجلاسهم في الطّين تحت اكتمال حرارة شمس الظّهيرة.

بينما كانت هيلين تمشي تعرّفت على البعض وأومأت لهم بالتّحيّة لكن لم يردَّ أحدٌ على سلامها أو يعطي إشارةً بالتّعرّف عليها. كانت الوجوه محدّقة بتجهّم وعزوف. حتّى هوتنغ أدار ظهره لها. خاف أهل القرية أن يظهَروا أية صداقة مع الأمريكان أمام الجيش الفيتناميّ أو جواسيس جبهة

التّحريـر الوطنيّة الفيتنامية. فهم كانـوا لا يتوقّعون من أيّ طرف أن يساعدهم.

ثـمّ رأت هيلـين نجـان ووجههـا ملـيءٌ بالكدمات وملابسـها ملطخـة بالدّماء. نادت هيلين اسـمها وتحرّكـت باتجاهها. لكن الفتاة ارتعشت وانسلّت عائدةً بين الحشد.

جلـس الكولونيل الأمريكيّ على طاولة تحت ظلّ الأشـجار. ووجهـه أحمـر غامق من شـدة حرارة الشّـمس وخـدوده وجبهته عليها تقرّحاتُ بُثور صغيرة كان يخرج أنبوباً من المرهم ويمسـح به عليها. وعندما رأى هيلينَ ودارو وضع الأنبوب في جيبه وقال: «اللّعنـة علـى هذه الحكّة إنّهـا تثير الجنـون، أخبراني كم طالت فترة بقائكما هنا؟».

قال دارو: «أكثر من شهر».

«ولـم تنتبهـوا أنّكـم فـي مرقـدٍ لجبهـة التّحريـر الوطنيّـة الفيتناميّة؟».

«دعاني جيري نيكولز للبقاء هنا. لذا فهو لم ينتبه أيضاً».

«لم يكن هنا أيّ أحد من عناصر الجبهة» قالت هيلين.

«إنّه إعدام تقليديّ لعناصر جبهة التّحرير الفيتناميّة».

قال دارو: «كيف عرفت أنّ الأمر بدأ من هنا؟».

«الأمر سهلٌ فالفتاة الّتي كانت تعيش معه في المجمع مخالفةً بذلك القانون كانت عميلة للجبهة».

قال دارو: «من أين حصلت على تلك المعلومة؟».

قلّب في بعض الأوراق وقال: «من التّحقيق مع القرويّين، في الحقيقة هي الفتاة الّتي كانت تعمل لديك».

«نجان؟».

«نعم هي ذاتها».

«مَن أخذ تلك المعلومة منها؟ فيتناميّو الجنوب؟».

«هم المسؤولون عن التّحقيقات وصديقك كان حاضراً».

«هذا سخيف».

وضع الكولونيل يده على ذقنه وجفل: «ما هو سخيف برأيي أنّ المراسلَين لم يلحظا وجود أيّ شيءٍ مريبٍ طوال الوقت».

مشى دارو مبتعداً.

«كيو عميلتكم كانت طفلةً وكان يجب اعتقال نيكولز» قالت هيلين.

«في الحقيقة لدينا تقرير عنك وعن عدوانيّتك مع الضّحية».

قالت هيلين وهي تنهض: «لا تحاول اللّجوء إلى هذا أبداً».

لحق لين بهم وهم يمشون إلى سيّارة الجيب. بدا شاحباً وغير متأكد من أنّ أوراقه الرّسميّة ستحميه وسط هذا الجنون.

اخترقت نَجان الحرّاس وركضت إليهم وهم يمرّون بجانب القرويّين وتعلّقت بخصر لين.

قالت هيلين: «ما الّذي فعلوه بك؟».

ركض نحوهم حرّاس فيتناميّونَ موجِّهين أسلحتهم.

تحدّثت نجان بسرعة وعيونها تجمح بالخوف واللعاب على شفتيها. أخذ لين يديها وأسرَّت إليه بكلام في أذنه ثم أعادها.

عندما أصبحوا في سيّارة الجيب في طريقهم إلى المروحيّة استدارت هيلين وسألته: «ماذا قالت؟».

«أرادتنا أن نأخذها معنا وقالت: إنّها ليست عميلةً للجبهة وقد ضربوها حتّى اعترفت بذلك لتوقف الضّرب، لم أستطع أن أفعل شيئاً».

«مَن الّذي ارتكب الإعدامات؟».

«لم يكن نيكولز محبوباً. قال القرويّون إنّ كيو كانت حاملاً

وقد رفض هو الزّواج منها. ولم يخبرها عن زوجته الأمريكيّة إلا لاحقاً. ورماها خارجاً دون أيّ مال، ولإنقاذ ماء الوجه تمّ قتلهما وجعلوا الأمر يبدو أنّ جبهة التّحرير هي الّتي غسلت العار».

سألت هيلين: «أليس علينا العودة لنخبرهم الحقيقة؟ ولين يمكنه الإبلاغ عن الضّرب».

استند دارو قريباً منها وقال: «لا تعرّضي لين للخطر أبداً. يمكن للأمريكان أن يخرجوا من السّجن، لكن إن سجنوا لين فلن يمكننا فعل أي شيء. لقد حصل فيتناميّو الجنوب على اعترافاتهم وسوف يحتفظون بها».

قالت هيلين: «ماذا عن نجان؟».

استدار دارو مبتعداً.

ارتفعت المروحيّة إلى مستوى الأشجار وهيلين تحاول تمييز كوخهما من بين الأكواخ المحيطة. انفطر قلبها من فكرة الرّحيل خاصّة مع علمها بمصير القرويّين غير المؤكّد. كان من المستحيل إيجاد الكوخ فالأسطح المغطّاة بالقشّ اندمجت بسرعة مع بعضها ثمّ ارتفعت إلى درجة أصبح من الصّعب التّأكد من مكان القرية بين العدد غير المحدود من القنوات والأنهار. وبعد وقت قصير أصبح من الصّعب تمييز القرويّين عن كثافة الخضرة والأشجار المحيطة وحقول الأرزّ الّتي جعلت المنظر متشابهاً في كلّ اتجاه. ثمّ تلاصقت الأراضي وأصبحت غير قابلة للاختراق من جديد.

استدار الطّيار وصاح ليعلو صوته فوق صوت المحرّكات: «أتريدون أن نمرح قليلاً؟».

(10)
(ثيين ها)
تحت السّماء

كان اليوم جوهرةً كاملةً، وسوف يتذكره لين بعد مرور وقت طويل على أنه أسعد يوم في حياته. لم يكن الطّقس حارّاً جدّاً ولا بارداً جدّاً. كانت السّماءُ بلون أزرق سماويٍّ ناعم لا تشوبه سحابةٌ واحدةٌ. ورمل الشّاطئ الأبيض ملتهبٌ تحت ضوء الشّمس.

أدار الطّيار اتّصال الرّاديو، واتّجه إلى أقصى اليمين وانخفض فوق أشجار النّخيل مثيراً موجةً من هواء حرّكت الرّمال في زوايا صغيرة، وقطعت الأمواج إلى زمر على حافّة المحيط.

بعد نصف ساعة، وجد كلّ من دارو وهيلين ولين وطاقم الطّائرة أنفسهم جالسين في مقهىً على الشّاطئ في (فونا تاو) في فندق الكابتن القدّيس (جاكويز) يحتسون الجعة من نوع (33) ويأكلون السّلطعون المشقوق.

بعد تحمّس المالك لوجود هؤلاء الزّبائن المحمّلين بالدّولارات قام بوضع طاولتين مغطّاتين بمظلات مخطّطة بالأبيض والأزرق على الرّمال من أجلهم. وقام من أجل المناسبة بمسح غطاء الطّاولات المشمّع بمنشفة مدهنة. وعندما طلبوا المزيد من الجعة قام ولدٌ صغيرٌ بالتّفتيش في سلّة المهملات المليئة بالثّلج

الّذي كان يملأ الزّجاجات الفارغة، وكان بالنسبة له غنيمة ذاك اليوم. وبينما استمرّوا في تناول وجبتهم شكّلت القشور المقطّعة باللّون البرتقاليّ الورديّ سلسلةً ممزّقةً حول الطّاولة.

بعد الغداء فتح دارو عدّة الشّطرنج ولاعب لين بينما لعب طاقم الطّائرة كرة القدم الأمريكيّة على الشّاطئ موظّفين الصّبية من أبناء المكان ليركضوا بالكرة. أحد الرّجال أدار راديو شبكة فيتنام للقوّات الأمريكيّة.

أثّرت الظّروف في الحفاظ على طائرة (M16) حيث وجب وضع طبقة خفيفة من الشّحم عليها في الارتفاعات العالية بشكل رقيق غالباً وبخاصة في منطقة الدّلتا والمناطق الّتي تكثر فيها المياه؛ يجب الحذر ألا يتعرّض التّشحيم للتّلوث.

«اعتنوا بسلاحكم وسيعتني سلاحكم بكم إذا غادرتم فيتنام لأوامر طارئة».

قال الطّيار: «أطفئ ذاك الجهاز الملعون. ألا ترى أنّنا في إجازة هنا؟».

وبالفعل جعلت وجوه النّاس المسترخية على الشّاطئ والنّسيم الرّطب والأمواج الكسولة، جعلت كلّ هذه الأشياء الحرب تبدو كأنّها في مكان بعيد. عندما مشت هيلين إلى الشّاطئ حرّك لين حجر الفارس في الشطرنج فأصبح ملكه مكشوفاً.

قال دارو: «لا يمكنك قذف اللّعبة».

«آسف لا أستطيع التّركيز».

نظر دارو حوله ورأى الطّيار متمدّداً على ثلاث كراس وقال: «أأنت متيقظ يا (بلنغز)؟».

تنهّد الطّيار بسخرية وفتح زجاجة جعة وجلس إلى الطّاولة. مشى لين على قشور السّلطعون إلى طرف الأمواج المتكسّرة حيث

كانت هيلين واقفةً. شاهدوا الصّيادين وجلدهم الغامق كخشب عالجته الشّمس يسحبون شباكاً لضرب الأسماك على الرّمل.

بينما سارا بجانب الأمواج المتكسّرة، ركض صبيّ بالقرب منهما وعندما أصبح على بعد عدّة أقدام من هيلين، مدّ يده إلى الأسفل ورشّها بالماء. وقفت ونظرت إلى سروالها المبلّل ثمّ إلى الولد. وضعت يديها وملأتهما بالماء ورشّته بدورها بكميّة أكبر مرّتين. ارتفع حاجباه من المفاجأة ووقف ساكناً وضحك ضحكةً عاليةً خرجت من بطنه. بدؤوا لعبة مطاردة جدّية، هيلين والولد وانضمّ إليهما أصدقاؤه وبدؤوا يركضونَ في المَياه الّتي وصل علوّها إلى حدّ الرّكبة، وهم يمسكون ببعضهم في وسط الماء. وفي مرحلة من اللّعبة كانت هيلين تمسك لين داخل حلقة شكّلها الأولاد مَن حولهما وحبسوهما فيها ليرشّوهما بالماء ويدورون، ويدورون حولهما. خطر ببال هيلين فجأةً حلمها القديم بأولاد فيتنام عند بداية وصولها إلى سايغون، وكيف وجدتهم يهدّدونها عندما أحاطوا بها مع مايكل. ربّما رأت الحلم بشكلٍ خاطئ. لم يكونوا يهدّدونها على الإطلاق.

بعد خمس عشرة دقيقةً أصبحت حادثة وجود الأمريكيّة أمراً عاديّاً وانفضّ الأولاد عنها إلى كشك طعام ووقفت هيلين هناك مبلّلة بجانب لين.

«سأقول لكَ الحقيقة، كرهت هذا المكان عند بداية وصولي إلى هنا، كان غريباً ومخيفاً. لكن هذه المرّة في القرية ورغم كلّ شيء حرّكني هذا المكان».

«أنا سعيدٌ».

قالت: «بما أنّنا مبتلان لنسبح إلى تلك العوّامة».

«لا أستطيع».

«هيّا. ماذا لو تشنّجت؟ سيتعيّن عليك إنقاذي».

نظر لين إلى الماء الّذي يضرب ركبتيه لكنّه لم يقل شيئاً.

«ماذا؟».

«لا أستطيع أن أسبح».

أحسّت هيلين بإحراجه وأخذت يديه بين يديها وقالت: «أنت محظوظٌ إذاً فقد كنت أعلّم السّباحة طوال فترة المدرسة الثّانوية».

سارا معاً على الرّمل بعيداً عن الحشود بالقرب من بعض قناديل البحر الميّتة الّتي فاحت من لحمها البنفسجيّ الشّفاف رائحةُ عفن في الشّمس. دخلا الماء في امتداد مهجور كان فيه أثرٌ خفيفٌ من البرودة. علّمت هيلين لين كيفَ يحبسُ نفسه تحت الماء وكيف يطوف على ظهره وكيف يحرّك ذراعيه على ضربات الصّدر والضّربات الجانبيّة.

لمسته ويدها مقابل يده وذراعاها على صدره وجذعها خلف ظهره وبكلّ احتراف كما لو كانت ممرّضة مع مريض. أنزل لين رأسه تحت الماء من جديد وفتح عينيه على وسعهما ليسمح للسعات الملح أن تكون عذراً لدموعه. لم يلمسه أحدٌ إلا بالمصادفة مثل عناق هيلين ولمسات الغرباء بعد أن فقد عائلته. كان قد خدّر نفسه على تعود غياب الأحبة، لكن عملية (التّعميد الكنسي) هذه أيقظت فيه عذاباً جديداً، أنزل رأسه تحت الماء من جديد وحبس أنفاسه حتّى بدأت رئتاه تهدّدان بالانسداد وتسطّح في وجه الضوء وهو يسمع صوت بقبقة مع ضحكات الأولاد البعيدة.

وضعت هيلين يدها على ذراعه وقالت: «هل أنت بخير؟».

هزّ لين رأسه، وسارا خارجين من الماء ووقفا على الرّمل.

«لا تقلق لن تتعلّم كلّ شيءٍ دفعةً واحدةً ستعتاد عليها مرّةً بعد مرّة».

«لماذاً تحلمين بتصوير سلسلة (هوتشي منه)؟» سألها.

حرّكت هيلين شعرها وقالت: «كنت أحلم بذلك وما زلت ولكن ليس للأسباب نفسها الّتي فكّرت فيها قبلاً». نفضت الرّمال عن ذراعيها: «بدأت أُعجَب بهم وبإرادتهم العنيفة. هل تفهم شخصاً ما أفضل عندما تأكل معه طبقاً من الأرزّ؟».

دارت الشّمس في السّماء على نحو منخفض محوّلةً بحر الصّين الجنوبيّ إلى حقل من سائل برونزيّ.

«فكّرت فيك طوال الوقت في القرية، كان يجب أن تكون معنا. قالت هيلين. لقد شعرت بالّذي تحدّثت عنه أنّ الأمر حجرٌ في جدار».

عرف لين بهذه الكلمات أنّه يحبّها دون شكّ. بالكاد تذكّر السير على الرّمل عائداً إلى المقهى وكيف وقفا كتفاً إلى كتف وكيف جفّ شعرها وأصبح بلون القشّ الخفيف.

عندما اقتربا مدّ دارو ذراعيه فوق رأسه مبتسماً حتّى عندما نظر إلى الشّاطئ نظرة شكٍّ. كلّ ما استطاع لين أن يراه هو شعاع وجه هيلين وهي تنظر إلى دارو.

قالت مخاطبةً لين بصوت منخفض: «لديّ رغبةٌ عنيفةٌ فقط تجاه من أحبّهم، عليّ أن آخذه بعيداً عن هنا».

سيتمنّى لين بعد عدّة سنوات لو كانت هناك إشارةٌ أنّ تلك اللّحظة كانت اللّحظة المناسبة المتوازنة على حافّة التّغيير، وأنّ ثلاثتهم لن يكونوا أبداً سعداء معاً كما كانوا في تلك اللّحظة. لكن حتّى لو عرف كيف يمكن لأحد أن يوقف تحرك الوقت؟ عوضاً عن ذلك صرخ أحد رجال طاقم الطّائرة: «آيس كريم».

وأمسـكت هيلين يد لين وهم يمشون مسـرعين في الرّمل النّاعم يتعثّرون ويضحكون بشكل أعمى.

عـاد الثّلاثة إلـى الحرب الّتي جمعتهم. لكنّ الحرب نفسـها كانت قد تغيّرت وتغيّرت سايغون معها.

ذهـب كلّ من هيلـين ولين لتصوير اللاجئـين المتجمّعين في الأحيـاء الفقيـرة الّتي غمـرت المدينة. كانت الوجـوه الّتي رأوها متعبـةً وعظـام الوجـوه بـارزةً والخـدودُ مجوّفة والعيـون غائرة ومتحجّـرة مـن الصّعوبات الّتـي واجهتها، كانوا ينظـرون بعيداً وليس إلى الكاميرا، كان ذلك دليلاً أنّ العدوّ بدأ يربح.

بقيـت الحيـاة فـي المدينـة مزدوجةً كمـا كانت. كانـت هيلين تخوض كلّ ليلة في دعوات العشـاء الرسمية في المطاعم الأنيقة وحفـلات الاسـتقبال فـي السّـفارات. وكلّما كبرت الحـرب كبرت معها الحياة الاجتماعيّة في المدينة.

حضروا المناسـبات الرّسميّة بدافع الواجب دون أن يعرفوا ما الّذي سيتأتى من حضورها إلا الكلام عن كسب الحرب.

عاد دارو وهيلين إلى بعضهما وأخذا مكاناً في حياة الاغتراب الخاصّـة بالصّحافيّـين والمغامريـن. أتـى العديـد منهـم بدافع الطّمـوح كما ادّعـى دارو. لكنّ عدداً مماثلاً أيضـاً جاؤوا ليهربوا ممّـا كان يربطهـم بالوطن وعملهـم والعائلة والملـل. كانت صور نجـوم الإعـلام تختلـط بصـور الرّحالـة والصّحافيّـين الأحرار الّذيـن لـم يلتقطوا صـورةً لابن أحـد نجوم الأفلام أو لموسـيقي مبتـدئ مـن (كونيتكت) أو صـور مراهقين أمريكيّـين انتهى بهم الأمر على الطّرقات بعد أن تركوا الكلّية أو الثّانويّة.

كانـوا يلتقون في كلّ الحفلات اللّيليّة الّتي تتمّ اسـتضافتها في الفيلات الفرنسيّة المتهدّمة أو في البارات الرّديئة المتوزّعة في

المدينة. وكانوا يستمعون إلى الموسيقى الكوبية ويتمّ تزويدهم بخدمة الإرسال الصحافيّ اللاسلكي، ويتم تزويدهم بشراب الرّوم والويسكي ويدخّنون الحشيش والأفيون. كان معظم الرّجال لديهم صاحبات فيتناميات، والعدد القليل من النّساء كان لديهنّ عددٌ من الرّجال ليختاروا منهم.

كان حديث الحفلات يدور عن سعر البراندي وعن توفّر بخّاخ الشّعر وعن الحرب، وآخر المطاعم والنّوادي اللّيليّة والحرب، وعن حالات الطّلاق والزّواج والحرب، وعن الأطفال وخطر الحياة في الرّيف والحرب، وفي آخر الأمر يعودون إلى حجر أساس الوجود وسبب التّجسد الأمريكيّ الحاضر لسايغون. لقد كانت هي الحرب دوماً.

لكن كانت حياتها مع دارو في الشّقة الملتوية خلف باب بوذا في تشولون هي الّتي تشكّل تاريخها الحقيقي. والّذي كان بينهما كان يوازن الجنون في الخارج.

تمّ إرسال هيلين ودارو لتغطية هجرة جماعيّة للاجئين في منطقة خالية من الأعمال العسكريّة حيث كان يسير إليها خطٌّ أفعوانيّ ومتوتّر من الشّاحنات الّتي تعمل بالدّيزل القديم الّذي يصدر الدّخان، وتحمل تلك الشّاحنات درّاجات وعربات ومراكب وبشراً. وفي الوقت الّذي وصلوا فيه إلى القافلة كان قد سبقهم إلى هناك مجموعةٌ أخرى من الصّحافيّين ومن ضمنهم روبرت، ثمّ ظهر مات تانر، لم تلتق هيلين به منذ أن تبادلت معه صور الكابتن تونغ واعتبرت ذلك أمراً جيّداً وأسفت لرؤيته الآن.

تابع تانر مشيه دون التّعرّف عليهم. صافحه روبرت بتهذيب وفضولٍ وحالما رآهما معاً أدرك أنّه فقد فرصته معها.

سار كلّ من هيلين ودارو إلى جانب خطّ اللاجئين بينما بدأ لين يطرح عليهم أسئلته. أخلى النّاس مناطقهم في ذعر وكان هناك نقصٌ في المؤن الرّئيسيّة. مرّوا بجانب هيلين بخطا بطيئة ومتّزنة دون أن يلاحظوا كاميرتها.

كانَ هناك شحّ في الطّعام والماء. تجنّبت هيلين الشّرب من حافظة الماء الخاصّة بها مع أنّها كانت ظمأى؛ لشعورها بالذّنب لأنّها تمتلك الماء وغيرها لا، ولخوفها أن يتجمهروا عليها لأخذها منها. فامتنعت عن الشّرب لتحمي نفسها أيضاً.

بعد هدوء القرية، جعلها حجم المصيبة والعدد السّاحق للبشر تشعر أنّها عديمة الفائدة. لعقت شفتيها بعد أن جفّ فمها فتذوّقت ملوحتهما ممّا زاد من شعور العطش لديها. وعندما انهار عجوزٌ على طرف الطّريق انحنت إليه وأخفته عن الأنظار وأعطته جرعات غاليةً من مائها لكنّ حشداً آخر تابع وصوله وكان عليها أن تتحرّك.

كانت أطراف الطّريق تُستخدم كمطبخ وكحمّام لقضاء الحاجة فتحوّلت إلى طين وأصبحت الرّائحَة لا تطاق. وكان بعض القرويّين من كبار السنّ في غاية الضّعف لدرجة أنّ كلّ خطوة يخطونها كانت معجزةً من إرادة قويّة. تقدّم دارو في مشيتِه والتقى بتانر واثنين من المصوّرين الّذين كانوا يحيطون بشابّ يحاول جاهداً أن يجرّ عربةً مليئةً بالمقتنيات وعليها زوجان كبيران في السنّ، ربّما كانا الجدّين، يجلسان في الخلف مع ثلاثة أطفال صغار في أحضانهم. كان الشّاب قد خلع قميصه ولفّه حولَ رأسهِ، وكانت أضلاعه حادّةً ومحفورةً وكلّ العضلات والأوتار مشدودة من الإجهاد النّاجم عن جرّ العربة. بدا تانر خاصّة كالثّور لتحلّقه حول الشّاب وانحنائه

بينما يوجّه كاميرته إلى زاوية يستطيع فيها التقاط تعابير وجهه.

قفز دارو إلى الأمام ودفع تانر بقوّة من ظهره ممّا اضطرّه أن يمسك بأطراف العربة ليحمي نفسه من السّقوط. كانت عجلات العربة تهتزّ وتصدر صريراً من جرّاء دفعها على جوانب الطّريق.

«ماذا تفعل يا هذا؟».

توقّف الشّاب وطرح حبال العربة أرضاً وجاش صدره بقسوة عندما جذب أنفاسه. كان غير آبهٍ ومستسلماً لما سيحدث بعدَ ذلك.

أشار عليه دارو أن يتحرّك إلى خلف العربة والتقط حبالها بنفسه وبدأ يجرّها. اتّسعت عينا الشّاب من الدّهشة لكنّه تبع العربة وهو يتحدّث بصوت منخفض للزّوجين ذوَي الشّعر الأبيض. أدارت المرأة المصابةَ بالتهاب المَفاصل عنقها لتنظر إلى ظهر دارو.

صرخ تانر: «ما الذي يفترض أن يحدث فيما تفعله أيّها المجنون؟».

راقب روبرت المشهد، لم يهتمّ لدارو لو شنق نفسه، لكنّه لم يستطع تحمّل وجه هيلين المجروح فقال: «تابع طريقك يا تانر».

«هذا الملعون المجنون».

صاح روبرت: «تابع طريقك».

أخذ لين رباطي الرّقبة من عنق دارو.

قال دارو: «ضعهما في العربة والتقط بعض الصّور من الأعلى».

عدا لين ببطء إلى الأمام. كان وجه دارو مشدوداً وفكّه يرتجف. لم تعرف هيلين ماذا عليها أن تفعل ومشت إلى جانب

العربة في تردّد. وتفادوا الشّجار. تأخّر رويروت عنهم إلى الخلف من خط السّير ولم يكلّم أيّاً منهما كلمةً واحدةً. كلّ ما كان يدور في بال دارو من مشكلات وأفكار أصبح مشكلتها الآن ويتعيّن عليها التّعامل معها.

لم يتكلّم أحدٌ كلمةً لساعتين. وأخيراً مشى الشّاب إلى مقدّمة العربة وربّت على كتف دارو. أشار إلى بقعة ظلٍّ تحت شجرة وأومأ لدارو وسحب العربة خارج الطّريق. في اللّحظة الّتي أنزل فيها حبال العربة نهض الزّوجان وشرعا بتناول الأطفال لإنزالهم. وبينما كان الرّجل العجوز يغسل وجوههم بمنديل وببعض الماء، أفرغت المرأة العجوز سلّةً من أوراق الموز المغلّفة.

وقف دارو يفتح ويغلق يديه المتقرّحتين بشكل أخرق دون أن يعرف كيف يتركهم. ما حدود الإحسان؟ عندما يَبدأ أخلاقيّاً، متى ينتهي؟ كانت تربيته علمانيّة لكنّه كان يتوق لأن يمتلك ركيزة إيمان حتّى لو مؤقّتاً. انفجر شيءٌ في رأسه ظنّ أنّه غضبٌ قديم كان قَد تعامل معه. الشّيء الرّائع بالنّسبة لنا هو أنّه حين تنتهي هذه الحرب سيوجد دوماً حروب أخرى. طافت في ذهنه الفكرة الهادئة أنّه كان سيطلق النّار على تانر مباشرةً لو حانت الفرصة.

أتت هيلين إليه بصمت وأعطته حافظة الماء. كانت تشعر بالخجل عنه لمعرفتها أنّه كانَ يتمنّى لو أنّها لم تشاهد الحدث. لم يكن مهمّاً ما أتى بعد ذلك فقد رأت ما كان يخفيه هذا التبجّح، يأسٌ عميقٌ. إذا كانَ هناك تناقض في المحبوب، هل يحبه الحبيب أكثر أو أقلّ؟

فتح العجوز قطعة بامبو وورقة موز. كان بداخلها مكعّبٌ من الأرزّ. أشار لدارو أن يأكله لكنّ دارو هزّ رأسه وفتّش في جيبه

عن أيّة نقود كان يحتفظ بها وأعطاه إيّاها، وجد ثروةً من أوراق العشرين دولاراً، كما لو كان يشعر بالأسف. أضاء وجه الرّجل لكنّ دارو كان قد انسلّ مبتعداً مختفياً على الطّريق.

في ذلك المساء جلس كلّ من هيلين ودارو ولين على طاولة موضوعة على شرفة في فندق الكونتيننتال. كانت كلتا يديه مربوطتينَ بشاش. فلفّ يده ليلتقط زجاجة الجن والتّونيك.

وأصرّ قائلاً: «أخبرها عن مدى عظمة إنغكور».

ابتسم لين لإحساسه بوجود تغيير واتّفاق جديد بينهما وقال: «إنّها مجموعةٌ جميلةٌ من الصّخور».

قال دارو: «أنا أتكلّم بجدّية». وأخذ جرعةً كبيرةً من شرابه واستدار باتّجاه هيلين وقال: «يجب أن آخذك إلى هناك».

قالت هيلين: «يوجد فقط حربٌ صغيرةٌ تجري الآن».

«لا تقلقي أنت محظوظةٌ، سيكون هناك الكثير من الحرب أيضاً عندما نعود».

سمع دارو السّخرية في صوته ولكنّه شعر أنّها سخرية قديمةٌ وباليةٌ وأنّه تخطّاها.

أنهى لين شرابه ورفع ثلاث أصابع للنّادل ليحضر كميةً أخرى من الشّراب.

قالت: «يوماً ما».

تبادلوا النّظرات.

«كانت مدينة (بنوم بنه) كصورة في حلم. فيتنام ما قبل الحرب».

نكز دارو لين وقال: «هل تتذكّر الهدوء؟».

«ظنّ الجميع أنّنا مجانين عندما كنّا نعمل طوال اليوم في الشّمس الحارقة».

«لكنّ الحال كان جيّداً، ألم يكن كذلك؟» ضحك دارو وقالها بحرقة لحاجته.أن يكون كلامه حقيقيّاً.

تساءل لين عمّا كان يحدث بداخله. أكان الغضب والانفجار الّذي حدث بجانب العربة مبرّراً؟ وقال: «نعم كان جيّداً».

وضع النّادل ثلاثة مشاريب إضافيّة.

«ما رأيك أن نطلب بعض الطّعام مع المشروبات؟» قالت هيلين

«لا ليس يوماً ما، بل الآن عليك أن تريها، لنذهب إلى هناك صباح الغد».

انزعج لأنّ كليهما لم يكن منتبهاً له ويعاملانه كما لو أنّه ولدٌ نزقٌ. فاستاء من ذلك.

انتبهت إلى عيون النّادل وقالت: «نذهب إلى أين؟».

قال دارو: «أنت لا تصغين، لقد نسي (موهوت) وطنه وعائلته، وكان سعيداً باستكشافاته، ولم يستطع إبعاد نفسه».

«يا له من رجل أنانيّ!» قالت هيلين.

«لا ليس كذلك. لقد فهمت الأمر كلّه خطأ. لقد كان مثل آكلي اللّوتس في قصة هوميروس، ببساطة لقد نسي كلّ أفكار العودة».

«لكنّك غير محتاج للذّهاب إلى إنغكور فالحرب موجودةٌ هنا».

كان النّادل واقفاً بانتظار أن يعرف طلباتهم عندما دخل تانر.

«لا تحضر الطّعام أحضر قائمة الحساب». قال دارو.

«على أيّة حال لا نستطيع الذّهاب، فأنا ولين خطّطنا للذّهاب مع وحدة (أولسن) بعد يوم غد».

شرب دارو نصف كأسه في جرعة واحدة: «أنا بحاجة للعودة إلى إنغكور فقد مضى زمنٌ طويلٌ على وجودي هنا».

«أنت بحاجة لأن تأكل. أنت ثمل». كان طفوليّاً ومشاكساً وهي كانت حائرةً بسبب التّغيير الّذي أصابه. رأت الأمر على أنّه صورةٌ

من خوفها الخاصّ وحاولت أن تساعده بتعويذتها الخاصّة. فالخوف لم يكن خياراً متاحاً.

قال دارو: «علينا أن نستعيد ما كان لدينا في القرية».

«لكنّ القرية كانت كذبةً، أليس كذلك؟».

نظر تانر إلى الطّاولات ورآهم، فغيّر اتّجاهه ومشى طريقاً طويلاً إلى الطّاولة الخلفية.

قال دارو: «أتعرفين ما مشكلتك؟». قالها وهو يقوّس ظهره مع حضور تانر ويمرّر أصابعه علَى مركز الطّاولة كأنّه يمرّرها على سلسلة أفكار.

«كان يجب أنَ تكوني محاسبةً. أنت تستطيعين أن تصوّري لكنّك تصوّرين كما لو كنت محاسبةً».

وقف لين وقال: «أنا مشغولٌ غداً. أراك باكراً يوم الجمعة».

تجاهلت هيلين محاولته الهرب وقالت: «أتعرف ماذا تملك يا سام؟ الغرور العظيم للمراسل الأبيض. متى أصبح الأمر كلّه متعلّقاً بك وحدك؟ إن ما فعلته اليوم كان متعلّقاً بك وبتانر ولا يخصّ أولئك النّاس، يا لك من مسكين!».

رنّت ضحكة تانر في الطّرف الآخر من الغرفة بينما انضمّ إليه النّاس. جفل دارو كما لو أنّه تعرّض لصفعة حادّة واستمرّ بالتّحديق فوق كتفه. «يجعلني هذا أشعر بأنني غول يتغذّى على معاناة النّاس. أنا متعبٌ وأشعر بالقرف المميت».

قالت هيلين: «أنا آسفةٌ لكنّي لا أستطيع المغادرة فهذه فرصتي». وعلى الرّغم من إشفاقها عليه شعرت بالقوّة.

«أنت محظوظةٌ، كنت مثلك من قبل، لم أكن أهتم بأيّ شيء لوقت طويل».

رمت هيلين النّقود على الطّاولة راغبةً بالذّهاب قبل أن يصبح المشهد فضيحة أمام الموجودين وقالت: «ساعدني يا لين».

أنزل دارو يديه إلى حضنه وقال: «جعلت من نفسي أحمقَ، أعرف ذلك».

وضع لين يده على كتفه واستدار ليرحل. لم يُرد أن يكون كجزء من قسوة هيلين.

تسلّلت إحدى طفلات الشّارع إلى المطعم كما كانت تفعل عادةً ملتقطةً قطعةً نقديّةً بعشرين دولاراً وصاح النّادل: «لصّة». وأمسك بها رافعاً قدميها عن الأرض وبدأت هي بالصّراخ.

صرخت الطفلة مشيرة إلى اتّجاه ما: «هو أعطاني.. هو أعطاني». في مؤخّرة الغرفة كان تانر واقفاً وأشار إلى النّادل أن يأتي إليه.

«نعم أعطيتها، فقط مجرّد هديّة صغيرة، حسناً؟ هي لها». أعلن قائلاً لجميع مَن في الغرفة على وسعها، ثمّ استدار إلى أصحابه ممتعضاً: «ربّما عليّ أن أستأجر عربةً لأقلّها إلى بيتها ومن الأفضل لو قدتها إلى هناك أنا بنفسي».

اضطرّوا إلى جرّ دارو إلى الخارج بينما كان يتفوه بأشياء فارغةً. أشارت هيلين إلى سيّارة تاكسي في الشّارع. وصلوا إلى مقدّمة الزّقاق حيث كان مكان تجمّع الحرير والمزهريّات المصقولة. كان الحزن جافّاً في الطّريق، مشوا فيه إلى المبنى الملتوي. ذراع دارو كانت على كتف هيلين تحميها وتتّكئ عليها.

استلقوا على غطاء السّرير الأخضر بلون النّعناع وكان ضوء المصباح يدفّئ رقعة الحرير المتلألئة والغرفة القاحلة الّتي تليها.

«المهامّ تتشابك كلّ واحدة مع الأخرى، حان الوقت لكي أذهب. أعاني من الكوابيس».

وضعت هيلين راسها على صدره: «أثار قرفي مشاهدة تانر أيضاً، انسَ امره». ارادت أن تقول شيئاً لتساعده لكنّه كان في غاية البعد عنها الان.

حرّك دارو مرفقه ووضع يده على حنجرتها: «ماذا هناك لأفعله غير الحرب؟ لقد أصبحت هي حياتي».

وضعت هيلين يده بالقرب من فمها وهي تقبّل كلّ إصبع وقالت: «أنا حياتك».

«لا اعرف كيف أصلح الأمر؟» لم يتحدّث هكذا من قبل وتساءلت ماذا ستفعل إن قال كلمات انتظرتها لوقت طويل.

«اسم عائلتي كان (كوروبك).. عائلة هنغاريّة. كان عمري خمسة عشر عاماً وقرّرت أنّي سوف أصبح مصوّر حرب أمريكيّاً مشهوراً. لكنّ أسماء مصوّري الحرب المشهورين لم تكن بهذا الشكل، فحوّلت اسمي وجعلته سام دارو. مَن أكون إن لم أكن هذا الاسم؟ عليّ الآن أن أعيش لأكون جديراً به».

«من قال ذلك؟».

عاد ليستلقي على الوسائد: «لو أنّني التقيت بك منذ عشرين عاماً!».

«التقينا الآن. لا بدّ أنّ ذلك يعني شيئاً. أنا المحاسبة. أنسيت؟».

أضاء الفجر السّماء خارج نافذة الغرفة. رفرفت الأوراق المتوهّجة بخدر في أواخر نسيم اللّيل. استيقظت هيلين على صوت ضجيج ورأت دارو يجلس عند النّافذة ويدخّن وعند قدمه منفضةٌ مليئةٌ بأعقاب السّجائر.

«ألم تنم على الإطلاق؟».

«لم أستطع».

«لماذا؟».

«تركت وصيّةً في مكتب غاري منذ عدّة أسابيع».

استيقظت هيلين الآن وهي تشعر برعب كامل: «حديث كئيب أوّل شيءٍ في هذا الصّباح».

«ليس الأمر هكذا، سبب إخباري لك بهذا هو انتشار إشاعة بوجود أمنية لي قبل الموت وهي أنه لو حدث لي شيءٌ لا أريد أنَ أدفن، لديّ رُهابٌ من ذلك».

«هذا الحديث يجلب الحظّ السّيئ».

«يا قطّتي المرعوبة هذا هو الواقع. أنا أراهن أن أعيش لأصبح رجلاً عجوزاً».

نهضت عن السّرير وسحبت ملابسَها من فوق الكرسيّ وارتدتها. منذ اللّيلة الماضية وهي تصوغ نوعاً من المعادلة، فكرة المغادرة لإنقاذ دارو ستسمح لها أن تترك فيتنام دون الإحساس بالذنب ستكون فرصةً ثمينة: «ألا تتساءل إن كان الأمر يستحقّ ذلك؟».

«كلّ مرّة أخرج فيها. الا يكون الأمر طبيعيّاً لو لم تخرجي معي. لا أحدَ يريد أن يقولها، لكن الزّوج، الأب، لا شيء من هذه الأشياء مهمّ في الحرب وإلا فلمَ نحن هنا؟».

«ستستقل الطّائرة المغادرة التّالية، أنت قلتَها بنفسك، مضى وقتٌ طويلٌ على وجودك هنا».

أومأ دارو برأسه وأطفأ عقب سيجارته. وقال: «ربّما سنفعل ذلك».

ثمّ أخفض صوته أكثر وقال: «ربما يحدث ذلك قريباً».

المترجم في سطور

زهرة حسن

- من مواليد سوريا عام 1987.
- حاصلة البكالوريوس في الأدب الإنجليزي من جامعة تشرين.
- تعمل معلمة لغة إنجليزية في مدارس وزارة التربية بالكويت.
- ترجمت العديد من المقالات الأكاديمية في شتى المجالات.
- لها العديد من الكتابات الإبداعية والأكاديمية باللغتين العربية والإنجليزية.

المراجع في سطور

د. أحمد البكري

● من مواليد القاهرة العام 1940.

● حاصل على الدكتوراه من جامعة لندن في اللغويات التطبيقية (قواعد اللغة الإنجليزية) العام 1974.

● عمل أستاذا بجامعة الكويت - كلية الآداب - قسم اللغة الإنجليزية من العام 1980 وحتى العام 1990.

● عمل أستاذا بجامعة السلطان قابوس - كلية الآداب - قسم اللغة الإنجليزية من العام 1990 وحتى العام 2001.

● له عدّة أبحاث في قواعد اللغة الإنجليزية منشورة في المجلة العربية للعلوم الإنسانية التي تصدر من جامعة الكويت.

● له عدّة مؤلفات في قواعد اللغة الإنجليزية للطلبة العرب، وعدّة مراجعات للترجمة في سلسلة «من المسرح العالمي».

● قام بمراجعة العديد من أعداد سلسلة «إبداعات عالمية» آخرها كان راوي مراكش (رواية) العدد رقم 415.



تاتيانا سولي

- تعيش في مقاطعة «أورانج كاونتي» في كاليفورنيا.
- رُشّحت لنيل جائزة بوشكارت.
- حازت هذه الرواية على جائزة «James Tait Black memorial»، وجائزة «دانا».
- لها روايتان أخريان هما «شجرة النسيان» و«الفردوس الأخير».
- «آكلو اللوتس» صنّفتها صحيفة نيويورك تايمز كأحد الكتب المرموقة لعام 2010.
- ظهرت أعمالها الأدبية في أهم المجلات الأدبية منها «بوليفارد» Boulevard.

آكلو اللوتس

هذا الجزء مـن رواية «آكلو اللوتس» للكاتبة تاتيانا سـولي، تلتقي بطلة الرواية هيلين الشـغوفة بزميلها سـام دارو الصحافي الشـهير المخضـرم، وتقـع في حبـه ليصبـح عشـيقها ومعلمها فـي آن واحد، فيحـاولان معـا حل لغز الحـرب، تلك التـي دفعت بالكثير مـن الرجال للمخاطرة بكل شـيء، ثم تلتقي عن طريقه بمسـاعده لين الفيتنامي، فيعملان معاً ويقعان في الحب لاحقاً بعد موت سام دارو.

بطلة الرواية الصحافية التي تريد تصوير القصة الأهم في حياتها، أرادت أن تعرف النهاية وتعيشـها وتكتبها بنفسـها، فبقيت حتى آخر لحظة بعد خلو الشوارع التي أصبحت مشوهة بالغياب.

قصة طموح وشغف وحب في ظل امتحان ظروف الحرب القاسية.

تجعلنا الكاتبة نتساءل:

مـا الذي جعل شـابة جميلة فـي مقتبل العمر مثـل هيلين تترك وطنها كاليفورنيا وتذهب إلى فيتنام؟

مـا الذي جعلها تدخل عالـم الرجال وتخـوض حروبهم عندما لم يصدّق أحد أنها قادرة على فعل ذلك؟

ما الذي شدّها إلى فيتنام حتى عجزت عن العودة إلى وطنها؟

هل كان الحب العاصف؟

هل كانت الحرب؟

ما السر؟



ISBN: 978-99906-0-546-6